كتاب نسمات 2

الغرباء

فتح الله كولن

دار الانبعاث للنشر والتوزيع

كتاب نسمات 2

الغرباء

فتح الله كولن

الغرباء

Copyright©2018 Dar al-Inbiath

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

إشراف وإعداد

نوزاد صواش

أسهم في الترجمة

أجير أيشيوك

نوزاد صواش

هيئة حراء للترجمة

التحرير اللغوي

صابر المشرفي

الإخراج الفني

نور الدين محمد

رقم الإيداع

2018/8452

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-85373-3-8

رقم النشر

004

دار الانبعاث للطباعة والنشر والتوزيع

Tel: +20123201002 - +201066067034
E-mail: daralinbiath@gmail.com
www.daralinbiath.com

الغرباء

فتح الله كولن

www.nesemat.com

فهرس

تقديم ٩

كَفكِف دموعك يا صغيري ١٣

طويلا بكينا ١٦

الإنسان الذي نتوق إليه ٢٠

أين أنت؟ ٢٤

أنت ٣٠

الطرق ٣٤

الامتحان ٣٨

الوفاء ٤٣

الغرباء ٥٠

تجديد الذات ٥٦

شجرة الأمة ٦٢

الروح الباعثة ٦٩

العذاب المقدّس ٧٦

انتصار الروح ٨١

مكابدة الفكر ٨٦
النفوس المكابدة ٩١
أيها الشاب ٩٥
روح الفتوّة ٩٩
النفوس النافعة أو مجتمع الضمير ١٠٣
الأجيال السعيدة ١١٠
أنْ نكونَ من جديد ١١٣
المجتمع المثالي ١٢٤
الإنسان الجديد ١٣٠
الوعي الجمعي ١٣٥
سلطنة القلوب ١٤٦
جنون القوة ١٥٣
سمات المؤمن الحق ١٥٨
حب الإنسان ١٦٦
تعالوا نتحدث بقلوبنا ١٧٣
صورةٌ قَلمية لفارس القلب ١٨٣
الناذرون أرواحهم للحق ١٨٩
المؤمن لا يسقط وإن اهتز ١٩٦
حركة نماذجها من ذاتها ٢٠٦

هذا موسم البكاء ٢١٣
فرسان الوجد في هذا الزمان ٢٢٨
عالم المسلمين ٢٤٢
الأمانات المباركة ٢٥١
بيان القلب ولغة الحال ٢٥٨
أنت روحنا النابضة وقلبنا الخفاق ٢٦٤
لعلّنا نُبعَث من جديد ٢٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

قراءةُ ما كَتب الأستاذ فتح الله كولن في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الأمة الإسلامية، لا تعدو أن تكون إمَّا ضربا من ضروب الجنون، أو لونا من ألوان الإيمان:

جنونٌ؛ لأنَّ كلَّ ما يصدر عن الأستاذ من أفكار تكاد تجد نفسها غريبة عن زمانها، مثالية على ما يبدو أكثر مما اعتاد الناس، أو واقعية أبلغ مما تخيله الناس؛ إذن هي أفكار غريبة ليس لأنها جاوزت نصابها، أو انحرفت عن خطها؛ لكن لأنَّ الناس مالوا وانجرفوا، فابتعدوا عن المركز "كأنهم لا يعلمون".

وإيمانٌ؛ لأنك تكاد تلمس لهيبا حارقا وأنت تمارس عملية الفهم المضنية لما ترسمه يد الأستاذ وهو يبدئ في واقع الأمة ولا يعيد؛ واقع مرٌّ مريرٌ، وسرابٌ يحسبه الظمآن ماء "حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ".

وفي كلا الحالين، إذا كنت صادقا، فإنك تُصدَم بالهوة الشاسعة بين ما سطّره الأستاذ من مفاهيم، وقواعد، ومناهج، وخطط... وما تسير عليه "رتابة الحياة" و"حياة الرتابة" من اعوجاج، وخلط، وتخبط، وتهريج: "وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ".

كتاب "الغرباء"، ليس كتابا من الكتب، وليس مقالا ضمن المقالات، وليس سِفرا يُلحَق بالأسفار؛ وإنما هو واحة ودوحة، جنة وجنان، سماء وأرض، ماء وخضرة، حبٌّ ووفاء، صبر واحتراق، سماحة وسلام، بكاء وألم... هو مزيجٌ من المعنى لا يملك العقل إدراك مداه، ولا القلبُ الغوصَ في قاعه؛ إذا لم يكن عقلا فطنًا مؤيَّدا بالوحي، وإذا لم يكن قلبًا حيًّا مشدودا إلى الفردوس الأعلى، مشدوها متوترا بما كان وما سيكون... عقلا لا يستظل نهارا إلا بشمس القرآن الكريم، وقلبا لا يسري ليلا إلا تحت ضوء نبي القرآن ﷺ.

الغرباء، أوله "دموع تُكَفكَف"، وأوسطه "انتصار للروح، ومكابدة للفكر"، وآخره "انبعاث جديد، وغد وليد"؛ وما بين ذلك تشريحٌ للقوة في مقابل الحكمة، وتمليحٌ للمعقولية في مواجهة العاطفة: "أجل، القوّة طاقة كامنة تستطيع حل بعض المشاكل عندما تكون في يد الحقّ وتحت إرشاد المنطق والمحاكمة العقلية"، أمَا وإنها تحولت "أداةً للتدمير والتخريب في يد الفكر الغاشم المتهور الذي يدور في فلك العاطفة العمياء" فإنَّ النتيجة الحتمية التي لا مهرب منها ولا مناص هي "انهزام الحق والمنطق والمحاكمة العقلية جميعًا في أيامنا هذه أمام القوة المجنونة ووقوعُها في حالة من الأسر".

ولكن، هل حيال ذلك الانتكاس المخزي نستسلم، ونلقي بالمنشفة البيضاء على الحلبة، مبشرين بـ"نهاية التاريخ"، رافعين راية "قيام الساعة"، معترفين بـ"الهزيمة النكراء"؟

كلا وألف كلا، ولقد أعلنها صاحب "مجانين أريد"، وهو يرسم صورة قلميةً للغرباء الذين سيفتحون العالم إن لم يكن اليوم فغدًا،

سواء أدرك الناس ذلك أم تعاموا عنه، فهِموا المغزى أم أدبروا عنه، أرادوه أم وقفوا في وجهه... سيان: لا فرقَ، ولا أثرَ، ولا اعتبارَ...

فالفرق يصنعه الحق لا الباطل،

والأثر يحققه الخير لا الشر،

والاعتبار هو للإيمان لا للكفر...

يقول أول الغرباء -في هذا العصر- وهو يصف من يقف وراءه -أو إلى جواره- من جندٍ صادقٍ صالحٍ متحفزٍ، يقول مقولة الموقن الغيور: "إن هذا العالم لا يمكن أن ينجو من هذه الهوة السحيقة التي سقط فيها، إلا على أيدي أناس تربّوا على قيمهم الأصيلة، أناس ذوي أرواح فتيّة وعقول متوقّدة، نذروا أنفسهم للحق تعالى، وحملوا همًّا مشتركًا، واتجهوا نحو غاية واحدة، لا يرجون نفعًا ذاتيًّا، أناس ذوي إرادة وعزم، ساعين في الخدمة الإيمانية بكل جدّية، عازمين على تخطي جميع المصاعب والعقبات، أبطال للعلم والمعرفة والإرادة، لا يبتغون جزاء ولا شكورًا سواء في الدنيا أو في الآخرة". ثم يردف مؤكدا ومؤمّلا: "لقد عشنا حتى الآن على أمل قدوم هؤلاء الأبطال، وسنبقى في انتظار قدومهم ما حيينا".

بهذا النداء الأزلي يُختَم كتاب الغرباء الذي أُعِدَّ للقارئ، في هذه الأيام العجاف... ولكنه أُعِدَّ ليوم "فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ". ويعد كتاب الغرباء الحلقة الثانية من سلسلة كتاب نسمات، فقد صدر الكتاب الأول من هذه السلسلة بعنوان "مواقف في زمن المحنة، حوارات إعلامية مع فتح الله كولن". كتاب الغرباء هو مجموعة مقالات للأستاذ فتح الله كولن نشرت في مجلة حراء الغراء في

أوقات متفاوتة بدءا من صدورها عام ٢٠٠٥ إلى شهر مارس عام ٢٠١٨، وهي أربعون مقالا جُمعت للمرة الأولى بين دفتي كتاب مستقل، على الرغم من أن بعض مقالات الأستاذ كولن المنشورة في حراء يمكن أن يجدها القارئ في بعض مؤلفات الأستاذ المطبوعة. فقد تم ترتيب المقالات وفق الترتيب الزمني الذي نشرت فيه لأول مرة باللغة التركية، عسى أن يفيد ذلك في استشفاف السياق الزمني الذي خرجت فيه إلى الوجود.

كتاب الغرباء هديةٌ من مهجة ملتاعة، وأمانةٌ من شهم مهموم؛ وراية مرفوعةٌ من رجل عرفَ الحق فلزمه، وعرفَ الباطل فهجره، وعرف الـحُفَر فاحتاط منها، وعرفَ المبتغى فسارع إليه، وعرفَ الله ﷻ فتعلق به وحده، وشعاره في ذلك لا يتخلف ولا يبرح:

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(النساء:١٠٠).

نسمات

غرة رمضان ١٤٣٩

مايو ٢٠١٨

كَفكِف دموعك يا صغيري[1]

(فبراير ١٩٧٩)

من أجلك سلكنا هذا الطريق، لنشاطرك آلامك، ونخفف عنك أوجاعك، ونملأ قلبك بالبهجة والسرور. لا تعتِب علينا يا صغيري. أجل، تهاونّا، ما أسرعنا إلى نجدتك حين احتجتَ إليها. ولكن ثق أنّ تضرّع يعقوب وأنينه وعشق زليخا وأشواقها كانا يمزقان صدورنا.

كلما رأيتُ قدّك الرقيق مهدودًا من الحزن والأسى انفطر قلبي وتناثر كخصلاتك المبعثرة. كم من مرة رأيتك حزين النظرات، مطأطِئ الرأس، فاغرورقت عيناي بالدموع، وأحسست أن ظهري يكاد ينقصم أسفا. كلما أردت أن أقتبس نغمة من لحنك الحزين أضيفها إلى آهاتي الممتدة، صادحا بملحمتك الكسيرة، إذا بأنينك يحرق قلبي حرقا، وبآلامك تتعاظم في عيني، وتختنق العبارات بالعبرات.

لقد كنت أخجل من أن أمدّ إليك يدي. كنت أستحيي من أن أواجهك بشفقتي المصطَنعة. كيف لا، وقد ذبحوك أمام عيني.. أمام عيني شعّثوا ناصيتك، وألقوا بك في هذا الشقاء الذي تعاني منه.

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد ٦٦، (أبريل-ماي) ٢٠١٨. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد الأول، فبراير ١٩٧٩، تحت بعنوان: (Bu Ağlamayı Durdurmak İçin Yavru). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

عندما أطفأوا عقلك، وأطعموا قلبَك لمعدتِك، رأيت كل شيء بأم عيني، كلَّ شيء، لكن وا حسرتاه لم أستطع أن أمد يديّ الآثمتين إليك لأساعدك، لم أستطع وأنينُك يشقّ عَنان السماء!..

ما أشبه قدرك بقدر "فاوست"، لكن من هو "مفيستو" الذي تسبب في شقائك؟[1] من هو المجرم الذي ساقك إلى هذا المصير؟

في بلد آمن كنتَ. يضمُّك مأوى دافئٌ. يأتيك الرزق رغدا، تشرق عليك الحياة باسمة. وإذا بك تهبط إلى ديار الوحشة هذه، وإذا بالندامة تعتصر فؤادك، وتصرخ "ليتني لم آت!"، ولكن.. هل كان بوسعك ألا تأتي؟

أتيت.. فوجدت فراغا كئيبا يخيم على كل مكان. سعيتَ يمينا ويسارا تبحث عن قلب تألفه، فعدت من سعيك خاوي اليدين خائبا.. ناديتَ فارتدّ الصدى.. اخترقت أناتك السماء، فما وجدتَ قربَك أحدا.. أطلقت آهة بعد أخرى فلم يسمعها إلا أنت.

من سعى إليك أشبع طلبات بطنك فقط. أتدري يا صغيري؟! أناتك التي تذيب أحشاء قلبي اليوم، منذ ذلك الوقت ابتدأت. مذ ذلك الحين بدأت غربتك فأصبحتَ وحيدا مهجورا، في الفترة التي كنت تملأ فيها الدنيا ضحكا وحبورا.. تلتقطك الأيدي، وتضمك

---

[1] ملحوظة: "فاوست" هو الشخصية الرئيسية في الحكاية الألمانية الشعبية عن الكيميائي الألماني الدكتور يوهان جورج فاوست الذي يحقق نجاحا كبيرا ولكنه غير راضٍ عن حياته، فيُبرم عقداً مع الشيطان (مفيستو) يسلّم إليه روحه في مقابل الحصول على المعرفة المطلقة وكافة الملذات الدنيوية . وأصبحت هذه القصة أساساً لأعمال أدبية مختلفة لكتاب مختلفين حول العالم لعل أشهر هذه الأعمال هي مسرحية فاوست للأديب الألماني الشهير "غوته". (المترجم)

الأحضان، مستمتعة بجمالك مبتهجة ببسماتك. كنت على الصدور، كنت على الثغور، كالوردة الندية. تلك العناية من أجلك كانت، لكنها خالية مما تتوق إليه روحك. غريبا كنت بلا أنيس، وحيدا كنت بلا جليس.

أَمسُكَ أنجب يومَك، ويومُك يمهّد لغدوات مجهولة المعالم والآثار، إنك في مفترق طرق يا صغيري.

فَأْذَن لي اليوم أن أكون فدائيّك في هذه الجولة العصيبة. اسمح لي أن أضرب بريشتي من أجلك، وأوصل أنّاتي إلى روحك. لقد عجزتُ عن السعي إليك حين طلبتَ الغوث في غمرة العواصف والحرائق، فَأْذَن لي أن أضع رأسي الأثيم كأحجار رصيف تطؤه بقدميك، أعتذر إليك باسم كل المجرمين الآثمين: فاصفح يا صغيري عمن أنجبوك لمتعة زائلة، ومن تعلقوا بعظمك ولحمك وأغفلوا فؤادك ووجدانك، ومن ضحّوا بأبديتك من أجل دنيا عابرة، ومن حقنوا قلبك غلظة وخشونة وتمردا، فكانوا سببا في بؤسك وشقائك.

طويلا بكينا[1]

(مايو ١٩٧٩)

أضحى البكاءُ قدرَنا.. ما عرفنا غيرَ البكاء منذ سنين وسنين.. بكينا على إنساننا الذي مات، وعمراننا الذي تهدّم، وبَيدرنا الذي انتُهِب، وآمالِنا التي هوت قواعدُها، وشجاعتِنا التي خبا أوارُها. إن الغربي الذي حسِبنا أن لديه مصباحَ حياتنا، كان قد تمدد في نعشه قبلنا بكثير. إنه مات في ذلك اليوم الذي هبّ فيه "نيتشه" ليُلبِس الإلهَ قميصَ الموت معلنًا في وهمه أن "مات الإله".. إن الميت لم يكن سوى الغربي نفسه، وإنساننا المسكين معه.. إنساننا الذي غرق في المستنقع من حيث ظن أنه خرج من السجن ناجيًا.. إنساننا العابث المتفلّت الذي تمرد على كل شيء وأنكر كل شيء. أيّ سجن ذاك الذي زعم أنه ناجٍ منه، وأيّ غنيمة تلك التي حسب أنه نائلها؟ هيهات هيهات... لا مِن سجنٍ نجا، ولا من حظّ نال.. لم يتغير إلا إيقاع الحياة لديه، وظل يسمع الصخب نفسه، لكن في نمط آخر هذه المرة.

أجل، لقد نجحت الساحرة "هيلينا" في أن تستهوي قلبًا جديدًا بِعزف كمانها. فهل من جدوى إذا عرفنا صاحب ذلك القلب ما دام المنتصر هو

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد:٢٨، (يناير - فبراير) ٢٠١٢. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد الرابع (مايو ١٩٧٩)، تحت عنوان: (Hep Ağladık). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

الشيطان؟ إن اسم المهزوم لدى "كريستوفر مارلو" كان الدكتور "فاوست"، أما لدى "غوته" فقد كان "فاوست" بلا لقب عنده. ولكن كلا العاشقين الساذجين كانا قد وقعا صريعين في حب الملكة "الهيلّينية"؟! إن الشيطان هو الشيطان، لكن أين الواعون وأين المنتبهون؟! إنه قبل أمس كان حصانًا خشبيًّا أمام "طروادة"، والبارحة كان ماردًا قد التهم الغرب بحذافيره، واليوم هو تِنّين قد جثم على أنقاض الحضارة قاطبة.. تنين أطاح بكافة آمالنا وأخمد جميع أحاسيسنا.

قد يبرز من بيننا من يقول: ما لنا ولاهتزاز الغرب وترنحه وسقوطه؟! كيف لنقيق الضفادع أن يلوث الماء الصافي؟! لكن الأمر لم يكن كذلك أبدًا. إن الهزة التي وقعت هناك، دكّت ديارنا دكًّا، وجعلت عاليها سافلها. فانهدمت السدود، وانهارت الجسور، وتلاطمت الأمواج.. فضاع المسجد، وضاع المحراب معه.. ولم نستطع أن نبقى خارج هذه القيامة الحمراء.. ليتنا استطعنا أن نبقى خارجها. لم نستطع أن نقاوم تلك الدوامة الرهيبة بقيمنا التي عملنا على غرسها ورعايتها وإنمائها طوال قرون.. فكانت النتيجة أن ابتلعتنا. والمؤلم أن القاطع والطاحن والماضغ كانت هي أسناننا.

ثم انطلقنا نبكي سنين طويلة تائهين هائمين، وسالت عيوننا سيلاً وتدفقت كالشلالات تدفقًا.. بكينا على عمراننا الغابر وعلى مجدنا الضائع بكاءَ أيتام حُرِموا الأبَ والأم معًا. أبَى الصديقُ أن يتحلى بالوفاء، وأبى العدوُّ أن يَشبَع من الجفاء.. كان الزمان مقطّبا عبوسًا وكنا مفلسين أيما إفلاس.. ومن ثم لم نبرح البكاء ليل نهار. وإذ قد خيّمت علينا غيومٌ من الأنين، وحاصرتنا لججٌ من النُّواح فرشنا همومنا على أعتاب الليالي وهتفنا متوجعين:

اغدُ يا وطن، وتلفع بسواد أستار الكعبةِ،

وامدُد ذراعًا إلى روضة النبي،
وامدد ذراعًا إلى كربلاء، إلى المشهدِ،
وابرُز للكائنات بهذه الهيئةِ... (نامق كمال)

هتفنا متألمين وعرضنا حالنا على ديوان سام رفعنا إليه شكوانا بالدموع والأنين. أجل، عقدنا رجاءنا على مالك الملك وصاحب مقاليد كل شيء.. وسعينا وراء آمال عالية علوّ المآذن رغم ضآلتنا وقزامة قاماتنا.. سعينا نترقب ذلك اليوم الذي يزأر فيه الأسد الجريح زئيرًا يدوي في الأرجاء قائلاً: "الويل لكم، تشتتوا".. آمنّا بنافخ الروح في آمالنا، ومانح القوة لأقدامنا.. آمنّا بأمتنا.. آمنّا بإنساننا. كنا نسمع أنغام التفاؤل في كل ريشة نضرب بها أوتارَ قلوبنا، ونرى أمام أعيننا تلألؤ الأنوار تحتفل بانبعاثنا.

الليالي حَبالى الصفاء والأكدار،
ليت شعري، أيُّ مولود يخرج من رحم الليل،
قبل أن يولد النهار... (رحمي)

وبينما كنا نصارع ألف دوامة ودوامة، إذا بأنوار الفجر قد بزغت في الآفاق تبتسم لأجيالنا. مع ذلك لم نكفّ عن البكاء.. بكينا البارحة على خرائب الديار، واليوم نبكي على تفتح الرياض بالأزهار.. نبكي أن قد تلاشت الغيوم العابسة.. وأخذت سماؤنا بعد أن جفت منها العيون تهطل بالأمطار.. وتضوعت روائح الربيع الشذيةُ في أرجاء أراضينا.. وهلل الكونُ والمكانُ بانبعاث جديد. إننا نبكي وقد رأينا أفراخًا تقفز هنا.. وبراعم قد لبست أزياءها هناك.. ونبكي على ألف أنين وأنين هنا.. وألف مخاض ومخاض هناك.

نحن غرباء العصر.. في أيادينا باقة من الورد.. عيوننا تنفح الورد بقطرات من النّدَى.. نقف أمام باب من استعجل المجيء في قرّ الشتاء

لِنزِفّ إليه البشارة الكبرى[1].. "ها هي الأزهار قد تزيَّنت بأبهى حُلَلِها، وتفتقت البذور عن سنابلها، وأبرزت الوردة غمّازاتها بدلال، وصدح البلبلُ بتغاريده الشجية، وغمرت بهجة الربيع كل مكان. جئناك بأزهار كنا سببا في ذبول بعضها، وقد كانت بذورها تنبض بالحياة حين نثرتَها بيديك.. فنرجوك.. نرجوك ألا تَلُومنا ولا تؤاخذنا، إذ إن السلطان يجمُل به سلوكُ السلاطين، والعبد يليق به سلوك العبيد. نحن غرباء هذه الحقبة البائسة.. عصفت بنا عواصف عاتية.. فلم نستطع أن نسمو إلى مراقي القلب وآفاق الروح، فيستقرّ على السكينة والصفاء قرارُنا.

مولاي، لا تحرِم عبدَك من عنايتك،

وامنحه رعاية من رعايتك.

---

[1] المقصود بديع الزمان سعيد النورسي يشكو في إحدى رسائله غربته بين النخب والعلماء والمفكرين في زمانه ويتوجه بالخطاب إلى أجيال المستقبل قائلا: ها أنذا آليتُ على نفسي ألاّ أخاطبكم، أدير إليكم ظهري وأتوجه بالخطاب إلى القادمين في المستقبل: يا من اختفى خلف عصر شاهق بعد ألف وثلاثمائة سنة، يستمع إلى كلمات النور بصمت وسكون، ويلمحنا بنظر خفي غيبيّ! يا سعيد وحمزة وعمر وعثمان وطاهر ويوسف وأحمد ويا من تسمى بأسماء أخرى، إنني أتوجه بالخطاب إليكم: ارفعوا هاماتكم وقولوا "صدقت" وليكن هذا التصديق دَيْناً في أعناقكم. إن أبناء عصري لا يعيرون سمعاً لما أقول، فلندعهم وشأنهم، إنني أتكلم معكم عبر أمواج الأثير الممتدة من الوديان السحيقة للماضي -المسمّى بالتاريخ- إلى ذرى مستقبلكم الرفيع. ما حيلتي، لقد استعجلت وشاءت الأقدار أن آتي إلى خضم الحياة في شتائها، أما أنتم فطوبى لكم، ستأتون إليها في ربيع زاهر كالجنة. إن ما يُزرَع الآن ويُستَنبت من بذور النور ستفتح أزاهيرَ يانعة في أرضكم. إننا نرجو منكم لقاء خدماتنا أنكم إذا جئتم لتَعبروا إلى سفوح الماضي، أن تعرّجوا إلى قبورنا، وتغرسوا بعض هدايا ذلك الربيع على قمة القلعة (قلعة وان حيث مدرسة الأستاذ النورسي مدرسة خورخور). الملاحق، بديع الزمان سعيد النورسي، دار النيل للطباعة والنشر، ص:٣٤٩-٣٥٠. (المترجم)

الإنسان الذي نتوق إليه[1]

(فبراير ١٩٨٠)

لو أرى إيمان أمتي في بر الأمان،
أرضى أن أحرق في لهيب النيران،
جسدي سيحترق ربما،
لكن قلبي سيغدو روضة من رياض الجنان.. (سعيد النورسي)

سنين وسنين ونحن في توق إلى إنسان ينقذنا.. إنسان يضمِّد جراحنا، يكون بلسمًا شافيًا لعللنا وأدوائنا. لقد غدت حاجتنا إليه كالهواء، والضياء، وماء الحياة، ولا سيما في هذه الأيام التي اكفهرت فيها الأجواء، وأطبقت علينا الدنيا بظلماتها، وتعقدت الطرقُ أمام أعيننا. مهما يكن، سنظل نسأل عن "محبوبنا المنتظر" كلَّ إنسان، ونشدو بألحانه في كل مكان، حتى لو شارف رجاءُ الوصل على الانطفاء.

كان "ديوجين" وقد بلغ به اليأس مبلغا رهيبا، لا يفتأ يشكو من "قحط" في الرجال أصاب مجتمعه. ليت شعري، هل تمتلك مجتمعاتنا شجاعة كافية لتعترف بهذه الحقيقة المريرة؟ إننا كأمة في

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٤١، (مارس - أبريل) ٢٠١٤. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ١٣ (فبراير ١٩٨٠)، تحت عنوان: (Hasretini Çektiğimiz İnsan). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

أشد الظمأ إلى شيء؛ إننا ظامئون إلى "إنسان مثالي" يضمنا إلى صدره بحنان، يخفف عنّا آلامنا، ويخلّصنا من رغبات قاتلة، هِمْنا بها وأدمَنّا عليها.

إن غياب هذا الإنسان الذي نبحث عنه هو سبب جميع المآسي التي اكتوينا بنارها طيلة السنين الخوالي حتى اليوم. أجل، غياب "الإنسان المُعاني" الذي ينسى متعة الذات في سبيل مَنْح الحياة؛ هامتُه كالجبال الشامخة تحيط الغيوم بقممها، وقلبه كتلة من الجمر تغلي فيها الحمم وتفور.

بالله عليكم، كم فردًا من هذا النوع قد ظهر في تاريخنا القريب؟ كم فردًا استوعب الغاية من الخلق وأدرك المعنى الدقيق لأمانة الاستخلاف في الأرض؟

الإنسان الذي نبحث عنه هو فارس قلب قبل كل شيء.. هائم بديار "القرب" وعوالم "السموّ"، عاشق للحقيقة، يفتش عن حلول لجميع الألغاز التي تواجهه في كل لحظة من لحظات الحياة، يسأل كلَّ جزء من أجزاء الوجود، يحاول أن يظفر بجواب لكل سؤال من آفاق الغيوب الفسيحة.

أجل، إنه عاشق للحقيقة، ينقّب عنها يتتبع أثرها كمن يتتبع أثرَ الخضر يريد ماء الحياة؛ وإذا ما وجدها عبّ منها حتى ارتوى ونال نعمة "الخلود"، وشيّد عالما من الإيمان والحب في "خلية العرفان" التي أنشأها في قلبه؛ إنه سماويّ نحو الخارج لدنّيّ نحو الداخل، لسانٌ للأسرار الكامنة في ثنايا الأشياء والطبيعة، ترجمان للروح والوجدان، فاتح لجنّات أحرزها واحدة تلو الأخرى بغزارة عقله ونفاذ إرادته.

لم يستطع عابثون أضاعوا أعمارهم دون أن يُولُوا "الحقيقة" أدنى اهتمام، ولا أشقياء لم يجيدوا قراءة كتاب الكون، ولا سُذّج عاشوا في غفلة عن أعماق عوالمهم الداخلية و"قضية الإرادة" وتوفيتها حقها، أن يملؤوا مكان الإنسان الذي نتوق إليه ونترقب طريقه. المؤسفُ أنه قد ظهر -في فترات مختلفة- أعداد كبيرة من الممثلين الزائفين، استغلّوا فراغ الساحة من الأبطال الحقيقيين وتمكنوا من خداع الأمة والعبث بها؛ بيد أنهم لم يستطيعوا أن يحظوا بمكانة في قلبها أو أن ينالوا ثناء "الإنسان المرتقب" منها.

إن الإنسان الذي تتوق الأمة إلى الهُيام به، رجل فكر يصطاد درر المعاني بتأملاته العلمية، يسمو إلى عالم الملائكة، يتوحّد مع ذاته، يعرف كيف يصبح شمسا بعد أن كان ذرة، ويصير بحرا بعد أن كان قطرة، ويغدو كُلًّا بعد أن كان جزءا، ويتخلص من انفصام الشعور والأشياء. رجل فكر يقرأ ويفهم؛ بالعرفان يتصفَّى، وبالإيمان يكتشف سر التسامي، وبالأذواق الروحية يستنزل جنات النعيم إلى قلبه.

إن ذلكم الإنسان المرتقب الذي زين قلبه بكل هذه المعاني السامية قد جمع في قلبه بين معية الحق (سبحانه) ومعية الخلق؛ تنضح تصرفاته صدقا وإخلاصا، وتتعالى نغماته حرّى بأنة من أنات الأمة.

لا سلطان للأنانية على المشاعر لديه؛ لا غرور عند النجاح، ولا هتاف عند النصر؛ بل يخفق صدره بأنبل المشاعر وأسمى الأفكار حين يصل إلى قمة التسامي وذروة النجاح. لا تُلوِّث المنافعُ الشخصية ولا المصالح الفئوية أُفقه الطاهرَ قط، ولا يعكر صفاءَ نظرته حقد أو كراهية. إن أعظم غاية في حياة "بطل العرفان" هذا،

أن يحب ويصفح ويصبر على ما يصيبه من أذى وإساءة ممن يُحِبّ.

أما أولئك الذين يريدون أن يحققوا السعادة التي وعدوا بها الإنسانية عن طريق الفساد وسفك الدماء، فهم سفهاء قد سلكوا سبلاً ترفضها جميع الكتب السماوية وتنكرها كل الديانات.

ليت إنساننا يدرك زيف هؤلاء الأقزام المتثاقفين!.. عسى أن يصرخ -وقتئذ- في وجوههم قائلا: "هيا اغربوا من هنا!"، ولكن هيهات! إنه يبدو -اليوم- بعيدًا جدًّا عن إبداء موقف بطولي كهذا.

أين أنت؟[1]

(مارس ١٩٨١)

يا بطلاً طال الشوق للقياه سنين وسنين.. أين أنت؟ أين أنت يا زاجل خيالنا وطائر أحلامنا؟ أين أنت يا بشير انبعاثنا من رقدتنا؟ ترقّبناك دومًا في أيام الألم المديدة، وفي ليالي الأرق الطويلة، ولا زلنا نترقّب... كم من مرة تبدّى لنا في الأفق البعيد خيالٌ توهمناه إياك، فخرجنا للُقياه مردّدين نشيد "ثنية الوداع"! كم من مرة حتى الغروب انتظرناك... ولمّا عدنا إلى بيوتنا منكسري الخاطر، مطأطِئي الرأس لم نجد السلوان إلا في خيالاتنا التي طرّزناها بأزهار الزنبق! في كل يوم يهبّ نسيم الحزن والأسى على أرواحنا فيسحقها، في كل يوم يشمت بنا الأعداء ويتصايحون هازئين: لا، لن يجيء من تنتظرون، لن يأتي بطلكم، ذلكم الذي يملك أنفاس المسيح[2] وعضلات هرقل، أبدًا لن يأتي!

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد ٤٢، (مايو - يونيو) ٢٠١٤. ونشره لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٢٦ (مارس ١٩٨١)، تحت عنوان: (Nerdesin?). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

[2] إشارة إلى سيدنا عيسى عليه السلام حين قال: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ﴾(آل عمران:٤٩). (المترجم)

أين أنت؟ ومتى ستأتي؟ متى ستأتي أيها الفارس الأسطوري متى؟ فوالله لقد أوشكت هذه الأرواح المحتضَرة، والقلوب الضامرة المهترئة أن تنطفئ شمعةُ حياتها. فإن لم تسرع بأنفاسك الطاهرة التي تبعث الحياة في الأرواح فلن تبقى زهرة نيلوفر واحدة في بحيراتنا التي أصابها الجفاف، وأحواضنا التي انحسر عنها الماء. لقد مضت عصور على رحيل البستاني وتصحُّر البستان. ومنذ اليوم الذي أعرضت فيه الأرضُ عن السماء، وأقلعت السماءُ فلم ترسل إلى الأرض قَطرًا، منذ ذلك اليوم تحولت الأرض إلى قفار يابسة، وبتنا في هذه القفار نتفقدك في كل قافلة، نتفقدك وكأننا نبحث عن قميص يوسف، ثم عدنا بصبر جميل ننتظر فجرًا جديدًا.

وكم من مرة -عندما لفّنا الصمت وضربت علينا الوحدة قبابها- حسبنا البُغاث نسرًا، وظننا المقعدين المشلولين الإسكندر الأكبر فصفّقنا لهم. لم تبق قافلة لم نركض وراءها، ولكنك لم تكن في أيّ منها. كم من ذي قامة مبسوطة صادفناه ليس لديه فكر ولو بقدر أنملة، وليس لديه إرادة لإشعال شمعة، أرواحهم كانت سوداء معتِمة، وأفكارهم كانت خربة، ونظراتهم كانت قاصرة، وعباراتهم كانت عارية. لم نجد لديهم ما كنا نأمله في بطلنا من نظرة ثاقبة، ونفس مكابِدة، وحماسة لاهبة، وبسمة رقراقة.

لقد تحول الزمان بنا إلى المحرّم، وغدا المكان جميعه كربلاء. فراحت نفوسنا تتأوه بآهات الحسين. أنظارنا مُشرَئِبّة نحو آفاق خيّم الظلام عليها تَرقُب قدومك ارتقاب الهلال. نتخيلك في كل وجه، ونستبشر قدومك مع كل صيحة. كلنا شوق إليك، كلنا ظمأ لك، كلنا لهفة عليك.

عرفناك مخلصًا وفيًّا محتسبًا واعيًا بصيرًا كفؤًا ماهرًا. لم يَر ضيما

من آوى إلى رحابك. أصبحتَ لحن الصدق ورمز الإخلاص. قاسمتَ من أعطيتَهم قلبَك بكاءهم وابتساماتهم، آمالهم وتأوهاتهم، فرحهم وأتراحهم. لم تستطع الدنيا أن تتصيّدك أو أن تقيِّد روحك السابحة في أجواء السماء. محضَ وفاء وإخلاص كنتَ.

عندما حملتَ على عاتقك عبئًا تنوء بحمله الجبال، كنت مدركًا لطبيعة مهمتك، عازمًا على المضيّ فيها قُدُمًا. فلم يُهن من رباطة جأشك صعوبةُ المرتقى في تلك الشعاب، ولم يُضعف من عزيمتك اجتياز الوديان الملتهبة الحارقة أو يثبّط من همتك، كلا، ولم ينل ذلك كله من وفائك. لقد دلفتَ إلى هذا الطريق، وسرتَ فيه سير العاشق الولهان لا تفتأ تُردّد: "سلكنا دروب الحب، لا نبتغي شرفًا هناك ولا غرورًا".

أتذكُر يوم وضعوا حياتك في كفّة وشوكةً يشاك بها خليلُك في كفة، وخيّروك بينهما، فجُنّ جنونُك وثُرتَ وعددتَ نفسك جاحدًا وغير وفيّ لو كان لك ألفُ روح ولم تفدِها جميعًا لقاء شعرة واحدة في سالفته؟ أين أنت يا خُبيب؟

وفي مشهد آخر قطعوا جناحيك وطرحوك أرضًا كشجرة قُضّبت فروعها... لم يبق سوى رأسك الملطخ بالدماء القانية فوق كتفيك... كنت تريد أن تخفي ذلك الرأس العزيز الذي يستحق أن تقف حوريات الجنة له احترامًا وإجلالاً. أوَ تذكر ماذا كان حالك يردّد؟ "جاحدٌ وغير وفيّ أنا، إن لم أذُد عنه كل أذى ما دام رأسي فوق كتفي"، أين أنت يا مُصعب؟

أوَ تذكر يوم جررتَ الجيوش خلفك وحلّقت بهم بعيدًا؟ كنت منطلقًا متوثبًا، لا تحدُّك الحدود ولا تقيّدك القيود، كنت لهيبًا متَّقدًا

وطوفانًا هادرًا، كنت تريد أن تستلم الأرض من مشرقها إلى مغربها بقفزة واحدة وتسلمها إلى قائدك الأعظم ﷺ. فوصلتَ بسرعة لا تُدانى مع أبطالك إلى أرض المجوس. ثم أرسلت زئيرك المدوّي الذي زلزل القلوب، فانهارت مدن كسرى أمامك واحدة تلو الأخرى وباتت أثرًا بعد عين. ثم رفعت صولجانك وهويتَ به على رأس بيزنطة، ففتحت بذلك طريقًا إلى القسطنطينية ومهّدت السبيل للفاتح التركي الشاب الذي سيأتى بعدك بقرون، من كنتَ؟ أكنت الخَضِر يا ترى؟ تفتحت الورود في الطريق الذي مشيت فيه، وانقلبت الخرائب مدنًا عامرة. كان الأعداء والأصدقاء يؤمنون بأن سيفك نزل من السماء، وكانت الجيوش ترى أنك مَلَك مكلف بإصلاح الإنسانية. وفي أوج انتصاراتك تلك، يأتيك نبأ عزلك ممن كنت تتوقع منه ثناء ومديحًا. لكنك استصوبت ما قال: "إن الناس يَعزُون النصر إليك، بينما النصر من عند الله"، استصوبتَ ما قاله وانقدتَ لقراره. ثم واصلت سيرك في سبيل مبدئك العظيم تحت إمرة من كان قبلُ تابعًا لك. قل لي بربك، كيف استطعت تحمُّل كل هاتيكَ الأمور؟ ألم يكن لديك اعتزاز بنفسك أو إباء؟ آه يا فارسي الذي ظمئتُ إلى أنفاسه، أين أنت يا خالد؟

في إحدى المرات مُنِعتَ من التحدث إلى أخيك، أخيك الذي لم تفارقه لحظة واحدة حتى ذلك اليوم، أخيك الذي كنت تقاتل معه جنبًا إلى جنب، وتجلس معه على طعام واحد. كان عليك ألا تكلمه، كان الأمر صادرًا من ديوان سام، وكنت عازمًا على الانقياد لهذا الأمر. قل لي بجاه من عشقتَه كل ذلك العشق، قل لي: أقلت له

غير كلمة "لا أدري"؟ أيّ ولاء هذا؟ وأيّ وفاء ذاك؟ وأيّ إرادة؟ أين أنت يا أبا قَتادة؟[١]

أتذكُر يوم كنت تمشي أمام شيخك، فطفر بعض الوحل من قدم حصانه فأصاب جبّتك المغسولة بالعطر؟ كنت آنذاك سلطانًا عظيمًا وحاكمًا كبيرًا يرى الدنيا لا تسع سلطانين، كنت حاكمًا يقف على بابه فُرس إيران ويخدمه مماليك مصر، كانت الأُسود ترتجف رعبًا من براثن سطوتك. فماذا فعلت آنذاك؟ لقد أوصيت أن تُلَفّ تلك الجبة الملطخة بالوحل حول نعشك. من أنت؟ أصوفي أم درويش؟ أم مَلَك يمشي على الأرض؟ أيها الأسد الهصور أين أنت؟[٢]

إن عينيّ تترقبان طريق قدومك، ولساني يترنم بأناشيد دعوتك، وأنا بينهما حاولت أن أعالج أوتار قلبي بريشتي المكسورة، ولكن هيهات! فلقد عجزت أن أكون ترجمانًا لأصغر سر من هذا اللغز. فردّدت مع الشاعر:

أهاجت مشاعري نغمةٌ حتى عجزتُ عن ترنيمها

أعينُنا تسمّرت على الطريق الذي جئتَ منه لأول مرة. مضت سنون وسنون عكفنا فيها ننمّي في قلوبنا أمل عودتك من جديد، ونتسلّى بخيال محيّاك. بهذا الأمل وبهذا العزم سنظل نرتقب قدومك -إلى الأبد- عند مطلع كل فجر، ونسأل عنك كل قافلة. كن على يقين أن ما نعاني منه من إحباط ووحشة، ومن غلظة أعدائنا وشراستهم، لا

---

[١] يشير بذلك إلى قصة أبي قتادة مع كعب بن مالك، أحد الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك ووردت قصتهم في سوة التوبة. (المترجم)

[٢] المقصود هو السلطان سليم، أول خليفة عثماني. (المترجم)

يمكن أن يحول بيننا وبين عشقنا لدربك وولهنا بك. قد ننخدع في هذا الدرب ألف مرة، وقد ننظم أبياتًا في مديح اليراعات ألف مرة، أو نتجرَّع العلقمَ على أنه إكسير الحياة، ولكننا -على نهج الرومي- لن نتوانى لحظة واحدة عن اقتلاع قلوبنا وإهدائها ولو مقابل أكاذيب تقال في سبيلك.[1]

أيا بطل الأحلام الحلوة!.. يا فارسي المحبوب!.. في هذه الأيام السود التعسة التي يسعى فيها الرياء والشهرة وحب المنصب والجاه إلى تشويه آمالنا المشرقة، نرجوك، نرجوك ألا تترك القلوب الظامئة إلى إكسيرك الباعث للحياة تعاني مزيدًا من شقاء الانتظار.

[1] لما اشتد شوق جلال الدين الرومي وحنينه إلى صديقه شمس، جاءه رجل يزعم أنه يحمل أخبارًا عن شمس، وراح يقص عليه حكايات لا أصل لها. ولما انتهى من حديثه خلع الرومي عباءته فرحًا وأهداها الرجل. فقالوا له: لقد كذب. فقال: أعلم، أهديته عباءتي مقابل كذبه عن شمس، ولو صدق لكنت أهديته روحي. (المترجم)

أنت[1]

(أبريل ١٩٨١)

يا عندليب عصر الورد! يا بشير البعث زمن الهلاك والموت! يا زبدة الأصالة التي تمخضت عن بطولات التاريخ كافة. يا أسطوريا انبثق من قلب الأمة وتدفق عطاء، ثم عاد إليها مرة أخرى ليكون لها خميرة يذوب فيها ويفنى. نوينا أن نجعل من قلوبنا المحترقة شوقا إليك مشاعلَ نحملها في أيدينا، نقيم بها من أجلك حفلات وأعيادا، نقول فيك مراثي ونسكب دموعا حرّى، ثم نرمي بأنفسنا في دربك كرة أخرى.

كلما أنشبت فينا الأيام مخالبها وصرعتنا المصائب تذكرناك، وهرعنا ننظم أناشيد فيك تضطرم شوقا إلى أنفاسك الباعثة للحياة. وهل كان بوسعنا أن نفعل سوى ذلك؟

أنت يا فارس أزمنة العواصف الهائجة، يا شديد البأس يا رحيم القلب! أنت يا بطل الحقيقة، يا من يحمل بين شفتيه إكسير الحياة يحيي القلوب الميتة! أنت يا مسيح أدوائنا المزمنة ولقمانها! في هذه الأيام التي بهتتْ فيها نُضرةُ ألواننا، وكادت تنطفئ فيها جذوة

---

[1] نشر المقال في بوابة حراء (www.hiragate.com) في ٧ أغسطس ٢٠٠٧. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٢٧ (أبريل ١٩٨١)، تحت عنوان: (Sen). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

قلوبنا، وتحولت أنفاسنا إلى حشرجات متقطعة، وفاضت شوارعنا بمواكب الجنائز وروائح الكافور.. أجل في هذه الأيام القاتمة نحن في مسيس الحاجة وفي ظمأ أشدّ من مظلومي كربلاء إلى نظراتك التي تومض كالبرق، وبيانك الذي يدوّي كالرعد، وقدرتك المحرّكة وإرادتك المغيّرة تنهمر على ربوعنا ماء فراتا سلسبيلا يختلط بها، وينفذ في ثناياها، ويمهد التربة لتحولات جديدة وولادات قادمة.

لقد حوّل جبابرة كاليزيد والشِّمْر ديارنا إلى بحار من دم، ودمروا ما فيها من حضارة وبناء. لم يبق منزل لم يخلُ من نواح أو أنين، ولم يبق عمران لم ينقلب رأسا على عقب. فإن أصغيتَ فلن تسمع وسط هذه الخرائب سوى صوتين، إما ضجيج الظَّلَمة وصياحهم أو تأوهات المظلومين وأناتهم.

انهض.. واهوِ بسيفك البتار تحطّم به الطوق المضروب حول عنق تاريخك المجيد. أبطل السحرَ وحُلّ عُقَده كما تَحُلّ العُقَد المستعصية، وخلّص أمتك من شقائها. انطلق بالنور إلى كل أصقاع الأرض، ولا تذر أحدا لم يسمع بإنسانيتك وأياديك البيضاء.. كما فعلت في الماضي حينما تسلقت جبال البلقان بجيادك الأصيلة، وحلقت كالنسور نحو طرابلس الغرب، وقفزت إلى الهند حينا واليمن حينا، ولم تترك بقعة من بقاع الأرض إلا حملت إليها خيرا.

في هذه الحقبة الحالكة السواد.. وفي هذه الأيام التي أقفرت فيها ديارنا، وتصحرت وديانا، ومزّقتْ جسمَ أمتك أشلاءً جرّافاتٌ دخيلة، وجَرَفتْ أجيالَك نحو مهاو مجهولة فيضاناتٌ اجتماعية، وتَخدّر إنسانُك بألحان مستوردة من هنا وهناك.. نستنجد بك أن تعال!

أشرق على أجيالك الذين يتسلون بملاحم قديمة منذ سنين وسنين، مذهولين أمام ألف لون ولون من بهلوانيات العالم الجديد. تعال وأنشد لهم أناشيد جديدة.. أناشيد لم تطرق آذانهم من قبل، تحكي عنك وعني وعن روحنا.. ألحانُها صافية صفاء "بدر"[١]، سامية سموّه، خالصة خلوص ملاذكرد[٢]، مثيرة في النفوس أشواق الخلود، عالمية كونية كالفتح الأكبر[٣] تطبع الزمان باسم جديد، مشحونة بالتجرد والتفاني والبطولة التي عرفها العالم أيام نضالك من أجل الاستقلال[٤].

تعال، فقد غمرت حالةٌ من العبثية والجنون كل مكان منذ سنين وسنين، تعال واقذف في القلوب الواهنة والأرواح الضعيفة أملا وعزيمة بإنجاز شيء ما ولو ضئيلا.

أقبل على إنسانك البائس المسكين.. إنسانك الذي تعرّض للتقطيع والتشريح ألف مرة بدعوى العلاج، ونُقِل إلى قسم العظام بدعوى تجبير أطرافه المكسَّرة مئات المرات.. إنسانك الذي يحاكي أيوب عليه السلام في علله وهمومه وأشجانه، ويعقوب عليه السلام في أشواقه وآلامه وأحزانه

---

[١] يقصد معركة بدر الكبرى. (المترجم)

[٢] معركة مشهورة في عهد السلاجقة فتحت أبواب الأناضول للمسلمين، وكان ذلك عام ١٠٧١ تحت قيادة السلطان السلجوقي الشهير ألب أرسلان الذي استشهد في تلك المعركة. (المترجم)

[٣] يقصد فتح القسطنطينية تحت قيادة السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ حيث انتهت بهذا الفتح العصور الوسطى وبدأ العصر الحديث. (المترجم)

[٤] يقصد حرب الاستقلال الذي خاضها أبناء الأناضول إثر انهيار الدولة العثمانية واستطاعوا تحقيق النصر وإنشاء تركيا الحديثة رغم قسوة الظروف. (المترجم)

التي فاضت في عينيه.. تعال وأسعد قلبه ببشرى التعافي والشفاء.

إن الذين تصدّوا لعلاجه حتى اليوم لم يكونوا سوى مجموعة من الجهلة والسفهاء، أخطأوا في التشخيص وأجرموا في العلاج، فازدادت مشاكله عمقا وتفاقمت علله إيلاما وفتكا. إن كل خطوة منهم بغيةَ العلاج كانت محدودة مؤقتة، كلما لمعت بارقة أمل في الشفاء والتعافي انطفأت بعد حين مثل شمعة كاذبة، فتردّى من جديد في مهاوي اليأس والإحباط.

يبدو أنه لن يُسلّم نفسه بعد اليوم إلى أي طبيب يناديه؛ بل سيصرّ على أسنانه صابرا حتى يجد طبيبا ماهرا يثق به يتناول أدواءه ومشاكله بعمق وجدية وشمولية.

تعال! وكن أنت ذلك الطبيب.. حوّل ليل أولئك الذين يترقبون قدومك منذ سنين إلى نهار مشرق، وحلق بهم إلى الآفاق المضيئة.

إن تحركا خفيفا منك أدخل نوعا من التناغم إلى مجرى الحياة المضطربة. فكم من مشكلة متحجرة يئس الناس من حلها، تفتتت وذابت بفضل أنفاسك الدافئة. وكم من أورام ممتدة في قلب الأمة منتفخة بالقيح والصديد أخذت تتلاشى واحدة تلو الأخرى. فما بالك، لو رأوا الفاعلية الحقيقية المنبعثة من جوهرك وسمعوا بقرارك الأخير؟

إننا -أبناء الأمة جميعا- نترقب يوم قدومك.. عيوننا تضطرب لهفة ودمعا وشوقا، وشفاهنا تتمتم بأحرف قرارك السعيد.

ألف سلام لذلك البطل الذي بيده قلم هذا القرار التاريخي العظيم.

الطرق[1]

(أغسطس ١٩٨١)

في تعرّج والتواء تمتد الطرق نحو الأبد.. وعلى هذه الطرق سائرون كمياه هدارة أو كسحب بكاءة مدرارة.. مندفعون كماء ينساب مسرعًا نحو المحيط، ناطحًا كل صخر يعترض مسيره.

إن الطرق بعدد أنفاس الخلائق، وكل كائن يُهرَع مسرعًا بدأب في طريقه نحو هدفه المنشود؛ فالدود يقطع طريقه زحفًا، والسلاحف في تؤدة، والخيول تطوي الطرق طيًّا، والطيور تقطعها سابحة في الفضاء، وللصواعق سياحة مختلفة، وللشموس حين تدور في أفلاكها جريان من لون آخر.

لكن الطريق الحقيقي ظهر مع الإنسان، وبشعوره أشرق نورًا، وبأفكاره وأحاسيسه حاز صفةَ "الأبدية". والعجيب أن "اللاطريق" نشأ معه أيضًا بل لم يُخطئه ولو لحظة، رغم إلحاح الطريق على تنحيته من الوجود.

لم يخلُ عصر من العصور دون رحّال متجول في الآفاق بين

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد ٤٦، (يناير – فبراير) ٢٠١٥. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٣١ (أغسطس ١٩٨١)، تحت عنوان: (Yollar). الترجمة عن التركية: أجير أشيوك.

النجوم والمجرات، أو دون متنكّب بحثًا عن الطرق في المستنقعات.

والحقيقة أن الطريق لِمَن يشقّ الطريق ويعرف آدابه وسلوكه.. وإلا فالطريقُ وعدمه لمن تمر به الأيام وهو في هذيان يتجدد كل يوم سِيّانٌ. وأول الشروط لإحراز الأمان وبلوغ الغاية المنشودة أن تبادر إلى السلوك. فالسلوك بهذا الاعتبار لذيذ وباعث للأمل، بيد أن الطريق نفسه قد تعتريه ألوان من الصعود والنزول، وأنواع من الروابي والحُفَر، وأشكال من المصاعب والمصائب، خصوصًا طريقنا الذي نسعى فيه.

هذا الطريق طويل بعيد،
لا قليلَ المحاطّ بل كثيرٌ عديد،
عديم المنافذ عديم المعابر،
وماؤه للسالكين عميق وغائر. (يونس أَمْرَه)

فالسالكون الدربَ بعشق واشتياق خلف دليلهم، تذوب الجبال لهم قيعانًا مستوية، ويصير الحَزن أمامهم سهلاً، ويجتازون لجج الدماء والصديد بسرعة البرق، وينطفئ فَيح جهنم إذا مرُّوا بها.. لا مجال للحديث عن تعثُّرهم في الطرق، أو كفِّهم عن المسير ونكوصِهم عنه أو رجوعهم القهقرى، بل يسيرون من الخلق إلى الحق لا يحيدون، لا تطأ أقدامهم الأشواكَ حين يسلكون طرقها بل يطيرون، نظرتُهم إلى الموت نظرة الحبيب إلى الحبيب، فلا خوف عليهم ساعتَها ولا هم يحزنون، يدخلون قبورهم وهم فرحون مستبشرون.. لا يهابون القبر قطعًا، ولا ينظرون إليه كأنه دار وحشة أو معبر إلى العدم أو تنّين فاغر فاه، بل يرونه بابًا للرحمة وبرزخًا

للنور وقنطرة للحق يفضي إلى "لقاء الأحبة".. فلا يترددون، ولا يستسلمون للشكوك ولا يرتبكون.

وفي المقابل هناك بؤساء تخلّوا عن الهدف وتراجعوا، أو ضلّوا الطريق في نور الضحى، أو تعثروا بشوكة واحدة عرضت لهم، أو عجزوا عن تخطي ربوة صغيرة.

إن هؤلاء التعساء الذين حُرموا إدراكَ لذة المسير في الطريق، وظنوا أن "دار المحن" هذه أبديةٌ، فأزمعوا على الإقامة فيها.. هؤلاء لو فُرشت النجومُ تحت أقدامهم ليسلكوا الطريق فلن يَعني ذلك لهم شيئًا.

إن لكل طريق لذته، وله أيضًا وعثاءه ومحنته، خصوصًا مثل ذلك الطريق الذي يعانق الخلود ويتحد مع الأبدية.

ليست السعادة الدائمة منحة توهب بلا ثمن، وليست النعم الممتدة لقَطةً على قارعة الطريق ملقاة. فالسعادة لا ينالها إلا من عبر الفيافي واجتاز شواهق الجبال. والنعمُ لا يحظى بها إلا من صمد حتى المحطة الأخيرة في طريق طويل له مئات المحطات.

نعم، إنما تنمو النعمة في طرق تغدو فيها المحنُ وتروح، وتتأتى السعادة بعد سيل من صنوف الحرمان. فإذا كان مُلك مصر يتطلب الإلقاء في غيابة الجب كالدِّلاء، والتجوالَ في أسواق العبيد كالأرقاء، والزجَّ في السجون كالمجرمين الأشقياء، فلن يكون بمقدور أحد أن يبدل ذلك، وليس له أن يحقق الغاية دون تذوق هذه الغصص وتجرعها.

فمن ذا الذي يَقْدِر على تغيير الطريق الذي شقته "يد الحكمة"؟ إن محاولة ذلك تَعني إعلان الحرب على الفطرة وضد طبيعةِ الأشياء.

آهٍ لو أمعنتم النظر في هذه السحابة المركومة، وفي أنَّات الأم تعاني آلام المخاض، وانتبهتم إلى هذه العصفورة تبني عشها في جهد حثيث، وتلك العنكبوت تنسج بيتها بألف صعوبة وصعوبة!

وهكذا روح الإنسان.. فمنذ اليوم الذي هبط وانتكس إلى قلب المادة لم يزل يتقلب من قالب إلى آخر أملاً أن يعود إلى أصله؛ فيَرى المعاناةَ، ويَسمعُ المعاناة، ويعاشرُ المعاناة، ويتوحد مع المادة في سبيل نسج سعادته الأبدية.

إن الإنسان خُلق للمحن، وهو ابن سبيل مكابدٌ، ينتظره في طريقه سيلٌ من المحن والمعاناة. وبُطولته الحقيقية منوطة بتخطيه لهذه المصاعب التي تعترض طريقه.

فآهٍ ثم آه! ليتنا استطعنا أن نُسمِع كل هذه الحقائق لروح إنساننا، ليتنا تَحدَّثْنا له عن الطرق الشائكة التي ستقابله، وكلّمناه عن أنواع المظالم والجَور والوحوش الكاسرة التي ستقطع طريقه، وعن صنوف الوحشة التي سيلاقيها، حتى نُطْلعه على الوجه الحقيقي لواقع الأمر.

نعم، لن يكون من قبيل المجاز إن قلنا: لا مناص للعشاق المتيمين سالكي الطريق من البلايا والمحن، فذلك للمهمومين المغمومين أساس في طريقِهم. لقد بات من الضروري أن نجلّي تلك الحقيقة لمن يسعون جاهدين في سبيل خدمة أمتهم. وما لم يدركوا كنهها فلا سائر هناك ولا طريق.

الامتحان[1]

(يوليو ١٩٨٢)

سلسلة من الامتحانات هي الحياة.. من بدايتها حتى نهايتها. فمنذ الطفولة تبدأ امتحانات بني الإنسان، تبقى معهم وتلازمهم حتى اللحظة التي تفارق فيها الروحُ الجسدَ. بيد أن كل حلقة من تلك الامتحانات الصغيرة المتتابعة ما هي -لمن وعى- إلا فرز للأروح لمعرفة من سيتأهل منها للتصفيات النهائية ويفوز.. فيرى الإنسانُ بأم عينه تلك النتيجة، ويُقرّ بها من صميم وجدانه في ظل متابعة سكان الملإ الأعلى لها كذلك.

ألوان وأصناف هي الامتحانات.. لا تنتهي مدى الحياة وإن اختلفت طولاً وعمقًا.. فمن امتحان بداية الطلب المدرسي، إلى امتحان تجاوز الفصول الدراسية حتى امتحان التخرج، ومن امتحان والد يعاني من ولده، وامتحان ولد يقاسي من والده، إلى ألوان أخرى من امتحانات واختبارات عديدة. لكن أشدّها على النفس إيلامًا، وأقساها على كرامة الإنسان وعزته، هو امتحان الإقصاء والتهميش

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٥٥، (يوليو - أغسطس) ٢٠١٦م. ونشره لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٤٢ (يوليو ١٩٨٢)، تحت عنوان: (İmtihan). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

لما تحمله من رؤى إنسانية نبيلة وغايات سامية، وحرمانك من حقوق المواطنة جراء ذلك.

وفي اللحظة التي تتعرض فيها لفتك الأعداء وتنكيلهم، قد تصعقك امتحانات مريرة من قبل خلّان لك لا نصيب لهم من الوفاء. وذلك -لعمري- الامتحان الأصعب على النفس تحمُّله والصبرُ عليه. فشراسة العدو وضراوته قد تُفهَم في إطار منطق العداء، وإن لم تكن موافقة لإنسانية الإنسان وفطرته النبيلة. بل إن ازدياد وتيرة العداوة -وفق هذا المنطق- مع ارتفاع نسبة الاختلاف في زوايا الفكر وفهم العالم ومعايير القيم قد يبدو طبيعيًّا كذلك. ولكن أن يتصدى لك من تكافح جنبًا إلى جنب معه في المسار القدَري نفسه، وتُبادله الأفكارَ والمشاعرَ عينها، فيخذلك ويشي بك ويؤذيك بل ويفتك بك بدافع من الغيرة والحسد والتنافس المشؤوم، فذلك مما لا يمكن تفسيره بالعقل ولا بالمنطق أبدًا، ناهيك بأن يتوافق مع السجية الإنسانية أو الأخلاق السوية.

أجل، أن تُفاجَأ بالخيانة والخذلان ممن ترجو منه وفاء لَمؤلم حقًّا ومثير للتأمل. ولكن هل باليد من حيلة وسط عالم يعتبر الخديعة ذكاء، واحتكار الفكر والتزمتَ ولاء، والتعصبَ الأعمى التزامًا؟! في عالم كهذا لن يغيب هذا اللون من الابتلاءات أبدًا. فلا سبيل -والحال هذه- سوى الاعتراف بهذه الحقيقة والصبر عليها. أجل، لا سبيل سوى أن نردد أفرادًا وأُسرًا ومجتمعات ما عبّر به الشاعر في حق مولاه ﷻ:

إن جاءني جفاء من جلالك،
أو جاءني وفاء من جمالك،
فهما للقلب صفاء،
فلطفك حلو، وقهرك حلو. (يونس أمره)
ثم نُسلِم أنفسنا إلى صبر جميل.

هذه الأمة تعرضت لطعنات الغدر والخيانة مرارًا أمس واليوم على يد أعدائها أحيانًا، وعلى يد خصومها المتنكّرين بزيّ الأصدقاء أحيانًا أخرى. ذاقت أشد أنواع الامتحانات مرارة وأكثرها إيلامًا على مر التاريخ، وتعرضت لأفظع أصناف الخذلان. أتى عليها يوم تداعت فيه دول العالم عليها بجيوشها، وأغارت بخيلها ورَجِلها، وحاصرتها من كل طرف. في ذلك اليوم توهّم بعضهم أن الأمة ستنمحي من صفحات التاريخ دون عودة. لكنها فاجأت خصومَها، وقلبت خططهم مرة أخرى رأسًا على عقب، واستطاعت أن تَعبُر ذلك الامتحان، امتحان "الاندثار أو البقاء". ومن يدري، فلعلها تواجه في المستقبل امتحانات أشد عنفًا، وتتعرض لهزّات بعد أخرى، وتعترضها جبال من نار، وبحار من دماء وصديد.. ولكن ذلك كله سيعينها -حتمًا- على تجديد ذاتها وشحذ طاقتها الروحية. أجل، بفضل تلك الابتلاءات ستميز صديقها من عدوها، وتَصلُب عزيمتُها، وتتعلم كيف تستوي على رجليها، وتنهض قوية بعد سقوطها، وتعرف سبل العودة إلى ذاتها.

بالامتحانات يتصفّى الإنسان ويعود إلى جوهره الفطري، وبها تتخلص الحياة من الرتابة وتزهو بشتى الألوان، فتزداد الروح بكل محنة

تتعرض لها نضجًا، وتغدو جاهزة لمواجهة تحديات كبرى. وبقدر ضخامة الامتحان وصعوبة أسئلته يتأهل الفرد في "مدرسة الإنسانية"، ومن ثم يرتقي إلى مستوى آخر، ويحثّ السير قُدُمًا نحو الأعالي.

لا يمكن للفرد أن يتصفى أو يكتشف جوهره الإنساني بلا امتحان، وكذلك المجتمع لا يتماسك بنيانُه، ويتحول إلى فولاذ بدون امتحان. الأرواح التي تتحفز بالامتحانات تشتد كالقوس، وتنطلق كالسهم، وتصيب الهدف في لمح البصر. أجل، إن المخاطر التي تحوم حولهم وحول منازلهم صباح مساء، والجوع والعطش والمعاناة التي تهدد أُسَرهم في بعض الأحيان وتهزها في الصميم، والخسائر التي يتعرضون لها في أموالهم وأنفسهم، ثم الانسحاق تحت مكابس الأحداث الحديدية، كل ذلك يحوّلهم حديدًا صلبًا لا يُقهَر، ويُعِدّهم للمستقبل المضيء.

لا يمكن لقلوب ميتة لم تكتو بأيّ ابتلاء يومًا، ولا لأرواح خامدة لم تذق مرارة الامتحان قط، أن ترقى إلى أي أفق إنساني، ولا أن تمنح مجتمعها أدنى عطاء إنساني.

بالامتحان تمتاز الأرواح الألماسيّة عن النفوس الفحمية. في غياب الامتحان، لا يتميز الذهب عن الرَّغام، ولا الألماس عن الفحم. فإذا غاب الامتحان في قومٍ اختلطت فيهم النفوس الدنيئة بالسامية. وبالامتحان تمتاز الأرواح الملائكية الصافية عن الأرواح الخبيثة، وتبلغ قممًا قُدّر لها السموّ إليها.

لذا، فكل امتحان لدى "قلبٍ عارفٍ" بهذه الحقائق مستوعبٍ لها، جناح نوراني يحلق به إلى "عوالم ما وراء السماوات"، وكل "معاناة"

يعانيها "إكسير" يمنحه طاقة إضافية وحيوية جديدة. في نظر "عارف" كهذا، الرميُ في النيران أقصر طريق لنيل خُلّة الباري ﷻ، والتعليقُ على أعواد المشانق أفضل وسيلة للارتقاء إليه سبحانه.

أجل، كل امتحان جديد في نظر "فارس" ملأ قلبه بأعظم الأماني وأسمى الغايات، ما هو إلا سوطٌ يُلهِب عزيمته، وإكسيرٌ يَشحذ إرادتَه، وضياءٌ يملأ شاشة قلبه بالأنوار. إنه مع كل امتحان جديد يتلألأ كالبلور، ويتوتر كالقوس، ويتسامى نحو الجِنان التي أقامها في قلبه خطوة فخطوة.

هيهات لقلوب ميتة لم تدرك معنى "حلاوة القهر واللطف معًا" أن تعي هذه المعاني السامقة. فلا تأبَهْ لهم أو تكترثْ بحالهم. أما من هامت قلوبهم بهذه المعاني، فلا ألذّ لديهم وأحلى عندهم من كل مكابدة يلاقونها في هذا السبيل. فلو احترق هؤلاء الأخيارُ كالمواقد المتأججة فلن تسمع منهم تأوّهًا أو صراخًا، ولن تجد لهم شكوى، ولن يبثوا آلامهم لأحد. ولن يفتّ في عضدهم أو يثنيهم عن خدمة أمتهم وأوطانهم تَخاذُلُ صديق أو فتكُ عدو، بل ستظل مقولتهم الفاصلة التي يرددونها دومًا:

اجمعي أيتها الأقدار ما لديك من أسباب الجفاء،
اهجمي عليّ ولا ترحمي،
فلو نقضتُ عهدًا في سبيل أمتي،
فأعلنوني خائنًا!..

طابت روحُك نامق كمال!

الوفاء[1]

(سبتمبر ١٩٨٢)

الوفاء من الأزهار التي لا تنمو إلا في مناخ المحبة والإخاء. ونادرًا ما تلقاه في جو التنافر والعداء بل يستحيل. فهو يطوف حول السعداء المتوافقين فكرًا وإحساسًا ورؤية طوافَ النسيم العليل، يغمرهم بعطره الشذيّ، وينعشهم بنَداه الطريّ.. فإذا لفحته رياح الحقد والغيرة والكراهية، جَفّفَت أوراقَه، واقتلعت جذورَه. في منابت المحبة والمروءة يولد ويسمو، وفي أرض العداوة والبغضاء ينطفئ ويخبو.

"الوفاء أن يتّحد الإنسانُ وقلبَه"، هكذا عرّفه بعضهم، وهو تعريف في محلّه وإن كان ناقصًا.

هل يمكن الحديث عن الوفاء عند مَن لا يملك حياة قلبية ويتقلب في خواء روحي؟ إنّ الصدق والوفاء وثيقا الصلة بالحياة القلبية. فهل لذوي الوجوه المزدوجة المرائين أن تكون لهم حياة قلبية حقًّا؟! أولئك الذين وقعوا أسارى الكذب والخداع، والذين

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٥٣، (مارس - أبريل) ٢٠١٦. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٤٤ (سبتمبر ١٩٨٢)، تحت عنوان: (Vefa). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش

ينقضون عهودهم ليل نهار، والذين لا يشعرون بعبء ما يتحمّلون من مسؤوليات.. مخدوعٌ من ظنّ أن يكون لهؤلاء حياة قلبية. وهيهات أن تجد وفاء من مثل هؤلاء! بل إنّ توقّع ذلك منهم لهو الغفلة بعينها والسذاجة في أفضح صورها.

أجل، من يثق بعديم الوفاء يشقى.. ومن يصاحبه في سفر طويل، يتعثر في الطريق وينقطع عن المسير.. ومن يتخذه دليلاً أو مرشدًا، تمتلئ عيناه بدموع الخيبة والخسران، وتجري على شفتيه هذه الكلمات التي تتقطر ألمًا وعتابًا إزاء ما يقاسيه من إنكار وهجران:

رجوتُ منه وفاء،

فكواني بالجفاء،

أين أذهب؟ لستُ أدري!

إن المرء بحسّ الوفاء يغدو أهلاً للثقة ويرفرف عاليًا. والأسرة إذا أقيمت على دعامة الوفاء استمرت وظلت تنبض بالحياة. والأمة بهذه القيمة الرفيعة تتسنّم ذروة الفضائل. والدولة إنما تحافظ على مكانتها في قلوب شعبها بهذه الروح السامية. وإذا فقدت أمة قيمة الوفاء، فلا يمكن الحديث فيها عن الفرد الناضج المعطاء، ولا الأسرة العامرة بالأمن والسكينة، ولا الدولة المستقرة التي تنعم بثقة أبنائها. في مناخ كهذا، ينظر الأفراد بعين الشك والريبة إلى بعضهم، وتعاني الأسرة شقاء مضنيًا، وتُذيق الدولة أبناءها مرارات البؤس والنكبات، ويغدو كل شيء أجنبيًّا بعضه إلى البعض كالجمادات وإن تداخلت أو تراصّ بعضها فوق بعض.

الوفاء يؤلف بين الأفراد ويُدمج بعضهم إلى بعض في إخاء

وتوافق. بالوفاء تصبح الأجزاء كلاً متكاملاً، وتتلاحم القطع المتناثرة في وحدة متناغمة. وإذا ما بلغ الوفاء "الآباد السرمدية"؛ انهمرت أطياف النور الماورائية، وأضاءت دروبَ الكتل البشرية، وأزالت جميع العوائق التي تقطع الطريق عليها.. بشرط أن تكون تلك المجتمعات قد نضجت بالوفاء، وأسلمت نفسها إلى أحضانه التي تجمّع وتؤلّف.

أَعلّقتَ قلبك بفكرة عالية؟ أشُغِفتَ بغاية سامية؟ أَعَقدتَ بينك وبين أحد ميثاق مودة؟ إذن كن وفيًّا، وقدّم في سبيل ذلك نفسك.. كن وفيًّا وإن تبددتْ في سبيل ذلك ثروتُك. فلا قيمة أعز من الوفاء، ولا مكانة أعظم من الأوفياء، لدى الحق سبحانه ولدى الخلق على حد سواء.

جاءني من الحق نداء،

"أيا عاشق أَقبِل، فمن المحارم غدوتَ،

وهذا مقامهم،

فقد رأيناك من أهل الوفاء". (نسيمي)

لقد فتح آدم عليه السلام الأبواب التي أُوصِدت في وجهه واحدًا بعد آخر بمفتاح الوفاء السحري الذي حمله في قلبه، فوصل إلى منابع "الغفران"، بينما رمى إبليس -الذي عصا وبغى في الحدث عينه- بنفسه في جحيم الجحود.

أما نبي الطوفان عليه السلام فقد عاش لقرون يعاني، ومع ذلك كان وفيًّا.. نبّه قومَه وحذّرهم عاقبة ما يقترفون، كابد كل طريق فلم يجد صدى لكلماته في قلوب أكثرهم. ورغم ذلك ما تخلّى عن وفائه لـ"الباب" الذي أخلص له طوال حياته.. حتى إذا انقضّت السماوات

والأرضون عليهم بالجبروت، تحوّل ذلك الوفاء الذي يحمله في قرارة نفسه إلى سفينة نجاة له ولمن آمن معه.

ثم انظر إلى خليل الرحمن وأبي الأنبياء عليه السلام عندما تصدّى لنار النمرود! كم كان وفيًّا فداه روحي! وحينما التقت أنفاس وفائه التي دوّت في أرجاء السماء بهتاف "حسبي الله!" مع نسمات الرحمة التي هبت ملبية لندائه من وراء الماوراء، تحولت أحشاء النيران الجهنمية بردًا وسلامًا.

كذلك رائد القدسيين، وإمام السابقين واللاحقين ﷺ إنما نال سعادة السياحة إلى ما وراء السماوات -تلك الرحلة التي لم تكتب لأحد سواه- بفضل حس الوفاء المكنون في روحه. أجل، بفضل الوفاء بلغ عوالم لم يَسبق أن بلغها ملَك من قبل، ونال من السعادة والتكريم ما لم ينله أيّ فان في هذا الوجود. ولكنّ وفاءه لأمته جعله يغادر عالم السعداء، ذاك الذي تنبهر فيه الأبصار حائرة وتذوب فيه الأفئدة نشوى، ويعود أدراجه إلى صحبه ورفاق دربه. أجل، عاد لكي يصارع الأحداث الجسام، ويواجه العقبات التي تعترض طريقه، ويرتقي بصحبه البررة إلى تلك العوالم السماوية. وفاؤه لصحبه ورفاق دربه، جعله يُعرِض عن الجنان وحور العين.. عهدُ وفاء قطعه لهم عاد به إلى هذه الدنيا الحافلة بالمعاناة والآلام ليكون إلى جانبهم، تاركًا كافة الأعطيات الروحية والمراتب المعنوية وراءه، وذلك في لحظة بلغ فيها بهامته قمم المكارم السماوية الباهرة.

إن جميع من ارتقى من أهل السمو، طُوِيت سجلات حسناتهم بالوفاء وختمت بخاتَمه. وجميع من تعثر في الطريق خُتم على

سجلات أعمالهم -وهي مَعارِض حافلة من المساوئ- بخاتم الإنكار والجحود. أجل، إن البؤساء الذين نقضوا ميثاق الوفاء لِما تعهدوا به من مهامّ ومسؤوليات قبل أن يتقدموا بها ولو خطوتين إلى الأمام، وتنحّوا بأنفسهم جانبًا، خُتم على جباههم بخاتم الذلة والهوان ونُبذوا إلى أسفل سافلين. أما الذين لم يصبروا على "الحِمل المقدس" و"الرحلة المقدسة" ربع يوم وحادوا عن المسير، فقد أضاعوا الطريق الصحيح مذ ذلك الوقت حتى اليوم، وأصبحوا ضالين تائهين.

وأخيرًا دار الزمان دورته، وعادت إلينا أمانة "المعاناة المقدسة"، فأقسمنا بأغلظ أيمان الوفاء، ووضعنا كواهلنا تحت هذه المسؤولية الثقيلة الضخمة. كنا متوقدين حماسًا وتحفزًا، متشبعين عزيمة وتصميمًا.. ولكن هيهات.. اعترض طريقَنا فجأةً تنينٌ مرعب، فنقضنا كل العهود التي قطعناها على أنفسنا.. عادت الأرجاء كلها تتصحر من جديد، وذابت كافة أنواع الشهامة والبطولة ذوبان الجليد واختفت بلا أوبة، وحلت الأشواك محل الورود، وانطفأت الأقمار وأفَلت الشموس، وهجمت على الأجواء غيومٌ محمّلة بالقسوة والكآبة. أقفر البستان ومات البستاني، جفت الخلايا واختفى العسل. وراح بؤساء هذا الزمان الذي أصيب بقحط في الإنسان، يتملقون أرواحًا ميتة لا تملك ذرة من حس أمانة أو وفاء، ويَنظِمون فيهم قصائد بطولة وأناشيد نصر. لم تبق روح فظّة إلا صفقوا لها مهللين "يا للذكاء، يا للشهامة"!

وإزاء ضياع حس الوفاء في تلك الفترة، ضجّ أحدهم بصراخ

ثوريّ مدوّ مرددًا:

لا وفاء، ولا حرمة للعهد، والأمانةُ لفظ بلا مدلول،
الكذب رائج، والخيانة سلوك سائد، والحق ضائع،
القلوب بلا رحمة، والمشاعر منحطة، والآمال محبَطة،
ونظرات الناس تشي باحتقار عباد الله،
العقول تندهش يا رب، ما أفظع الانقلاب الذي وقع،
لم يبق دين ولا إيمان، الدين خراب والإيمان تراب. (محمد عاكف)

في هذه الفترة، احتل الساحةَ مشعوذون لا حصر لهم، دأبُهم الكذب والخداع والمبالغة. مشعوذون ينقضون عهدهم كل يوم مرة بعد أخرى، ويتراجعون عن الوعود التي قطعوها مرات ومرات نتيجة حرمانهم الأبدي من حس الوفاء. هؤلاء تلعنهم الأرض وسكانها، وتلعنهم السماء ومن فيها.

من أين ظهر كل هذا الحشد من فاسدي المزاج سيئي الأخلاق؟ أيّ خائن فتح لهم صدره ونمّاهم؟ أيّ شقي آواهم في قلبه وربّاهم؟ أيّ ألسنة مشؤومة استقبلتهم بالتحية والإكرام؟

آه أيها الوفاء، أين أنت؟ سئمنا هؤلاء الذين ينقضون مواثيقهم، ويخونون عهودهم كل يوم مرة بعد أخرى. مللنا أشباه رجالٍ كلُّ كلمة لهم مبالغة، وكلُّ سلوك لهم اصطناع.. مللنا نفوسًا منحوسة حُرِمت حس الوفاء.. أين أنتم أيها الأخلاء الأوفياء؟ يا من ينتظرون في المكان الذي تواعدوا فيه أيامًا متعاقبة دون بَراحٍ وفاء لحس الوفاء! أين أنتم يا أبطالاً من صلب أبطال، يا رموز وفاءٍ توحّدوا مع أرواحهم؟! أين أنتم يا جباهًا بيضاء ناصعة! يا فرسان فترة مباركة!

يا من ضحوا بأنفسهم إكرامًا للوفاء! انهضوا، وانفذوا إلى أرواحنا.. اشحذوا آمالنا.. وأفرغوا كل ما تحملونه من معاني الوفاء في قلوبنا.. قلوبنا التي فقدت الشهامة والبطولة والوفاء منذ زمن بعيد.

أما وقد سلكنا طريق الانبعاث من جديد، فإلى معين الخَضِر[1] أوصلونا!.. هلمّوا... وأنقذوا أولئك القلة من الأوفياء الحائرين هنا وهناك... أنقذوهم من اليأس والإحباط رجاء.

ألا فلْيرعَ الله حسَّ الوفاء حيا في قلوب جيلنا الظامئ إلى الوفاء.

[1] معين الخضر في الأدبيات التركية تعني ماء الحياة. (المترجم)

الغرباء[1]

(أكتوبر ١٩٨٢)

غريب أنت في هذه الدنيا،

فلا تضحك يا قلبُ لا تضحك، ابكِ.

(يونس أمره)

الغرباء ثلة من أبطال القلوب وفدائيي المحبة، وقلة من الأطهار المجهولين. أنين متواصل هم، وتأوّهات ممتدة لا تنتهي، وحرقة أليمة تكوي الفؤاد كيًّا. إنهم عُشّاق حقيقة سامية وناشرو رسالة نبيلة. في سبيلها يتعرضون للأذى والألم، ومن أجلها يُطرَدون عن الأبواب. تلفحهم عشرات المخاطر كل يوم، وتتهددهم إنذارات الموت كل لحظة، وتنهمر عليهم ألوان الإهانة والتحقير كل حين، تلك هي حياة الغرباء.

ليس الغريب من ابتعد عن وطنه وداره أو فارق أهله وخلّانه، إنما الغريب من بات مغتربا في مجتمعه حالاً ومنهجًا وسلوكًا. فهو الحامل لأحلام سامية وغايات أخروية، وهو المضحّي بملذّاته الشخصية من أجل غيره، والمتألق بهمته العالية وعزيمته الخارقة.

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٥٠، (سبتمبر – أكتوبر) ٢٠١٥. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٤٥ (أكتوبر ١٩٨٢)، تحت عنوان: (Garipler). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

لذا فهو في تعارض دائم مع أبناء مجتمعه في رؤاهم وعاداتهم، يتعرض للإنكار والاستغراب والإقصاء في كل ما يبدر منه.

فالجموع التي هبّ لنجدتها تهدده حينًا وتطرده عن الأبواب، وتبطش به حينًا آخر وترمي به في السجون، أو تذيقه مرارة التشريد من منفى إلى آخر، أو تقيم له مشانق الموت هاتفة "لا ترحموه! اقتلوه!"؛ وهو صوّال جوّال في هذا الجو الكالح الذي تنذر فيه مئات من الكوارث بالويل، يواجه موتًا جديدًا هنا، ويسعى لنجدة مظلوم هناك. يقتحم لُجج المخاطر فارسا مغوارا حينًا، ويتصدى لألسنة اللهب المنتشرة بطلاً من أبطال الإطفاء حينًا، ويئنّ أنين الأم الحنون رحمة وإشفاقًا أحايين أخرى. فلا يملّ أخو الجفوة من الجفاء، ولا الغريب من الوفاء.

وقد يخالط الغريبَ شعورٌ من الوحدة والأسى -فيما يبدو للناظر- حين يعجز عن الاندماج مع مجتمعه بالعمق الذي يتطلع إليه، وعن إقامة جسور متينة وحوار دائم معه؛ بيد أن تفانيه في همّ الغير الذي ملأ جوانحه، وإحساسه العميق بأنه موجود من أجل الآخرين، يُنسِيه غربته ووحدته. فقد يحس للحظةٍ بوحشة يَتبعُها أنين، ولكنه في أغلب الأحيان -بفضل عوالم الأمل التي شيّدها في روحه- يَفيض بشرًا وسعادة وسرورًا.

الغرباء أزهار شقّت بأكمامها أديمَ الأرض مبكرة قبيل الربيع. أزهار الفجر تلك، تواجه الثلج والجليد في كل بقعة تبرز فيها، تنتصر عليهما، ثم تخوض معركة بطولية مع العواصف والأعاصير. فما أروع أزهار الثلج ترسل بغمزاتها إلى الشمس، وتلوّح بمناديلها البيضاء وسط الثلوج الفضية تغنّجًا ودلالاً!.. وما أعظم قَدْرَ الغرباء في الملإ

الأعلى.. أولئك الذين انطلقوا نحو النور مهللين بهتافات النصر!.. فهم يظهرون قبل أن تسقط الجمرة الأولى[1] على الثلج، وقبل أن يذوب الجليد. يواصلون حياتهم بمشقة وعنت، يبارزون المخاطر الجسام التي تتصدى لهم، فيصابون بجراح قاتلة، وينزفون، وتَخور قواهم، وتتداعى أجسامهم. يغادورن الحياة دون أن يذوقوا منها أي لذة في معظم الأحيان، يغادرونها وقد "باتوا خرابًا وترابًا"، لكن يغادرونها مغادرة الأبطال. فعندما يؤوون إلى حضن التربة لا يتلاشون ولا يندثرون، بل يُزهِرون ورودًا.. يموتون فُرادَى، وينبعثون عشرين عشرين.

ينتشر الغرباء على أبواب المجتمع كل يوم، حاملين معهم باقة من أفكار مباركة ورؤى سامية، يَمنحون المجتمعاتِ الميتةَ حياة، ويبعثون فيها قيما فقدتها من جديد، يطرقون الأبواب مرة بعد أخرى دون كلل أو ملل، يبثّون مواجيد قلوبهم، ويفرغون إلهامات أرواحهم ثم يعودون. يتعرضون للنهر والضرب مرارًا، يقابَلون بالشتم والسبّ والأذى، ويُطرَدون من الأبواب شر طردة، لكنهم لا يهِنون ولا يسأمون، ولا يَجِدون على أحد، ولا يقيمون قطيعة بينهم وبين أحد. عيونهم شاخصة نحو آفاق الغيب دومًا، يترقبون بشارة بعث مع مشرق كل شمس ومغربها. وفي مطلع كل يوم جديد يَصحُون وقد ازداد شوقهم نضرة وحماسهم اتقادًا، فينطلقون بأنفاس مبهورة، يقيمون مواقعهم في كل ممر وفي كل زاوية، يَدُلّون على الطريق المؤدية إلى معين الخضر عليه السلام.

من أدرك مُرادهم وشاركهم حالهم، اكتشف سر الخلود، وسعد

[1] سقوط الجمرة الأولى كناية عن بداية انتهاء برد الشتاء القارس. (المترجم)

بالوجود الأبدي. ومن نأى عنهم شقي بالموت أبد الآبدين. هؤلاء شاركوا جبريل عليه السلام مجلسه، والتقوا الخضر عليه السلام سبعين مرة. لذا تخضرّ البقاعُ التي يمرون بها، وتغدو الرمال التي تمسّ أقدامهم إكسيرًا للحياة، وتذوب جبال الكفر والإلحاد والضلال إزاء أنفاسهم الدافئة ذوبان الجليد، وتتحول الأراضي القاحلة التي تلمسها نفحاتُهم إلى حدائق إرم العجيبة.

المكابدة والمعاناة ديدنهم. كيف لا، وهم يرون المجتمع الذي تربّوا في أحشائه يتقلب من حال إلى حال أسوأ، فتَغِيم رؤاه، وتبهَت أفكاره، وتخمُد مشاعره، وتفسد آدابه وتقاليده، فتعتصر تلك الصورةُ قلوبَهم عصرًا، وتقصِم ظهورَهم حزنًا وكمدًا. بيد أن قلوبهم خفّاقة بالإيمان، عامرة بالأمل، فيّاضة بتحفز روحي عظيم. فإن شابهم في لحظة شعورٌ بالوحدة والاغتراب من إهانة مجتمعهم لهم، فهم مستبشرون فرحون مطمئنون في أغلب الأحيان.

آهٍ، ما من وجهٍ أليف،
ويْكأنّ الديار خِلوٌ من البشر،
آهٍ من سُبل شديدة الالتواء، عصيّة،
آهٍ من جبال ووديان وعرة،
تعبٌ، معاناة، تأوّه، وأنين..
هذا هو الطريق..
رغم ذلك ما أعذبه من طريق!..
وما أطيب الغربة!..

قلبُ الغريب المنكسرُ ونظراتُه الغائمة، مسرح للمكابدات

والأحزان. بأنّاته المتواصلة يذكّرك بآدم عليه السلام، وبتأوّهاته الحارقة يُشعِرك بداود عليه السلام. ينظر إلى حاله، فيجد نفسه وحيدًا في ديار الاغتراب، وقد نالت أيدي التجريح والإهانة منه، وباتت ديار الحبيب بعيدة قصيّة، فترتفع نداءاته شجية: "فلما اغتربتُ عن الغانيات الحسان، هتفتُ بحرقةٍ وا حسرتاه"[1]. ويعود يترقب يوم وصل الحبيب ولحظة لقائه والأنسِ به بشوق لا يوصف. وفي حالة الترقب تلك، لا تفتأ نسمات عليلة من ديار الرحمة تهبّ على قلبه الذي تَحَوّل مبخرةً متواصلةَ الاحتراق، فينتشي بوصل جديد يتبعه شوق من نوع آخر في كل حين.

وإذا عثر الغريب على قلوب متفتحة يمكن أن يُفرِغ فيها مواجيد فؤاده وإلهامات روحه، فارت سواكنه، وفاضت مشاعره، وغدا شلالاً متدفقًا. في هذا السبيل الذي خاضه عشقًا، لو تناثرت ثروته وتبددت، وخمدت جذوةُ ناره، وتهدمت دارُه، لا يبدي أدنى شكوى أو تأوّه؛ بل كلما رأى شرارات النار التي قدحها في روح أمته قد انتشرت في أرجاء المعمورة، شعر وكأن هامته بلغت أطراف الجِنان، وهتف ممتنًا "وا خليلاه.. وا خليلاه"، محلّقًا عاليًا نحو آفاق الأبد.

طوبى وألف طوبى للغرباء!.. بشرى وألف بشرى لهؤلاء الذين يتنفسون أملاً، وينشرون أمنًا وسكينة وسلامًا، ناسين ملذاتهم الذاتية من أجل سعادة المجتمع وطمأنينة الأمة، في زمن تلتهم فيه نار الفتنة والفساد الأخضر واليابس!

---

[1] من قصيدة للشاعر الصوفي التركي محمد لطفي ألوارلي، وهو أحد مشايخ المؤلف. (المترجم)

في مقابل هؤلاء غرباء، أو بالأصح بؤساء، ابتعدوا كل يوم خطوة عن ذاتهم وإنسانهم وثقافتهم فأضحوا أجانب منكَرين. هؤلاء يشبهون غرباءنا حزنًا ومكابدة واضطرابًا. لكنهم متهافتون، متهدّمون، يائسون، من الإيمان محرومون. إذا بحثتَ عن حياة قلبية أو روحية لهم فهيهات أن تجد شيئًا من ذلك. لا صوت لحركة، ولا بصيص لنور، ولا بارقة لأمل. أيام هؤلاء أشد ظلمة من لياليهم، ولياليهم مقابر حالكة السواد.

هؤلاء البؤساء الذين انبتّوا عن جذورهم، وانقطعوا عن جوهرهم الذاتي، فخمدت جمرة أرواحهم، وبهت بريقها وسط ألف دوامة ودوامة من التناقضات والانحرافات.. هؤلاء يمثلون صنفًا من البشر تحت خط الإنسانية؛ بل هم أضل من ذلك وأشقى. فالهواجس والمخاوف التي تمطرها عقولهم على أرواحهم، تحرمهم حتى من الاستمتاع الشكلي بملذات الحياة. وإنّ نظرة واحدة إلى قلوبهم المظلمة، وأفكارهم المشوشة، وأعينهم الزائغة، وعقولهم التي تتصارع فيها أكوام من الأسئلة الحائرة والألغاز المعقدة، لكفيلة بأن تذكّرك بسكان جهنم. وهيهات أن تكون الحياة التي يحيونها جديرة بالعيش. ولكن، لا حيلة لهم -والموت يعني العدمَ في نظرهم- سوى اختيار هذه الحياة التي تتقاذفها الشكوك والأسئلة والألغاز.الحياة بالنسبة لهؤلاء الحيارى عذاب في عذاب..وإنسانيتهم مصيبة كبرى.. فالموت عندهم دوامة مرعبة وثقب أسود، والكون فوضى.. والمَخرج الوحيد لتجنب الشعور بالألم هو اللجوء إلى السُّكْر المقيم.

وا حسرتاه على هذا النوع من التفكير! وا أسفاه على هؤلاء البؤساء! ما أشد تعاسة هذا الصنف من الغرباء!

تجديد الذات[1]

(ديسمبر ١٩٨٢)

تجديد الذات هو الشرط الأول لمن أراد البقاء. ومن عجز عن تجديد ذاته وقت الحاجة؛ محكوم عليه بالزوال والفناء عاجلاً أم آجلاً مهما بلغ من القوة والجبروت. كل كائن في هذا الوجود يحافظ على حيويته، ويواصل مسيرته عبر تجديده لذاته. فإذا توقفت دورة التجديد، أصيب بالتآكل والبِلى كجثة انتُزِعت منها روحُها.

ما أروع بساط الأرض في موسم الربيع! كل شيء يسعى ليجدد ذاته؛ الأعشاب، والأشجار، والتراب الذي يؤوي ملايين الأحياء في جزء ضئيل بحجم الظفر. هيا اخرج إلى عالم الربيع، وخذ جولة بين الكائنات، لترى بهجتها، وتسمع تهليلها، وقد لبست حلتها الجديدة، وازّينت بنياشينها القشيبة، وانطلقت تنمو وتزدهر فرحة سعيدة. تأمل تلك الجوامد التي تبدو كالموتى بلا حراك كيف حوّلت وجه الأرض -من أوله إلى آخره- إلى ساحة عيد بهيجة كالجنان بشاراتِها الملونة الزاهية وأسلحتها المتنوعة، وكأنها جيوش تستعد

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٥١، (نوفمبر - ديسمبر) ٢٠١٥. ونشره لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٤٧ (ديسمبر ١٩٨٢)، تحت عنوان: (Kendini Yenileme). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

لاستعراض رسمي. انظر كيف تضرب المثَل، بل آلاف الأمثال، بل ملايينها، لتَجدُّد عظيم يشمل الأرض كلها في آن واحد.

ثم ارجع البصر إلى هذا الكائن الذي أخذ ينبض بالحياة.. أترى كيف انخرط في مسيرة الانبعاث بأنفاس متتابعة!؟ واعطف على تلك النواة التي تبشر بتفتح زهرة جميلة.. أترى كيف تكابد آلام مخاض جديد.. وتلك الزهور التي تناثرت حُبيباتُها في الهواء.. كم هي رائعة.. وحبوب اللِّقاح التي تعلقت بأرجل الحشرات لتنقلها إلى مواقع للتكاثر.. أجل، كل شيء يتجدد، ومن تخلّف عن ركب التجديد يفنى ويتلاشى بلا انبعاث مرة أخرى.

كذلك الإنسان ينبغي أن يجدد نفسه. فالدول والأمم بقدر تجديدها لذاتها في عمقها الفكري والعاطفي وفي حياتها القلبية والروحية وتدفّقها فتوة وشبابًا، تتأهل لتحمُّل مسؤوليات كبرى على مستوى المعمورة، وتغدو جاهزة لفتح العالم. أجل، فتح العالم من خلال إثراء العلوم بنور البصيرة، وتزويد التكنولوجيا بقيم الإيمان، ونفح الإنسانية بمعانٍ ورسائل تمكنها من الانبعاث. أما إذا أخفقت الأمم والمجتمعات في ذلك التجديد، فإنها لن تنجو من الذل والهوان في جو من الأسر المهين.

ولكن حذار من الخلط بين تجديد الذات، والهُيام بكل محدَث جديد أو الشغف بكل تقليعة مبهرة. فالتجديد الثاني ليس إلا محاولة لإخفاء التجاعيد بوضع طلاء على حشودٍ سَرَى في وجوهها التمزق والتآكل وامتد إلى جميع أطرافها. أما التجديد الأول فسعي حقيقي لإرواء المجتمع بماء حياة من معين الخضر، ومنحِه سمةَ الخلود.

إن التجديد الحقيقي ارتقاء إلى فضاءات من التفكر أكثر جِدّة ووضوحًا عبر إنتاج تَواليفَ فريدة بين القيم التي توارثتها الأجيال وصقلتها قرنًا بعد قرن، وزبدةِ التجارب الفكرية والعرفانية الراهنة، مع الحفاظ على جوهر البذور وصفاء الجذور. أما وسم المرء بالجِدّة ووصمه بالقدم بناء على جاكِتْ لامع أو فستان فاقع، أو معطف أنيق أو شعر مدهون، فسذاجة صارخة وانخداع مريع؛ والسعي إلى فرض هذا النوع من التفكير، ضرب من التحايل والتمويه والتهريج.

تجديد الذات حركة تسري في خط ميتافيزيقي.. تجديد الذات انبعاث في أفق روحي.. انبعاث مع التزام تام بقيم الأصالة وعمق المقدسات. فإذا كان بعيدًا عن هذه المعاني، فهل يسمى انبعاثًا؟

إذا استطعنا أن نستثمر العلوم في تقدمها الهائل، والتكنولوجيا في إعدادها لنا إمكانات جديدة أفضل ما يكون الاستثمار، وتمكنّا من أن نلتفت إلى أعماق قلوبنا بالمجهر في أيدينا مرة بعد أخرى، نرصد مشاعرنا وأفكارنا، ونتتبع تصوراتنا ورؤانا، ونضيف معاني جديدة إلى خلية العرفان الكامنة في قرارة أفئدتنا كل يوم، وأن نمرر الأكوان كلها من موشور الروح عدة مرات في كل لحظة، وندرّب الأذهان على هذا النمط من "الجهاد".. فذلك هو التجديد الحقيقي.

إن فردًا نجح في تجديد ذاته بهذا المعنى، يصبح ركنًا أساسيًّا من أركان المجتمع لا يذبل ولا يفنى، وإن مجتمعًا تَشكّل أفرادُه بهذا السمت، يرقى ليصبح جزءًا مهمًّا في المعادلات الدولية. بيد أن تجديدًا -كهذا- يشمل الأمة كلها، يقتضي طاقمًا وُفّق إلى تجديد ذاته أولاً. طاقم، له قلب يتقد إيمانًا ويتوهج أملاً، وله عقل يرفرف عاليًا

نحو فضاءات فكرية جديدة في كل حين بفضل مئات من التراكيب التي تَوصّل إليها، وتشع عيناه بحلم الغد المشرق. أجل، طاقم من المباركين الأخيار، تمكنوا من تجديد أنفسهم. أما السعي إلى تنشئة أجيال طاهرة تَخلُف طاقم الأخيار هؤلاء، تَحمِل مشاريعهم ورؤاهم كالمشاعل وتخلّدها في الحياة، فتلك قضية أخرى نؤكد على أهمية العمل عليها كذلك.

حينما أخفق الأمويون في إقناع المجتمع برؤى عمر بن عبد العزيز التجديدية التي اقترحها وقتئذ، لم يستطيعوا إنقاذ أنفسهم من الموت المحقق إزاء هجمات خصومهم الأشداء والتيارات الفكرية العاصفة، فاندثروا في ذلة وتلاشوا في مستنقع وخيم. الأمر نفسه ينطبق على العباسيين وأمويي الأندلس وأتراك العثمانيين بعد القرن السابع عشر.. هؤلاء الذين آثروا سياسة الأبواب المشرعة أمام كل جديد محدَثٍ وتناقضٍ آكلٍ للروح بدل المبادرة إلى تجديد في القلب وانبعاث في تلك الروح.

والمؤسف أن الدول العظيمة تلك، عندما هزتها ضربات خصومها وجعلتها تتخبط وتترنح، هرعت إلى الفكر اليوناني والفلسفة اللاتينية تستنجد بهما، بدلاً من اللجوء إلى تجديد نفسها في بُعدها الروحي. بيد أن ذلك لم يُجدِ نفعًا، بل كان سببًا في تعجيل انهيارها، فلقيت حتفها في خط قدري مماثل.

أما المحاولات السخيفة التي قام بها "المستنير" العثماني باسم التجديد والتي جعلته مَسخرة، فقد انحرفت بمجتمعنا عن سمته الخاص، وحوّلته إلى مخلوق مشوه غريب.

نعم، لم تستطع فكرة "النظام الجديد"[١]، ولا مذبحة الإنكشارية[٢]، ولا الفرمان السلطاني[٣] الذي أعده دُمَى "كولخانة" المتحمّسون السذّج، أن تفتح للمجتمع العثماني الطريق إلى تجديد ذاته؛ بل نزلت تلك المحاولات التعيسة على المجتمع كالمطرقة فحطمت رأسه، وأدخلته في حالة غيبوبة يرثى لها. لا ننفي وجود بعض المبادرات الخجولة والمحاولات النافعة في تلك الفترة، لكنها كانت -على الأغلب- محدودة الحضور، دفاعية الطابع، صدامية المزاج.. لذلك لم تأت بالتجديد المنشود.

بل يمكننا القول إن أسقام المجتمع ومشاكله التي كانت بادية مكشوفة، قد أخذت في التنكر والتخفي جراء التدخلات التعسفية، وباتت أكثر خطورة من ذي قبل.

إن التدخلات التي تم اللجوء إليها في غير وقتها وغير محلها بُغيةَ علاج أمراض متفشية في المجتمع، لم تكن سوى مسكّنات لمريض

---

[١] النظام الجديد: إصلاحات عسكرية أدخلها السلطان العثماني سليم الثالث لتحديث الجيش العثماني عن طريق إعادة تنظيم الوحدات العسكرية العثمانية وتطوير أسلحتها، وتدريبها على نمط الجيوش الأوروبية الحديثة، وذلك في تاريخ ١٧٩٢م. (المترجم)

[٢] مذبحة الإنكشارية: هي مذبحة جرت بعد ثورة الإنكشارية بإسطنبول في ١٤-١٥ يونيو عام ١٨٢٦م في عهد السلطان محمود الثاني. وانتهت بإلغاء قوات الإنكشارية من الجيش العثماني ليحل محلها قوات "العساكر المحمدية المنصورة" التي تم تدريبها على نمط الجيوش الأوروبية. (المترجم)

[٣] المرسوم السلطاني أو الخط الهُمايوني: هو الذي عُرف بفرمان التنظيمات، والذي أعلن عنه في حديقة "كُولْخانة" المجاورة لقصر توب قابي في إسطنبول عام ١٨٣٩ في عهد السلطان عبد المجيد، حيث شمل إصلاحات دستورية طبعت صبغتها التغربية التحديثية على فترة طويلة عرفت بفترة "التنظيمات". (المترجم)

يتلوى بآلام مبرحة لكي تقطع أناته، أو مشدّ خصر يوضع على الفتق حلًّا مؤقتًا، فلم تُجدِ نفعًا سوى تسكين المريض فترة قصيرة.

في الحقيقة، إن كل ما بَشّرت به تلك الأرواح الميتة الذاهلة -التي ضلت طريقها فلا تدري لها مُتّجَهًا- تحت شعار التجديد، لم يعدُ أن يكون خداعًا للحشود وتضليلاً. آه، ثم آه من تلك الحشود المخدوعة المضلَّلة! ليت شعري هل سنتمكن من أن نفقّهها كيف تجدد نفسها بالمعنى الحقيقي للتجديد؟!

شجرة الأمة[1]

(فبراير ١٩٨٣)

لا ينال الفردُ السعادة والنجاح إلا في مجتمع ينبض أمنًا وسلامًا، ولا يصلح المجتمع أو ينعم بالسكينة والرضا إلا بأفراد تشبّعوا بروح الإيثار والإخلاص والتفاني. محال أن يتشكل مجتمع سليم من أفراد أنانيين شُلّت أرواحهم بألف عاهة وعاهة. محال أن يحظى بالسعادة أفراد لم يجدوا مجتمعًا صحيحًا يتفيؤون ظلاله ويحتمون تحت أجنحته الحانية. إن الأفراد ينسجون المجتمع جزءًا بعد آخر نسجًا بديعًا، وإن المجتمع يحنو على أفراده الذين يشكلونه، يشملهم برعايته الخاصة ويأخذ بأيديهم إلى العُلا، ويفتّق مواهبهم الذاتية حتى يحوّلهم سماويين.

في ظل تعاهُد كهذا فقط، يصبح المجتمع متوازنًا خفاقًا بالأمل واعدًا، ويعيش الفرد في أرجائه عزيزًا كريمًا. في ظل مجتمع كهذا، يجد الطالب فرصة لتحصيل العلم، ويجد العالِم إمكانًا لسكب إلهامات روحه في قلب طلابه. في ظل مجتمع كهذا، تعجّ

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٦٠، (مايو - يونيو) ٢٠١٧م. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٤٩ (فبراير ١٩٨٣)، تحت عنوان: (Var Olma). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

المكتبات بطلبة العلم، ويغدو العلم مِلكًا للجميع، وينعكس الفكر على العبادات، وتؤول العبادات فكرًا. إن مدينة هذا سمتُها، لَمَدينة فاضلة وسكانُها سعداء.

إن الفرد لا يمكن أن يعيش عزيزًا كريمًا في مجتمع أصابه العفن والتحلل في بعض أجزائه، وحاصره الخصوم من كل جانب. في مجتمع كهذا، لا يمكن لطالب علم أن يحصّل علمًا حقيقيًّا، ولا يمكن لعالِم أن يُودع أحدًا علمَه، بل لا يمكن لأحد أن يقوم بواجباته تجاه خالقه. في مجتمع كهذا، محال لأي امرئ أن ينقذ سفينته من الغرق. فما بالك إذا كان هذا المجتمع مخترَقًا من خصومه، بل ينمو ويترعرع في مهد يهزّونه، يتحدث لغتهم، ويلوّح لهم بمناديل الفرح، ويَحُلّون من قلبه في أعزّ موطن.

لقد كانت العداوات في الماضي تَفد علينا من الخارج عمومًا، أما عداوات الداخل فكانت محدودة الأسباب، تنشأ عن الجهل والتعصب وأمور أخرى مشابهة، وكان التصدي لها والقضاءُ عليها ميسورًا. أما اليوم، فهناك كتائب من الخصوم غاية في الانتظام والتجهيز، تشنّ الغارة تلو الأخرى على موقع القلب من المجتمع تبتغي القضاء عليه، بل وتستغلّ طِيبته وحساسيته إزاء بعض القضايا للإجهاز عليه. فإذا فقد المجتمع حساسيته، والفرد تأهّبه إزاء هذه الغارات شديدة الفتك عميقة الخبث، فقد حانت لحظة طعن ألب أرسلان[1] غدرًا، ومقتل

---

[1] السلطان السلجوكي العظيم الذي قتل غيلة على يد أحد الثائرين في ٢٩ نوفمبر ١٠٧٢. (المترجم)

الفاتح[١] بالسمّ مكرًا. "حينها يدق الناقوس في مخ عثمان[٢]، ويُمحَى اسم المولى من الفضاء، ويصمت الأذان" على حد قول الشاعر[٣].

إن أخوف ما نخافه، أن ينتشر العدو وتسري العداوات في شرايين المجتمع من أوله حتى آخره، يأكل في جسمه من الداخل، ويذيبه شيئًا فشيئًا كسرطان يسري في العروق. وإن الحشود التي تقع في شراكٍ نصبها لها أعداؤها على هذا النحو، تفقد قدرتها على تمييز عدوها من صديقها، بل تحسب أشد الخصوم فتكًا بها وامتصاصًا لدمائها وتمزيقًا لأعصابها؛ صديقًا حميمًا.

أجل، حينما تكون بصيرة الأمة عمياء إلى هذا الحد، ويكون الخصم مكّارًا فتّاكًا إلى هذا المدى، فذلك يعني أن "حصان طراودة" قد اجتاز الأسوار، وتسلل إلى الداخل، وباتت القلعة في خطر جسيم.

عندما اكتشف الفكر الاستعماري -الذي لم يتوان لحظة عن إثارة الحروب وسفك الدماء لوأد هبّات انبعاث أمتنا في مهدها- سِرَّ هزيمتنا، تغاضى عن هزيمة "فيينا" و"بواتيه" ولم يعد يفكر فيهما بتاتًا، بل اتخذ لنفسه منحى جديدًا، مردّدًا "لِتُفتَح القلعةُ من داخلها"، وأخذ يُعِدّ العدة بناء على ذلك، ويهيئ مواقع جديدة تناسب هذا المنظور الجديد.

ليت "المستنيرين" من نخبنا تنبّهوا مبكرًا لهذا الحراك الجديد. لكن هيهات، فقد مضى زمانٌ مشئوم اعترت فيه نُخبَنا "المستنيرة"

---

[١] السلطان محمد الفاتح، فاتح إسطنبول عام ١٤٥٣، وتقول الروايات إنه قتل مسموما ولقي مولاه سنة ١٤٨١. (المترجم)

[٢] إشارة إلى الدولة العثمانية. (المترجم)

[٣] يقصد الشاعر محمد عاكف أرسوي صاحب نشيد الاستقلال الوطني التركي، توفي سنة ١٩٣٦. (المترجم)

حالةٌ من النعاس، وغطوا جميعًا في سبات عميق بعد أول حكاية قُصّت عليهم كحواديت الأطفال، وباتوا يحلِّقون في عوالم سحرية من الأحلام الوردية.

في هذه الفترة الكارثية، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، وبعدما غيّر العالم الآخر أهدافه، نثر كلٌّ ما في جعبته من بضائع رديئة في ساحاتنا بأثمان رخيصة مغرية، وعرض أمام الأنظار أتفه الأفكار على أنها قطع ألماسية، وروَّج لها بحملات إعلانية طنَّانة رنَّانة، وراح المهرِّجون يختالون بملابسهم الهزلية بين الناس وكأنهم ممثلون محترفون، فصفقت لهم بعض النفوس المريضة ذات النظر المحدود، وراحوا يهللون بأسمائهم على أنهم "حَواريون". في مقابل ذلك، تعرضت روح الأمة لهزَّة بعد أخرى وانهيار بعد آخر، وانسحقت تحت جبال من الجليد المروعة الزاحفة من أصقاع الشمال.

وعندما طفت على السطح أحقاد تاريخية تراكمت عبر عصور مع الحرب العالمية الأولى، تصدّى لها فرسان من الأناضول فلملموا شعثهم وجمعوا شملهم من جديد، وتداعوا إلى جبهات النضال في كل أنحاء الوطن بكل ما يملكون من شحذ معنوي وحماسة روحية، فكان النصر المبين.

لقد بدا للعيان أن السلاح هو المنتصر، لكن روح الأمة هي من انتصرت في الحقيقة. وكانت المهمة الكبرى بعد ذلك النصر، رفعَ قضية الاستقلال عاليًا كالراية التي ترفرف في الفضاء، وحمايتَها بكل قوة، وشحذَ الهمم للسير بها قدُمًا. وكان ذلك يقتضي تكريم "روح الأمة" التي لبّت نداءات الكفاح في كل أرجاء الوطن من أجل

تصفية حساباتها مع خصوم حاربوها عبر قرون، كما كان يقتضي إبعاد أرواح خبيثة لم تفتر عن إثارة الفوضى والبلبلة والارتباك في المواقع الخلفية من الجبهات. لو أن ذلك قد تم فعلاً، لظفر عالمنا بروح جديدة برَّاقة تخفق بحب الإنسان وعشق الحرية.

ولكن هيهات، فقد ابتُلينا بمن أَسكرتْه نشوةُ الانتصار، ومن هرول ليسطو على أملاك غالية بثمن بخس منتهزًا حالة الفراغ، ومن أسرع إلى تشكيل أحزاب غامضة للحصول على حظ أوفر من المسلوب والمنهوب، بل فوجئنا بانتهازيين استغلُّوا عواطف الجماهير في تبجيلهم لبعض البطولات الملحمية التي حدثت في ساحات النزال، لكي يركبوا بها على أكتاف السُّذَّج منهم كذبًا وزورًا، وصُعِقنا بحياة النعومة والترف التي رفل فيها ورثة الفكر الاستعماري، ممن أغمدوا خناجرهم في قلب إنساننا مكيدة وغدرًا.

في المقابل، مُحي من الذاكرة أبطال جَعلوا من صدورهم سدًّا منيعًا في وجه المحتلِّين ولم يسمحوا لهم بالعبور، وبذلوا كل غال ونفيس في خدمة الأوطان، و"سقط أرضًا برصاصة أصابت جبهته الطاهرة"[1]؛ فحُرمت أجيالنا اللاحقة من التعرف على إنساننا المثالي بغاياته السامية وآماله الكبرى.

في بلد كهذا، يصبح الشعب شقيًّا سيء الطالع، ويضحي الوطن يتيمًا بلا كافل. إذا فحصتم جميع مؤسساته جزءًا جزءًا، فلن تعثروا فيها على أثر من روحكم، ولن تروا عشقًا للعلم أو حبًّا للحقيقة أو

---

[1] عبارة من قصيدة لشاعر النشيد الوطني التركي محمد عاكف، كتبها عن ملحمة "جَنَقْ قَلْعَة" أثناء الحرب العالمية الأولى. (المترجم)

أخلاقًا فاضلة. إن جسم الأمة في عالم كهذا، مليء كله بالثقوب والشروخ؛ العِلمُ فيه تهريج، ودُور التعليم سيرك وملاهٍ.

في بلد كهذا، تُحقَن الأجيال بالإلحاد والإباحية عبر مناهج البحث عن الحقيقة. في بلد كهذا، القلوب قاسية بلا رحمة، والعواطف رديئة منحطة، والنظرات خالية من بريق الحقيقة لا تنضح إلا كذبًا وزورًا؛ خاصة في ظل معالجة القضايا بكل ما يستميل العينَ والأذنَ ويستهوي الألسنَ والشفاه، مقابلَ إقصاء "الروح" ومعانيها جانبًا كخرقة بالية؛ تلك "الروح" التي تُشكّل إكسيرًا لنهوض حشود هائمة تئنّ وتتلوّى وسط ألف دوامة ودوامة؛ تلك "الروح" التي هانت علينا في سبيل إنقاذها من الأسر نفوسُنا ودماؤنا ونحن نجاهد في سبع جبهات. فهل كانت تلك الوقائع التي خُضناها بكل بسالة، من أجل أن نقع في أسرٍ جديد هو المادة؟

لقد صار "غول المادة" يترصد الأجيال عند كل منعطف، يقطع طريقها، ويعصف في بعض الأحيان بأفكارها وعواطفها فيخلّف وراءه دمارًا مخيفًا. بات يزعم أنه محراب الجماعات البشرية بعد اليوم. أما التكنولوجيا الوحشية التي لم تتهذب وتندمج في مسار روحنا الذاتية الأصيلة، فتلك وباء قاتل.

لقد فرضت التكنولوجيا سلطانها على حياتنا في وقت لم يتهيأ فيه أفرادنا ليصبحوا مجتمعيين متضامنين، ولم تنضج لديهم أفكار سامية مثل نذر النفس في سبيل الأمة، فوقع المجتمع في براثن الخمول، وغلتْ الأفرادَ الأنانيةُ، واستولى عليهم النفور وسوء المعشر، وبات الإنسان عدو الإنسان. تحوّل الرئيس والمرءوس، وصاحب العمل

والعامل، والموظف والمواطن، والمعلم والتلميذ، والوالد والولد، إلى ذئب يترقب كلٌّ منهما الآخرَ لينقضّ عليه في أي لحظة؛ وهكذا اندفع مجتمعنا بكل شرائحه إلى حتفه اندفاعًا. ولولا يد العناية التي امتدت إليه من حين لآخر تساعده على تقويم ظهره، لانمحى من صفحة التاريخ دون أن يُعقِّب أثرًا. لذلك لا مناص من إعادة النظر في روحه المتحجرة وقلبه المخدَّر والشروعِ في إصلاحهما، وعدمِ الاكتفاء بترميم جدرانه الخارجية.

إن الأبطال الذين تعهّدوا بحمل راية المستقبل على أكتافهم ورفعِها عالية في السماء، سيُثبِتون إخلاصهم وصدقهم بحجم شعورهم بثقل تلك المسؤولية في كل خطوة يخطونها. لن تكون أفكار هؤلاء ورؤاهم خاضعة لإكراهات الحياة، بل ستنقاد لهم الحياة في فهمهم للحقيقة. هؤلاء، سيثورون على كل حياة تنقضي دون الشعور بعمقها أو الوعي بمعانيها، سيثورون على كل حرمان من وقدة عشق أو شعلة حماس، سيثورون على اللامسؤولية القابعة في أعماق نفوسهم، ويثبتون أنهم "موجودون" حقًّا.

إن مجتمعًا بلغ هذا المبلغ من النضج مستنيرًا بإرشاد هُداته الأمناء، جاهز لتحقيق التجديد والانبعاث (Renaissance) في ذاته. وإذا كنا متفائلين بانبعاث جديد كهذا -قد بدأت بشائره تلوح في أفقنا- فذلك يرجع إلى ثقتنا بسلامة "شجرة الأمة" المشمولة برعاية صاحب الرحمة اللانهائية.

الروح الباعثة[1]

(مايو ١٩٨٣)

أيٌّ من المعاني والحقائق ينهض بإنسان هذه الأمة ويمده بالحياة والبقاء؟ إن المعنى الذي كان يسري في عروقه -حتى زمن قريب- ويحدد وجهته، ويحفظ حيويته، كان ينبعث من عالمه الفكري وعمقه الوجداني، بل إن الميزة الوحيدة التي اشتهر بها -وهي الفاعلية- لم تكن إلا نبعًا ينساب من ذلك العمق الداخلي ذي الأبعاد المتعددة، شأنُه في ذلك شأنُ الزمن في تداخل أبعاده.

إن هذا المعنى منقوش في روح ماضينا بمئات من النماذج الحية، نقشَ الزينة على الحرير بدقة بديعة، وهو الذي ضَمِن لنا أفضل الرجال تنشئة في العلم والحكمة والسلوك عبر التاريخ في كل ساحات الحياة.

إن شهامة صلاح الدين التي أبداها لقلب الأسد "ريتشارد"، ذلك المتجبر الذي لم يكن يرى إلا ذاته، والتي أذهلته وأخرست

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٥٢، (يناير - فبراير) ٢٠١٦. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٥٠ (مايو ١٩٨٣)، تحت عنوان: (Diriltici Ruh). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

لسانه، وأجبرته على طأطأة رأسه خجلاً.. وأصالة "ألب أرسلان"[١] وسُموّه الأخلاقي الذي دفع "رومين ديوجين" إلى الإجهاش بالبكاء شكرًا له وعرفانًا لصنيعه.. ورُقيّ "كيليج أرسلان"[٢] وإنسانيته حين منح الأسرى حريتهم عقب قتال بطولي شرس أمام حصن أنطاليا ضد الصليبيين الهَمَج.. تلك المواقف النبيلة كلها، لم تكن سوى انتصارات باسم تلك الروح وذلك المعنى.

ولم تكن القوة التي شحنت جيش محمد الفاتح -أعظم جيش في العالم وأحدثه تقنيًا آنذاك- بِطاقةٍ جديدة أثناء حصاره أسوار بيزنطة الشاهقة، ومنحته مفاتيح عصره، إلا قوة الروح التي كان يمثلها ربانيون أمثال "أق شمس الدين"[٣]. لم يكن "الفاتح" ممثل الجبروت المادي المتوحش قط، بل كان رمزًا لتلك الروح السامية وذلك المعنى العميق الذي تَمثّل في عبقريته العسكرية وحكمته الإدارية. ولو لم يكن كذلك، لما اختلف دخوله إسطنبول عن دخول قيصر روما. لقد دخل العاصمة البيزنطية العريقة بسماحة الروح الطاهرة ﷺ وعفوِها، تلك التي فتحت مكة المكرمة لتمنح المهزومين حقوقًا لا تحصى، وتشملهم بنبل فريد.

---

[١] السلطان الثاني للدولة السلجوكية العظمى (١٠٢٩-١٠٧٢م)، وقد انتصر على الإمبراطور الروماني "رومين ديوجين" في معركة ملاذكرد سنة ١٠٧١، وفتحت أبواب الأناضول للمسلمين. ووقع رومين ديوجين أسيرًا في المعركة، فأحسن السلطان معاملته، وأطلق سراحه معززًا مكرمًا. (المترجم)

[٢] وهو السلطان السلجوكي العظيم (١١١٣-١١٩٢م). (المترجم)

[٣] وهو شيخ السلطان محمد الفاتح، وكان من العلماء المحققين والعارفين الربانيين، ويعتبر الفاتحَ الروحي لإسطنبول. (المترجم)

كيف يمكن أن نفسر سلوك "ياوُوز"[١] يوم عاد من الديار المصرية فاتحًا متوَّجًا بلقب الخليفة الأوحد ورمز العالم الإسلامي أجمع ما لم نستحضر هذه الروح وذلك المعنى؟ كانت الجماهير تنتظر قدومه في إسطنبول لتحتفل بالنصر المبين، وكان بعضُ من لا يعرفون تواضعه، يتوقعون أن يدخل العاصمةَ من تحت أقواس النصر منتشيًا بهتاف الرعية باسمه وتهليلهم بمجده، لكنه أبى إلا أن ينزل في أُسْكُدار بالضفة الآسيوية من إسطنبول، ينتظر حتى ينقضي النهار وينتصف الليل، ويأوي أهل المدينة إلى مضاجعهم، ويطمئن إلى أنهم قد أخلدوا إلى النوم، فيعبر إلى الضفة الأوروبية من العاصمة بهدوء كامل ودون أن يشعر به أحد.

فأكرِم بعَودٍ مظفَّرٍ، عن جميع صور الرياء والتباهي جدُّ بعيد! إنه لَعود حميد تُسَرّ به السماوات، وتهلل له الأرواح الطيبة تكريما! أمَا وقد تسامى هؤلاء الأبطال الأماجد على ذواتهم، وعاشوا بهجة ألف نصر ونصر في قلوبهم، فما أهمية أن يهلل أهل الفناء لهم، أو يستقبلوهم بباقات الورود ودقات الطبول، أو يقفوا بين أيديهم تحية وإجلالا؟

في تلك الحقبة من الزمان، يوم كانت تلك الروح نابضة في أجسامنا، جارية في عروقنا، مختلطة بدمائنا، مقيمة عروشها في خلايا أدمغتنا، كنا نغوص في أعماق قلوبنا متجاوزين عمقًا تلو آخر من ناحية، ونسعى إلى تثبيت مكانتنا بين الأمم فيما يتعلق بمصير العالم من ناحية أخرى.

---

[١] وهو السلطان العثماني سليم الأول الذي حكم الدولة العثمانية من ١٥١٢ إلى ١٥٢٠، ولقّب بـ"ياوُز"، ومعناه القوي الشجاع. (المترجم)

آه لتلك الروح الغالية! أكان يخطر ببالنا لحظةً أن نتنازل عن ذرة واحدة منها؟ انظروا كيف بهتت وتداعت وتفتتت؟

لعله يجافي الإنصافَ أن نبحث عن أسباب هذه الفاجعة لدى الأرواح المحتسِبة. تلك التي فتحت مجموعة من البلدان في سفرة واحدة، ثم نأت بنفسها بعيدًا عن تهليل الجماهير باسمها دافنة كبرياءها في تراب أُسْكُدار؛ بل الإنصافُ أن نبحث عن أسباب الكارثة لدى أرواح ميتة غامضة الجوهر، متآكلة الشخصية، سَدَنةٍ على أعتاب الكِبْر، قد استولى عليها التعاظم واستهواها التباهي؛ إن حققت نصرًا صغيرًا بحجم البيضة ضخّمته كي يبدو عظيمًا، وملأت أرجاء الأرض صخبًا وضجيجًا، ودخلت عاصمتها دخول الفراعنة الجبابرة.

تلك الأرواح المحتسبة تحمل في أيديها كأس حياة الأمة بأنفاسها المُحيِية، وهذه الأرواح الميتة أورام خبيثة استقرت في دماغ المجتمع فأصابت أطرافه كلها بالشلل.

أجل، لم يحطّم القيمَ الروحية التي كانت الضمان الأوحد لحيوية الأمة وبقائها بعلمائها ووزرائها ورجال دولتها ورعيتها، إلا روح "الدَّوْشِرْمَة"[1].. تلك الروح المنحوسة حين أقامت المُراءاةَ مقام المروءة،

---

[1] وهي الممارسة التي بموجبها كانت الدولة العثمانية تجنّد أولادًا من عائلات مسيحية، يتم تحويلهم بعد ذلك إلى الإسلام ويدرّبون كجنود إنكشارية. تنبع هذه الممارسة من الرغبة بإنشاء طبقة عليا من المحاربين تكون موالية للسلطان. سار هذا التقليد قرونًا طويلة دون أي إشكال، لكنه في القرون الأخيرة أصبح إشكالاً كبيرًا وسبّب للدولة العثمانية كوارث جسيمة. يستخدم فضيلة الأستاذ عبارة "روح الدوشرمة" للإشارة إلى حالة الابتعاد عن الجذور الثقافية الأصيلة، والسعي وراء كل ما هو محدث ولو ناقض ثقافتنا، واستيراد كل ما هو أجنبي دون طلب تأشيرة، وإقامة الزائف الدخيل مكان الحقيقي الأصيل. (المترجم)

والغدرَ محلّ الشجاعة، والقوةَ الغاشمة بديلاً عن الفكر الروحي، والشعوذة موضع الكرامة، والإلحاد والشك مكان الإيمان واليقين، طعنت الأمة في قلبها. وغدت الحشود التي وجدت نفسها في فراغ مظلم، فريسةً لتشاؤم مخيف، ويأس قاتل، وشلل تام. وأضحت الروح في ذلك المجتمع مهيضة الجناح، وبات الوجدان مقفرًا من اللذائذ اللدنية، والقلب مسرحًا لآلاف النزوات النكدة التي تلهث وراء مآرب دنيئة.

في مشهد للحياة رديء متخلف كهذا، نظرت الحشود التي نشأت ونمت في أحضان الخمول والجهل والفوضى محرومة من العشق والتوقد والحماس.. فلم تجد أمامها سوى مجموعة من فناني الحناجر يرفعون عقائرهم بالكلمات القدسية المباركة، لكن بأنفاس لا أثر للروح فيها ولا الربانية مطلقًا، يبتغون من وراء ذلك تجارة دنيوية محضة، فانخدعت بنغماتهم، وحسبتها انتصارًا عظيمًا للمُثُل التي تبنّتها والرؤى التي تعلقت بها، فهبّت فرحة مبتهجة تهلل بأسمائهم دون فتور، وتبجّل أفعالهم دون انقطاع، مواصلة سُباتَها العميق.

آه لهؤلاء المشعوذين المحتالين! وَوَا أسفًا على تلك الحشود المسكينة المضلَّلَة المظلومة!

كل ذلك قد وقع، ولم يكن بد من وقوعه، لأن المجتمع عندما شعر بضرورة تجديد ذاته، وهمّ بأن يشرع في ذلك، لم يجد أمامه نورًا يهتدي به، ولا مفكرين يأخذون بيده ويبصّرونه بالطريق. كان الغرب حينئذ يجدد ذاته جملة وتفصيلاً، وكان "ديكارت" -رمزُ الفكر الفلسفي الغربي آنذاك- لا يسمي الفكر فكرًا ما لم يكن حرًّا، في حين طُوِيت صفحة التفكر عندنا ووضعت جانبًا منذ زمن بعيد.

وبينما كان المفكر الغربي -في تلك الفترة- يغوص في أعماق الأشياء والحوادث، ويحلّق في كتاب الكون بعشق وشوق منقبًا عن المسالك الهادية إلى الخالق العظيم؛ كنا أمة نمرح في أحضان "عهد اللّالاه"[1] غافلين لاهين، بل متباهين بتفشّي ألف رذيلة ورذيلة على أنها ثورة حقيقية كبرى. وبينما كان الجزء الآخر من العالم يمرر الآيات الكونية من موشور الفكر، وينطلق لفتح الأكوان كافة؛ كان المشهد عندنا مزريًا مأساويًّا، حيث تحوّل الانحطاط النفسي والتصحر الروحي إلى دوامة مرعبة تتحدى جميع قيمنا الحيوية وتهددها بالانقراض.

أما إنساننا المسكين، فقد كان في مأزق يستدعي الإشفاق عليه حقًّا. كيف لا، وخصومه قد استفاقوا من رقدتهم وانقضّوا عليه كالغيلان، وخِلّانُه قد غرقوا في لهو ولعب يحاكي أساطير ألف ليلة ولية. ومن ثم كان في هذا المناخ القاتم، يبتعد عن ذاته شيئًا فشيئًا كل يوم، ويدفن قيمه الروحية واحدة تلو أخرى في مقبرة الماضي مُهيلاً عليها التراب، يدمّر ضمانَه الوحيد لبقائه في هذه الحياة.

عند حلول تلك الكوارث، لم يكن ثمة أحد من أبطالنا الذين عرفناهم بانتصاراتهم الروحية.. أولئك الذين كانوا يترصدون أدنى مشاعر الكبر

---

[1] وهي الفترة من ١٧١٨ إلى ١٧٣٠ من الدولة العثمانية، كانت فيها زهرة اللاله أو التوليب أو الخزامى رمز الفترة، حيث ساد السلام بعد توقيع معاهدة مع الإمبراطورية النمساوية، ما أتاح المجال لإيلاء مزيد من الاهتمام بالفنون، وازدهرت زراعة أزهار التوليب بشكل كبير في إسطنبول، وساد في المدينة الإسراف واللهو والمجون، وانتهت الفترة بثورة الإنكشاريين حيث خلعوا السلطان أحمد الثالث، ونصبوا السلطان محمود الأول مكانه. (المترجم)

والعجب إذا استثارتها في أرواحهم إنجازات كبرى وانتصارات باهرة جعلت مقاليد العالم في أيديهم، فيتصدّون لها، ويدفنونها في ضفة الأناضول داخلين عاصمة الدولة بتواضع منقطع النظير[١]؛ ولا أولئك الذين يأخذون بتلابيب أنفسهم عقب انتصار عظيم، ينهرونها بشدة، ويفترشون الأرض بدهليز مظلم يقضون ليلتهم فيه[٢]؛ ولا أولئك الذين يذوبون خجلاً ويتصببون عرقًا إزاء تهليل الشعب بأسمائهم وتمجيده لانتصاراتهم؛ بل كان بدلاً عنهم أفراد من المرتزقة ذوي حسابات آنية مؤقتة، وأرواح مراهِقة وقعت في أسر رغباتها الدنيئة، وقلوب ضعيفة لم تذق في حياتها متعة العيش من أجل الآخرين قط.

إن الأجيال التي ما فتئت تبحث عن ذاتها منذ ذلك اليوم، خُدعت المرة تلو الأخرى، وضُلّلت مرات ومرات. لم يبق أذى إلا ذاقته، ولا مرارة إلا تجرعتها. ولو لم تمتد يد العناية تنجدها وتدلها على طريق الانبعاث في البعد الروحي والبعد الإيماني والأخلاقي، لضاعت ضياعًا مؤكدًا، وكانت اليوم أثرًا بعد عين. أجل، لضاعت بدولتها، ومؤسساتها التربوية، ومنظومتها الأخلاقية والحقوقية، ورؤيتها العلمية والفنية.

فالمهمة الكبرى اليوم، أن نساعدها على أن تعي ذاتها وتتوحد مع روحها، وننقذها من أسر المادة، ونشحن قلبها بالمثُل العليا والغايات السامية. آه، ليتنا تمكنا من القيام بهذه المهمة السامية دون خلل أو نقصان!

---

[١] إشارة إلى السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠). (المترجم)

[٢] المقصود السلطان سليمان القانوني الذي حكم الدولة العثمانية من ١٥٢٠ إلى ١٥٦٦، وهو أطول مَن حكم الدولة العثمانية. (المترجم)

العذاب المقدّس[1]

(يونيو ١٩٨٣)

الإنسان مغترب رحّال، هبط إلى الدنيا في "رحلة" شاقة عبر "طريق" طويل ممتد؛ محفوف بالمخاطر والويلات، عصيّ المسالك والدروب، تعترضه جبال شاهقة ووديان سحيقة. كل ذلك ليكتشف ذاته ويعرف حقيقته وجوهره.

في هذا "الطريق" الطويل الذي لا يدري عنه شيئًا، يتصدى للمخاطر، ويواجه التحديات، ويصارع الأهوال، ويتخطى السدود والعقبات من أجل الوصول إلى تلك "الغاية". بيد أن "رحلة" كهذه، لا تُقدَّر إلا مرة واحدة في الحياة لبني الإنسان، وما من سبيل لمن طلب "الخلود" سوى هذه "الرحلة" الوحيدة.

وهي ليست خاصة بالإنسان فقط، بل قدر كل كائن حي منذ اللحظة الأولى التي يخرج فيها إلى الوجود. أجل، يُصَبُّ كل كائن في قالب ويُفرَغ في آخر، ويتنقل من صورة إلى أخرى دون أن يتوقف لحظة واحدة حتى يصل إلى الصورة التي تليق بجوهره

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٥٤، (مايو - يونيو) ٢٠١٦م. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٥٣ (يونيو ١٩٨٣)، تحت عنوان: (Mukaddes Azap). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

وتوافق مكنونه وتعبر عن حقيقته، بل وربما يتحول إلى كيان آخر. وطيلة هذه الرحلة يقاسي من الآلام ألوانًا ومن المكابدات أصنافًا، ويموت ويحيا في اللحظة الواحدة مرات عديدة.

لا تتبخر المياه ولا تتصفّى ما لم تُمتحَن بلفحات حرّى، ولا تُنبِتُ الحَبّةُ سنابلَ تنبض بالحياة ما لم تتآكل تحت التراب، وتتقلّص ثم تنفلق، ولا تَشِفّ مياه الأنهار وتَعذُب وتترقرق حتى تصير نِدًّا للقطرات في عيون السحاب ما لم تتدفق صاخبة هدّارة، ترتطم بهذه الصخور مرة، أو بتلك أخرى.

كذلك الربيع لا يأتي قبل حلول الشتاء بصقيعه وثلوجه.. ولو أتى فهل سيُعرَف قدْرُه؟ الذهب مدين في قيمته وبريقه إلى البوتقة التي صُهر فيها، والفولاذ مدين في صلابته ومتانته إلى الإناء الذي أُذيب به.

وكذا التربة المتحجرة لن تنتفض من رقادها ما لم تُرعِد السماءُ فوقها وتُبرق. فإذا اهتزّت وربَتْ ودبّت فيها الحياة، ارتقت إلى مقام الأم الحاضنة لآلاف الزهور والورود.

تؤوي الظلمات في أحشائها الأنوار وإن كان في ذلك حتفُها، ويحرّك الشتاءُ مكّوكه دومًا لصالح الربيع. لذلك يَعقُب كلَّ شتاءٍ ربيعٌ، ويتلو كلَّ ليلٍ نهارٌ. فبعد كل موتٍ حياةٌ، وبعد كل معاناةٍ سعادةٌ وهناء.

إن الفرد لا يبلغ "الخلود الروحي" إلا حين يتقلب بين أهوال الموت والحياة خمسين ألف مرة طيلة سِني عمره، وإلا حين يتخلص من الضغوط المظلمة المضلِّلة الخادعة لد"أنا". وكذا الجماعة لا تنضج ولا تكتمل ولا تبلغ أفق "الخلود" إلا بالمعاناة ومقارعة المحن ومصارعة الأهوال.

يا لَسعْد مَن تجرع العلقم وواجه المنايا مرة بعد مرة بغية الوصول إلى "الوجود الأبدي".. ويا لَطيب من اعتبر كل هِزّة تحذيرًا أَفاقَه فاستعاد وعيَه.. وما أعظمها من بطولة تلك التي حافظ فيها على بريق أمله وسط ألف ظلمة ومحنة، فسار قُدُمًا نحو المستقبل يضمه إلى صدره!

إن السعداء الذين يعيشون حياتهم بإيمان ووعي، يتجاوزون "ديار المحنة" هذه وبحارها الغاصّةَ بالقيح والدماء مرفرفين بأجنحة آمالهم المحلِّقة، مستنيرين بضوء أفكارهم المشرقة. أولئك يعلمون أنهم إنما جاؤوا إلى هذه الدار الفانية للنقاء والصفاء.. يعلمون أن جلودهم قد تُسلَخ في هذه السبيل، وأبدانَهم قد تُعلَّق على أعواد المشانق. القهر واللطف عندهم سِيّان، والدواء في قلب الداء. هم ينظرون إلى ما يُلمّ بهم بنشوة وإعجاب، لا يرتبكون مطلقًا. كل مصيبة جديدة ريشةٌ تلامس أوتار قلوبهم، تثير فيها نغمًا شجيًّا، وتُلهب فيها أشواقًا دفينة، وتزيدها توقّدًا وحماسًا.

الأعاصير التي تهز قمم الجبال الشاهقة هي عين الهموم التي تضطرب في رؤوسهم. بل إن حياة خالية من الهمّ والمعاناة عذابٌ لا يطاق في نظرهم، بل هو الموت بعينه، ولا سيما إذا كانت أمتهم مثقلةً بالجراح، والقيمُ الروحية تتعرض لضربات مدمرة باستمرار.

إن عباد الحق الأرفعَ شأنًا ﷺ لم يَسْلَموا من "بلاء الهمّ" ولو للحظة. وكذلك الهداة الأخيار الذين قادوا أممهم وأخرجوها من الظلمات إلى النور. فها هو أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه؛ ذاك الذي خلّد اسمَه بين العلماء المرشدين على مستوى التاريخ البشري.. ذاك الذي لا تزال اجتهاداته الفريدة وأفكاره الفذة تحافظ على جدتها

وطراوتها.. أُهين بوقاحة وألقي في غَيابة السجون، وتقلب بين معاناة وأخرى. وها هو الإمام أحمد بن حنبل ﷺ قد عومل معاملة المجرمين، وتعرض لأسوأ أنواع التعذيب سنين طويلة. وها هو الإمام السَّرَخْسي الذي أُودع في قاع البئر مسجونًا حتى اضطر لتأليف موسوعته الفقهية الضخمة (المبسوط) في قلب ذاك القاع، وآخرون وآخرون.

تلك "الأرواح الناضجة"، كان كل عذاب تتعرض له يعصرها عصرًا، يَسمو بهاماتها إلى ما فوق السماوات، يحوّل قلوبها المتلألئة بالأنوار إلى مصدر إشعاع أبدي يضيء سبل انبعاث أممهم. فـ"كامبانيلا" في سجنه، و"سرفانتس" في أسره، و"دوستويفسكي" في قيوده.. أجل، كل هؤلاء اكتشفوا ذواتهم وتربعوا على عرش الخلود في قلوب شعوبهم هناك.

على كل من يرغب في أن يكون حمّالاً لفكرة "خدمة الإنسانية" أن يعلم أن مهمته مقدَّسة، وسفره طويل، ومسالكه عصيّة.. وأنه إذا سار في هذا الدرب، فسوف تعترضه ألوان شتى من المصائب والأهوال، ويُباغته الموت بوجهه الكالح في كل منعطف، وتصفعه الألسنة بأبشع الشتائم كأنه مجرم شقي، بل ويُحرَم من أدنى حقوق المعيشة الإنسانية في كثير من الأحيان. أجل، ينبغي أن يعلم ذلك ثم يحسِم أمره في خوض هذا الطريق؛ وإلا توشك بعض النفوس الضعيفة التي لم تُقلَّب على نار المعاناة أن تَنقُض عهدها، فتغير طريقها أو وجهتها جراء إشكال تافه أو حرمان بسيط.

آه أيتها الروح المسكينة! تريدين أن ينزل المطر دون أن تُرعد السماء؟ وأن تخضرّ الديار بلون زُمرُّديٍّ خلاّب دون أن تتآكل نواة

واحدة أو تُهدَر حبة واحدة؟ وأن تلد الأمهات دون تألم أو صراخ أو أنين؟ أم تريدين لهذا الكون الممتد الفسيح وهذا النظام الهندسي الحكيم أن يتحرك وفق عبقريتكِ الهندسية؟

كلا، كلا.. إنكِ لم تأت إلى هذه الدنيا للمتعة واللهو والسعي وراء أهوائك ورغباتك؛ بل سوف تُصهَرين في بوتقة بعد أخرى، وتُعرَضين على النار مرة بعد مرة، وتَذوقين الويلات والأهوال ليل نهار، وتتعرضين لأشد أنواع المحن سنين وسنين، لكي تتفتّقَ مواهبُك الإنسانية وترقى، وتتبرعم المكارم السامية الكامنة في ماهيتك وتتفتح بالجمال، ويتنور قلبُك فيصبح مرآة صقيلة تعكس آثار الحق ﷻ بجلاء.

نعم، هذا هو الطريق، وتلك هي سُنّته.. وما عدا ذلك ضرب من خيالٍ واتباعٌ للهوى. ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران:١٣٩).

أيّ نفَس هذا الذي يبعث الحياة في القلوب؟!

انتصار الروح[1]

(يوليو ١٩٨٣)

يمثل الإنسانُ في هذه الدنيا قوتين مختلفتين عن بعضهما: الروح والجسد. وهما وإن اجتمعتا -حينا- لتشكّلا كيانًا واحدا متكاملاً، إلا أنهما متناقضتان في كثير من الأحيان؛ وإذا ما انتصرت إحداهما، فذلك يعني أن الأخرى مهزومة.

إن الروح في جسم استعرت فيه الرغبات وتأججت الأهواء، ضعيفة هزيلة، تأبى الانعتاق من رِقّ المتعة والهوى. أما إذا انتفضت على شهوات النفس ونوازعها، وفرضت سلطانَها على الجسد، وصار القلب سيدا على العقل، فإنها تتخطى ألف متاهة ومتاهة بقفزة واحدة وتبلغ "أفق الخلود".

لا فرق بين المقابر وبين بلد انهار في ميدان الروح، حتى لو زُيّن كل ركن من أركانه بمئات من أقواس النصر. إن عالمًا لم يرتفع بنيانُه على أنفاس انتصارات الروح، ألعوبة في يد القوة الطاغية والجبروت الغاشم. وإن ثقافة لم تنمُ ولم تزدهر في البيئة الفاضلة للروح، ساحرة

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٤٩، (يوليو - أغسطس) ٢٠١٥. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٥٤ (يوليو ١٩٨٣)، تحت عنوان: (Ruhun Zaferi). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

شريرة تقطع الطريق المؤدية إلى الأفق الإنساني. إن حشودا بشرية تعيش في بلد هذا شأنه، أشقياء بؤساء عُمي، لا يكادون يخرجون من أزمة حتى يقعوا في أزمة أخرى أشدّ بؤسًا وشقاء. ولكن هيهات لنفوس أنانية لا تفكر إلا في متعتها الذاتية، وعجزت عن ربط حياتها بقيمة "إسعاد الآخرين" أن تدرك هذا المصير الكالح الأليم.

آه... لو أفلح هؤلاء البؤساء -ولو مرة واحدة- أن يَفنوا أنانيةً، فيعرفوا سر التحليق نحو الخلود في "أفق الروح".

إن الأبطال الذين ربطوا قلوبهم بأعظم الغايات وعمّروها بحب الإنسانية، قد ضبطوا ميزان طاقة القلب، وشحذوا عواطفهم للتحليق نحو أسمى الآفاق، وبلغوا الخلود في قرارة ذواتهم. هؤلاء السعداء الذين تخلصوا من العيش الحيواني بقفزة واحدة وتجاوزوا شهواتهم الجسدية، قد مكّنوا أرواحهم من التحليق، وقلوبهم من الرفرفة والتسامي، وحققوا انتصارات متعاقبة للروح في أبعادها الإنسانية رغم أنف النفس ونوازعها.

إن القويّ والمنتصر الحق، من قَوي على نفسه وهزمها، أما الأرواح الشقية التي لم تتخلص من أسر النفس ورغباتها القاتلة، فهي مهزومة حتى لو فَتحت العوالم كافة. فلو دانت لمثل هؤلاء الأرضُ كلها، من أولها إلى آخرها، محال أن يُسمَّى ذلك فتحًا؛ بل إن بقاءهم في تلك الديار لمدة طويلة، مستحيل.

عندما صفع "نابليون" العِلمَ والفضيلة في شخص الفيلسوف "فولني" مشدوها بجنون العظمة، ظنًّا منه أنه بات ملك العالم الأوحد، ليت شعري هل أدرك أن هذه الهزيمة في ميدان الروح، هي

أشد مرارة وأعظم خزيًا له من الهزيمة التي مُني بها في "واترلو"؟[١]

وإن "مرزيفونلي مصطفى باشا"[٢] قد مُنِيَ بالهزيمة في نفسه أولاً قبل أن يتعرض لها جيشُه في "فيينا" بكثير. تلك الهزيمة الأولى في تاريخنا -والتي بدأت في روح القائد ثم شاعت في الآفاق- لم تُطِح برأسه فحسب، بل علّمت أكثر الجيوش عظمة وشجاعة في العالم -يومئذ- ما لم يكن يعلمه حتى ذلك اليوم... علّمته الفرار. وكذلك قلب الأسد "يلديريم بيازيد خان"، لم ينهزم في "شوبوك"[٣] أصلاً، بل انهزم حين استهان بغريمه وحسب نفسه سلطان العالم الأوحد... وآخرون وآخرون.

بالمقابل، لم يكن "طارق"[٤] منتصرًا حقيقيًّا حينما انطلق بحفنة

---

[١] معركة واترلو: معركة فاصلة في ١٨ يونيو ١٨١٥ في قرية واترلو قرب بروكسل عاصمة بلجيكا. وهي آخر معارك نابليون بونابرت، حيث هزم فيها هزيمة نكراء. وتعتبر هزيمة واترلو، الفصل الختامي لإمبراطورية نابليون الذي عاد إلى باريس وتنازل عن العرش وتم نفيه إلى جزيرة سانت هيلينه. (المترجم)

[٢] وهو الصدر الأعظم العثماني الذي قاد الجيش العثماني في محاصرة فيينا الثانية عام ١٦٨٣، حيث انهزم الجيش العثماني هزيمة مريرة حكم بعدها على الصدر الأعظم بالإعدام. وجاءت الهزائم في العقود المقبلة متتابعة، وبدأت أراضي الدولة العثمانية تنحسر في أوربا شيئًا فشيئًا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤-١٩١٨. (المترجم)

[٣] معركة شوبوك أو معركة أنقرة كما اشتهرت في التاريخ العثماني، وقعت في عام ١٤٠٢ بين الدولة العثمانية بقيادة السلطان يلديريم بيازيد، والدولة التيمورية تحت قيادة تيمور لنك، وانهزم فيها الجيش العثماني، ووقع بيازيد أسيرًا في يد تيمور لنك، حيث توفي بعد ثمانية أشهر في الأسر. وعاشت الدولة العثمانية بعد تلك الهزيمة حالة من الفوضى والتراجع مدة طويلة، إلى أن جاء السلطان محمد الأول فأعاد بناء الدولة من جديد. (المترجم)

[٤] وهو القائد المسلم المشهور طارق بن زياد، الذي قاد الفتح الإسلامي للأندلس عام ٧١١م. (المترجم)

من أبطاله البواسل متجاوزًا برج هرقل، ثم متغلبًا على تسعين ألف جندي من جنود الإسبان. بل عندما وقف إزاء كنوز الملِك وخزائنه في "طليطلة" هاتفًا: "يا طارق، بالأمس كنتَ عبدًا، فصرتَ اليوم قائدا مظفرا، وغدًا تكون تحت التراب". أجل، في تلك اللحظة كان منتصرا حقا.. لما زأر في نفسه بهذا الزئير، وحلق بروحه هذا التحليق.

كذلك السلطان "يافوز سليم"، ذاك الذي كان يرى الأرض ضيقة على مَلِكين، لم يكن فاتحًا حقًّا عندما كان يهز أرجاء الأرض بجيشه العرمرم، فينزع تيجان ملوك من على رؤوسها ويضعها على أخرى، بل كان فاتحًا حقًّا؛ عندما عاد من نصر "الريدانية"[1] يحمل وسام سلطان العالم الإسلامي الأوحد، حتى إذا وصل أبواب إسطنبول، وعلم أن الرعية قد استعدت لاستقباله مصفّقة مهللة مكبّرة، أبى أن يدخلها حتى لا يرى هذا الاستقبال الفخم، وانتظر حتى جاء الليل ونام الناس، ثم دخل العاصمة بصمت وهدوء. بل كان قائدًا مظفرًا حقًّا؛ حين تلطّخت -أستغفر الله، بل تعطّرت- عباءته بوحل تناثر من حوافر دابة شيخه، فأوصى بأن تكون تلك العباءة غطاء لنعشه بعد موته.

وكذلك القائد الروماني "كاتون"، لم يكن منتصرًا حقيقيًّا عندما هزم جيوش قرطاج، بل كان منتصرًا حقًّا وفاتحًا تربع على عرش القلوب، حين قال بعد أن ردّ ملابس القيادة وأوسمتها وجيشُه يدخل العاصمة وسط هتافات النصر المدوية: "لقد حاربتُ خدمةً لأمتي، وقد قمت بواجبي، والآن أعود إلى قريتي".

---

[1] معركة الريدانية كانت في عام ١٥١٧ بين الدولة العثمانية بقيادة السلطان سليم الأول (يافوز سليم) ودولة المماليك بمصر. (المترجم)

إن الجذور مهمة للأشجار في نموّها وامتدادها، وكذلك التضحية للإنسان، تضحيته المادية والمعنوية. فالأشجار تنمو وتمتد بقدر قوة جذورها، كذلك الإنسان ينمو ويمتد ويسمو حتى تلامس هامتُه أطراف السحاب بقدر تجرده من مصلحته الشخصية، وانسلاخه من حب الذات والأنانية، وإيقافه لنفسه من أجل الآخرين.

"لم أذق لذة من لذائذ الدنيا طوال حياتي التي تجاوزت الثمانين، لقد مضى عمري كله في ساحات الحروب وسجون الأسر وفي ميادين شتى من الآلام والمعاناة، لم يبق أذى إلا ذقته، ولا مرارة إلا تجرعتها. لا حبّ للجنة في قلبي ولا خوف من النار. لو أرى إيمان أمتي قد بلغ بر الأمان، فإنني أرضى أن أحرق في لهيب النيران. نعم، جسدي سيحترق ربما، لكن قلبي سيكون روضة من رياض الجنان" (بديع الزمان سعيد النورسي).

ما أعظمه من نشيد قدسي يبشر بانتصارات الروح!..

مكابدة الفكر[1]

(أغسطس ١٩٨٤)

إن الجميع يفتش اليوم عن وصْفات ناجعة وخُطط فاعلة تقوم عليها المعمورةُ في المستقبل. ونحن -بدورنا- سنضرب بريشتنا على أوتار قلوبنا مرة أخرى لنبعث بأنّاتنا المثقَلة بالهموم، المؤرَّقة بالآلام، منبّهين إلى ضرورة "مكابدة الفكر". لا أدري هل سيكون لهذا التنبيه تأثير في قلوب خالية من الهمّ، أو رؤوس لم تُعانِ صداع الفكر وضرباته المتوالية قط، أو نفوس ألِفت الراحة واستكانت إلى الاسترخاء؟!

إن سعادة إنساننا الحقيقية، لن تتأتّى إلا إذا سلّم نفسه إلى رؤى مشرقة وأفكار نيّرة انبثقت من "قلوب متصدّعة" نضجت بنار الفكر ومكابداته. قلوب مكابدة صافية تحتوي الكون كله، تُندّفه في أعماقها صباح مساء، تحلله خيطًا خيطًا، وتمرره عبر زخارف متنوعة ونقوش شتى تُطرّز منه حُللاً بديعة الألوان، وتقدّمَه -بعد ذلك- للأنظار المشُوقة في معرض جميل أخّاذ.

قلوبٌ تشدّ الرّحال -مثل النحل- إلى أرجاء الأرض كلها،

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٤٥، (نوفمبر - ديسمبر) ٢٠١٤. ونشر في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٦٧ (أغسطس ١٩٨٤)، تحت عنوان: (Fikir Çilesi). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

تقيم عروشًا على أوراق الأزهار التي تلتقيها، تهمس في آذانها بسرّ التحول إلى عسل خالص. وهي في مهمتها تلك تحبو على الأرض حينًا، وتحلّق في الأعالي حينًا آخر، يرافقها ألم عميق لا يَبرح صدرها، وصداع شديد يهز رأسها.. تَمضي أسابيعُ لا تذوق فيها طعم النوم، وشهورٌ لا تعرف فيها معنى الراحة، وأعوام لا تجد فيها فرصة للاسترخاء.. وهكذا تذهب أيامُ العمر وسِنُو الحياة بسرعة الريح واحدة تلو الأخرى، لا تنتبه إليها لاستغراقها في مهمتها.

فهي دائمًا -على نهج جلال الدين الرومي- مثل "الفرجار"؛ جزءٌ منها مع "الخلق"، وآخر مع "الحق" سبحانه. تمتلئ بالدهشة إزاء آثار الخالق وبدائعه التي يفرشها أمامنا كل حين، وتفيض بالانبهار مرة بعد أخرى، وتخرّ بين يديه سبحانه ساجدة خاشعة.. ثم تعود إلى "الخلق" بهذه المعاني الروحية السامية التي ذاقت حلاوتها وظلّت تنهل منها حتى ارتوت، لتحلّق مشحونة بشعور عميق بالمسؤولية.

إننا بفضل جيش القدسيّين هؤلاء حين يحرّكون "مكّوك الفكر" في اليوم بين الأرض والسماء مرارًا، يضيفون إلى أطلس قلوبهم في كل مرة ألوانًا قشيبة وأبعادًا جديدة.. بفضل هؤلاء نطهّر عقولَنا من الأفكار العفِنة التي عشعشت فيها، وننقّي قلوبنا من الطحالب التي غشيتها ونتذكر "إنسانيتنا" من جديد.

إن سعداء "حضرة الحق" هؤلاء، نوافذهم وأبوابهم مشرَعة على مصاريعها إزاء آفاق الغيب اللانهائية متفاعلين معها.. يُصغُون إلى الطير في تغريده، ويئنّون مع الشجر في تسبيحه، ويناجون النجوم في صفحة السماء، ويتبادلون الهموم مع البحار، وينصتون إلى

النسائم في هبوبها، والأمطار في تهاطل قطراتها، والطيور في رفرفة أجنحتها، والأشجار في تساقط أوراقها.. فيجدونها تحمل إليهم رسائل من الحق ﷻ، فيسرعون إلى مناجاته بلسان قلوبهم، ويهتفون بملء فيهم: "هذا هو الطريق"، ويركضون فيه ركض جواد أصيل جرى مع فارسه المقدام حتى انبهرت أنفاسُه.

أولئك الذين بلغوا منزلة "السعداء" لدى "الحق" ﷻ، حمّالون لدى "الخلق" يتطوعون لحمل الهموم عنهم، أطبّاءُ رحماء يعيشون آلام الأمة في قرارة نفوسهم، ورموز للتسليم إلى الله سبحانه.. رموز اكتشفوا اللذةَ في الألم، والسعادةَ في المكابدة.

أجل، إن كل شيء في هذا الكون الفسيح الذي يعجز العقل عن تصور بدايته ونهايته، من وميض البرق إلى هزيم الرعد، ومن لألاء الشمس بأبهى الألوان إلى رقة النسيم ونعومته، يلفّ أفكارَهم بأذرعه النورانية المشرقة، فيغدو الربيعُ بأزهاره العطرة، والصيفُ بفواكهه اليانعة "موائدَ فكرية" بين أيديهم. فيرون فيما تأمّلوه فأدركوا حقيقته، وفيما ذاقوه فعرفوا جوهره آثارًا وملامح من "سلطان الجمال"، ويرتعشون بهمسات منه سبحانه. في أفق فكرهم الذي استحال عرفانًا بالله محضًا، يشدو النظام السائد في كل مكان بلسانه الخاص أعذبَ المعاني، وتتعانق الأشعة مع شتى الألوان، وتحوم الروح حول هذا الفضل حوم الفراش حول النور. ويأتي حينٌ تغدو فيه النجومُ ذراتِ غبار تحت أقدامهم، ويصبح الغبار الذي تحت أقدامهم ذراتِ سُدُم نجمية[1].

[1] سُدُم جمْع سَديم وهي تجمّعات وسُحب فضائية تتكون من تكاثف ذرات الغاز والغبار في الفضاء وتستمد ضوءها من النجوم القريبة منها. (المترجم)

بفضل الجِنان التي أقاموها في قلوبهم المصطبِغة بالخلود، لا تخمُد جذوة حماسهم ولا تنطفئ شعلة شوقهم، ولا يتراجعون عن الدرب جرّاء ما يَلقون فيه من عناء. يشرقون علينا مع طلوع الشمس في كل صباح بأمل نديّ وشوق جديد، يُهدون قلوبنا معاني نادرة من عوالم الماوراء.

تترقب البشرية اليوم درب قافلة هؤلاء السعداء.. هؤلاء الذين أدركوا الحياة بكل جمالها.. وتمكنّوا من صياغة "حقيقة" ظلّوا يرعونها في أرواحهم بصبر كصبر المرجان، وهدوء كهدوئه حتى اختمرت.. وانطلقوا متّقدين شوقًا وحماسة لتلقيح بقاع الأرض كلها بهذه "الحقيقة".

لا يقع هؤلاء الأخيار، في مسيرتهم السامية تلك أسرى المقامات والمناصب، ولا يسقطون في هوة الشهرة والمجد، بل يبقون رمزًا للصدق والأمانة والشعور بالمسؤولية والفكر القويم والعفة والاستغناء. لا يترددون في محاسبة النفس لدى أي تقصير تحسّرا وندما، أما إذا كان الأمر متعلقًا بأخطاء الآخرين، فإنهم يوسّعون دائرة المسامحة ويستخدمون حق العفو الممنوح لهم من الباري ﷻ إلى أبعد مدى.

هؤلاء حُماة القضية لا الثروة، وحرّاسُ المبدأ لا المال، يُعلون الحقيقة فوق المنفعة، ويؤثرون التواضع على التباهي الأجوف، يرجّحون الرفق والحِلم والأناة على الشدة والغلظة والجفاء، ويوظّفون طاقاتهم كلها للارتقاء إلى الحياة الحقيقية في ذوات أنفسهم أولاً، ثم على صعيد البشرية ثانيًا، فيَكمُلون ويكمِّلون. لا

يتركون في أرواحهم مجالاً لكذب أو خداع، ويفرّون من الأنانية والكبر فرارَهم من العقارب والأفاعي.

وإذ يسير هؤلاء الأطهار نحو غاياتهم السامية ورؤاهم المعقولة مرفوعي الهامات منتصبي القامات، يعدّون كل مانع يعترض طريقَهم أو عقبة تقف قُبالتهم؛ وسائلَ تشدّ من عضدهم، وأسبابًا تُحيلهم فولاذًا خالصًا. أولئك لن يسقطوا في مهاوي الإحباط، ولن يجد الانكسار إلى قلوبهم سبيلاً.

ويوم يَبلغون منزلاً يَفنَون فيه نفسًا وأنانية.. هناك.. وفي تلك اللحظة.. ومن ذلك المنزل ذاته ستنطلق هتافات أجيال الغد مهلِّلة بقدوم الربيع.

النفوس المكابدة[1]

(فبراير ١٩٨٥)

لِلَحْن الأنين رُمْ قلبًا ممزّعًا *** واملأ بِحَرِّ العويل كيانَه

إن الذين وهبوا قلوبهم للمبادئ السامية وتحمّلوا آلامها وأوجاعها، يقضون حياتهم كمِبخرة تضطرم فتنشر روائح زكية. تولد الشمس وتغرب، وتتتابع الأسابيع والأشهر، وتتوالى المواسم موسمًا إثر موسم، وهكذا يمضي الزمان... ويظل هؤلاء يبحثون في ضوء مبادئهم عن ربيعٍ آخر. يعيشون الخريفَ على الدوام، يسمعون أغانيه الحزينة، لكنهم لا يشكون من حالهم ولا من أحد، يتحملون كل ألم وعذاب في سبيل دعوتهم السامية التي أقسموا على نصرتها وساروا في دربها، لا يصيبهم سأم ولا ملل.

هذه الأرواح النيرة العاشقة لغايتها الجياشة بالبشائر تعلم مسبقًا أن هناك صعابًا جمة في طريقها، ووديانًا سحيقة عليها أن تتجاوزها، لذا أخذت هذا الأمر في حسبانها وتهيأت له، فلا تستطيع المشاكل المفاجئة، ولا المخاطر العديدة التي تقطع عليهم الطريق أن تحيرهم،

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٤٣، (يوليو - أغسطس) ٢٠١٤. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٧٣ (فبراير ١٩٨٥)، تحت عنوان: (Izdırapla Bütünleşen Ruhlar). الترجمة عن التركية: هيئة حراء للترجمة.

ولا أن تبعث الشكوك في نفوسهم حول دعوتهم. فهم على يقين بأن يومًا سيأتي يزول فيه كل خطر، وتنفتح فيه كل الطرق لتنقلب المستحيلات إلى ممكنات، فعزمهم لا يفتر، وأملهم لا يخبو. لذا لا ينجرفون إلى اليأس والقنوط أمام أكثر الحوادث بعثًا لليأس وأكثر الظروف قتامة وظلامًا، بل يتخطون العقبات بسرعة البرق ويتوجهون نحو أهدافهم مسرعين.

تراهم على أُهْبَة الاستعداد منتبهين لما يدور حولهم بكل دقة، لا سيما ما له علاقة بدنْيا أفكارهم، يمتزجون مع المجتمع الذي يعيشون فيه امتزاجًا قويًّا؛ إن رأوا فردًا قد انحرف عن الطريق السويّ، أو أسرة تكاد روابطها تنحلّ، أو قيمة روحية تدعم المجتمع قد تضررت، تطاير النوم من عيونهم أيامًا وتقلبوا على فراش الألم والأنين.

أكثر ما ينفرون منه اللامبالاة، فهم يحسون بمشاكل كل شرائح المجتمع وأوجاعه وكأنها خنجر مغروز في قلوبهم، ويَطْوُون صدورهم على آلام مجتمعهم. كم من ليالٍ مضت عليهم نبضت قلوبهم فيها بالآلام وكاد الصداع يَفتِك برؤوسهم، يعيشون وسط حشود من الناس في وحدة وغربة. تطوف الحسرات في أرجاء لياليهم طوال أعمارهم، لا يحس بها أحد غيرهم، أو على حد قول الشاعر "باقي":

لا يدري راصد النجم ولا حاسب الأوقات ضنى الليالي السود،
سَلِ المكروبَ ذا الهمّ عن طول الليالي...

يرتبط الإنسان بمبدأ ما بقدر إيمانه به ورسوخه في قلبه. وبقدر

ارتباطه يحس بالفرح مرة وبالعذاب والأسى مرة أخرى. وعلى هذا الأساس فهناك من ينفق على قضيته يومًا أو أسبوعًا.. شهرًا أو سنة بل سنوات، وهناك من يجعل من قضيته غاية حياته وأمنية عمره، فلو كان له من الرؤوس عدد ما في رأسه من الشعر، وطُلب منه في سبيل دعوته كل يوم منها رأسًا لقدّمه بلا تردد ولا امتنان. لقد كان سيد الرسل والأنبياء ﷺ ذروة في هذا الأمر حتى خاطبه الله تعالى قائلًا: •فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾(الكهف:٦).

كم من أفذاذ اقتفوا هذه "الفطرة السامقة" التي لا مثيل لها، قضوا حياتهم يتنفسون الآلام ويقاسون تباريح الفكر.. أجل، كان قيامهم وقعودهم أنينا وأوجاعا. إن شدة الآلام عند هؤلاء تتناسب طرديًّا مع درجة سمُوّهم وعظمتهم الروحية، فكلما قاسوا ارتفعوا، وكلما ارتفعوا قاسوا، حتى تطهّروا من كل ذنب وأصبحوا لغزًا من ألغاز السماء. أجل، ليس هناك ما يطهّر الإنسان وينقّيه ويَسْمُو به مثل المعاناة في سبيل الحق تعالى وفي سبيل صلاح الأمة. لقد ورد في الحديث الشريف: "إن من الذنوب ذنوبًا لا تكفّرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة، تكفّرها الهموم في طلب المعيشة" (كنز العمال). فما بالك بمعاناة في سبيل إنقاذ الأمة وإنقاذ المجتمع الذي نعيش فيه!

إن أشد ما نحتاج إليه اليوم ليس هذا أو ذاك، بل نحن في أمس الحاجة إلى من يقول: "إنني أرضى في سبيل سعادة أمتي المادية والمعنوية أن أُحرق في لهيب النيران"... إلى من يُفنِي نفسه في سبيل الحق تعالى والأمة ضاربًا عرض الحائط بمنافعه الذاتية ومصالحه

الشخصية... إلى من يتلوّى بآلام المجتمع ويتأوّه... إلى من يحمل في يده شعلة العِلم ليوقد في كل مكان أنوارًا تطارد الجهل والانحلال وتطردهما... إلى من يهرع بكل عزم وإيمان لمن ضاعوا بين شتى الطرق يمدّ لهم يد العون والمساعدة... إلى من يواظب على السعي في طريقه كجواد أصيل دون أن يشكو من الصعاب التي تعترض طريقه ودون أن يتأفف أو ييأس... إلى أبطالٍ نسوا أذواق العيش والحياة لأنفسهم وآثروا لذة خدمة الآخرين في عيشهم وحياتهم.

أيها الشاب[1]

(أبريل ١٩٨٥)

أيها الشاب! توقف هنيهة، عد إلى داخلك لحظة، أنصت إلى أنفاس قلبك ونسمات روحك، اشحذ همتك، وتهيأ لمحاسبة نفسك. انهض مع فجر الإيمان الذي بزغ في أعماقك، وامشِ في "درب النور" الذي انبثق في وجدانك واصلا إلى الله سبحانه. هذا الدرب الذهبي يمر من داخل الزمان والمكان ومن خارجهما معا. لن ترى المعنى الذي يغمر روحك، والهدف القدسي الذي يمَّمتَ نحوَه وجهك ساطعا بالأنوار إلا في هذا الدرب، فتُفتَن بجمال هذه الحقيقة الأبدية، تهيم بسحرها وتذوب في بهائها.

ابدأ في هذا الدرب باكتشاف "نفسك" أولا؛ ستشعر في كل خطوة بحقائق نسيتها وكأنك تتذكرها لأول مرة، وتغوص في عالمك الداخلي من عمق إلى آخر حتى تنتهي إلى بُعدٍ فسيح من السكينة والرضى تبتسم في كل نواحيه الألوانُ وتتلألأ الأنوارُ.

سترى في ضوء "شعلة الإيمان" المتقدة في قلبك أن كل جنبات

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٤٧، (مارس - أبريل) ٢٠١٥. ونشر لأول مرة في ملجة سيزنتي التركية، العدد ٧٥ (أبريل ١٩٨٥)، تحت عنوان: (Genç Adam). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

الزمان والمكان قد استضاءت بأمواج الأنوار الآتية من وراء الغيوب موجة موجة. وتسمو ثم تسمو بأجنحة الإيمان النورانية القوية حتى تتراءى لك النجوم النابضة والكواكب المستعرة والثقوب السوداء ورودا وبراعم تتفتح وتنطوي في قلب الكون، تراها، تحبها، وتنتشي بهجة وسرورا.

حينما تطل على "روحك" عبر نافذة "وجدانك" في بعض الأحيان، ستراها قد غدت نورا أبديا اخترق جُدران المادة وتجاوز حجب الزمان والمكان، وستشاهد أن كل شيء في الكون ينسكب من منبع أزلي، فيبلغ الانفعال والجيشان لديك ذروته. ستدرك أن كل بريق يسطع على الأشياء الشفيفة الصقيلة ويخبو، ما هو إلا لمعات تشع من عالم الغيب الأبدي؛ وفي خضم تلك المعاني المتلاطمة التي تغمر كيانك ستغيب عن نفسك نشوة. بيد أن كل منحةٍ ثمرةُ محنة، وكل نعمة يقابلها مشقة، وكل نجاح -مادي أو روحي- منوط بشيء من المعاناة والحرمان. لا عطاء بدون تعب ولا نعمة بلا نصب، لا نجاح دون التصبّر على شيء من البؤس والشدة والشقاء.

لذلك، على كل من اعتزم السير في هذا الطريق الشاق الممتع معا، أن يحدد الهدف الذي يريده أولا، ثم يضع خطته ويضبط ما ينبغي فعله لبلوغ ذلك الهدف، ينطلق على بركة الله وقد عقد نيته، وشحذ إيمانه، وثبّت عزيمته، وحسم قراره على ألا ينكص أو يتراجع مهما كان. أجل ينبغي أن يفعل ذلك حتى لا تضعف عزيمتُه في وديان سحيقة أو تخور قواه في مرتفعات شاهقة، أو يأخذه الدوار والحيرة فينحرف عن الوجهة، أو يصاب باليأس والإحباط إزاء بعض العقبات فيتوقف عن السير.

ثم إياك أن تسلك طريقا لم يُحَدَّد له هدف واضح، فالسير في طريق بلا هدف رفيع عبثٌ أولا، ومحفوف بالمخاطر ثانيا، لأن طريقا كهذا لن يوصل صاحبه إلى أي نتيجة مجدية، بل سيتعرض الأمل الذي يحمله في قلبه لشلل مريع مع الوقت، وتخبو شعلة الإيمان ووقدة العزيمة في النهاية ويصبح في خسران مبين.

عندما نشرع في قراءة كتاب ما نبدأ من فصوله التي يسهل علينا فهمُها ونقلّب الصفحات على مهل خطوة خطوة. كذلك سنفعل عندما نجتاز الجبال الشاهقة والوديان السحيقة، نقسّمها على مراحل، ونوزّعها على صفحات. وهكذا نتخطى أشد الطرق تمنُّعا على السير وأكثرَها شراسة على الاجتياز، لا يجد اليأس إلى قلوبنا سبيلا، ولا ننقطع عن المسير أبدًا.

بين أيدينا -اليوم- بناء فردي واجتماعي متهالك منذ قرون وقرون، قد نخره السوس من داخله، وأصابه البِلى من خارجه، وتآكل من جميع أطرافه. محال ترميم ذلك البناء بلمسة واحدة أو إحياؤه بنفخة واحدة ومنحه حيويته السابقة التي ترفعه إلى مقام يؤهله للتنافس مع أمم العالم، ولكن ليس محالا بعثُ الروح في أجزائه جزءا بعد آخر، حتى يغدو "الكل" في النهاية مستعدا للقيام بمهمته التي كان يقوم بها في السابق. سنأخذ بمبدأ "التدريج" فيما نقوم به ونفعله، نتقدم على روية، ونعمل على مراحل، ونتناغم مع طبيعة الأشياء في سيرها. إن هذا سيبعث في نفوسنا "الإيمان" بقدرتنا على إنجاز شيء ما، ويرفع من معنوياتنا، ويشحذ عزيمتنا على الإقدام والمثابرة. وفي الأخير، إذا بنا في يوم من الأيام، قد تجاوزنا تلك المفاوز المرعبة،

ووصلنا إلى نهاية الطريق، نتطلع في دهشة وانبهار متساءلين كيف حصل ذلك؟ ثم نخرّ بين يدي "الذات العلية" التي لم تزل تشعرنا بمعيتها وتغرقنا بعطاياها طوال الطريق، وقد امتلأت قلوبنا لها بالمنة والحمد والشكر.

أجل، لا يمكن تحقيق أي شيء بالشجاعة الطائشة والعواطف الجامحة. إن السعداء الذين يتصدون للشدائد وينازلون الصعاب، فيتغلبون عليها واحدة تلو الأخرى، ويثبتون للعالم مساندة المولى ﷻ لهم لقاء إرادتهم التي وفّوها حقها.. هؤلاء سيجدون أنفسهم وقد تَسنّموا الذُّرَى يوما، ويرون البذور التي نثروها قد أنبتت كلٌّ واحدة منها سبع سنابل حمّالة تتهادى بدلال وتتمايل بنشوة، فتفيض نفوسهم بهجة وتزدهر بسمات، ويتطلعون إلى مستقبلهم المشرق بسعادة ما بعدها سعادة.

روح الفتوّة[1]

(يوليو ١٩٨٦)

عندما نذكر "الفتوة" تتوارد إلى أذهاننا صور أبطال من الشباب مفعمين حيوية من مفرق رأسهم إلى أخمص قدميهم، أمثال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وألب أرسلان، ومحمد الفاتح، وأولو باطلي حسن[2]. ومهما تعدد مفهوم الفتوة عبر تاريخها، فإن أخص معانيها هو الخضوع أمام ربوبية "الواحد الأحد" لا غير، والتضحية بكافة أنواعها في سبيل المعاني الإيمانية وروح الدين والحياة القلبية، والصمود أمام جميع المعتقدات والمفاهيم والتصرفات الباطلة، والارتباط بالحق في كل زمان ومكان، والإفصاح عنه بكل قوة.

إن روح الفتوة بهذا المعنى، يَسمو أصحابُها بإراداتهم، ويُحكِمون السيطرة على أهوائهم، ويجددون محاسبة أنفسهم مرات كل يوم، يعيدون النظر في تصرفاتهم ويقبضون على زمامها، ينفضون الغبار

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٤٨، (مايو - يونيو) ٢٠١٥. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٩٠ (يوليو ١٩٨٦)، تحت عنوان: (Fütüvvet Ruhu). الترجمة عن التركية: هيئة حراء للترجمة.

(٢) وهو أول جندي رفع راية الفتح على أسوار القسطنطينية واستشهد بعدها. (المترجم)

عن أنفسهم ويحققون انبعاثا في عالمهم القلبي ويثبتون أنهم أحياء، يشحذون أرواحهم بأسمى المشاعر وأرقّ المعاني ويحلقون بها في عوالم وراء المنظور. تلك النفوس السامقة التي تجسدت فيهم معاني الفتوة بأفضل صورها، يمثلون الدماء النقية التي تتدفق في شرايين المجتمع الذي يعيشون فيه ويبعثون فيه النضرة والنماء.

وما دامت المجتمعات تملك أمثال هؤلاء الذين يمثلون عصارة الحياة وقوامها، فستبقى سعيدة. أما إذا فَقَدَتْهُم، فالسير محتوم في طريق الموت والفناء إذ صاروا كمن قُطِعتْ شرايينه وبدأ الدم ينزف منها قطرة قطرة.

إن روح الفتوة من أقوى ضمانات المجتمع وجودًا وبقاء، وإن الأبطال الذين يمثلون هذه الروح، كالرايات يرفرفون فوق حصونه، وكالعيون يسهرون على ثغوره، وكالآذان يرهفون الأسماع لكل أصوات العداء والخصومة وأنفاسها، يرون ويسمعون ويتهيأون لكل طارئ غير مترددين في اقتحام الأهوال وساحات الردى.

تتلاحق في أذهانهم أمواج الألم، وتهبّ على أرواحهم نسائم الحزن، وتتجزأ حياتهم -التي تتجاوز حركة عقارب الساعة- حسب هذه الأنسام، إلى أن تنعكس أنغامها المملوءة أسىً أو فرحًا من أوتار قلوبهم على مَن حولهم.

أجل! هؤلاء يعلنون عن كل فجر يلوح في آفاقهم بصوت جهوريّ وكأنه ابتهالات تضرع، وينشرونه حواليهم حتى يدندن العالم بأصواتهم. فإن أبصروا في جبهاتهم ثغرة أو خللاً، أو تراءت لهم أعلام آمالهم ترفرف حزنًا وأسىً، تأوّهوا ألمًا وكأنما في حلوقهم غصة.

إنّ تَفوُّق القوى العظمى في العُدّة والتكنولوجيا لا يقلقهم أو يدفع بهم إلى أتون اليأس والاستسلام. الشيء الوحيد الذي يقلقهم ويتلوّون منه ألمًا هو اضطراب جبهتهم أو بروز المشكلات في ثغورهم، أو ظهور سلوك سلبي أو غير حكيم في صفوفهم. أما إن كانت الصفوف متراصة متينة، والثغور حصينة أبيّة، والقلوب تنبض بنبض واحد، فهم مُوقنون بأنهم يستطيعون تجاوز كل الصعاب وتخطي كل العقبات.

هؤلاء الأبطال على أهبة الاستعداد دومًا لاقتحام خطوط النار من أجل المبادئ والمثل العليا، ومواجهة أخطر البلايا، والنضال ضد أشرس الأعداء، ليكملوا الأعمال التي بدأوها، ويحققوا الوعود التي قطعوها لأمتهم. وهم في اجتيازهم لطريقهم الصعب المحفوف بالمهالك هذا، لا ينشغلون بمدح الناس لهم وثناء الجماهير عليهم، ولا بالمخاطر التي تنتظرهم عند كل منعطف من منعطفات طريقهم. لا التصفيق يغريهم ولا النقد المجحف يثبّط هممهم؛ كالجياد الأصيلة يسعون إلى غايتهم السامية طيلة حياتهم، لا يفترون ولا يتوقفون ولا يستريحون.

إنهم إزاء أنفسهم ونواقصها منضبطون أيما انضباط، حازمون أيما حزم، أما إزاء أخطاء رفاق الدرب وعيوبهم فهم قمة في الصفح واللين. لا ينتقدون أحدًا أو ينتقصون من قدره، ولا يبالون بنقد جانَبَ الإنصاف والحقيقة، يعملون بصمت ودون أي مظاهر زائفة، يحرصون على ألا يثيروا غريزة الغيرة أو الحسد لدى الأصحاب والخصوم على حد سواء.

يندمجون في المجتمع الذي يعيشون فيه لينيروا طريقه ويرفعوه إلى المستوى الإنساني اللائق... يشاطرونه آلامه وأفراحه، ويبحثون دومًا عن طرق شتى لشحن قلبه بما في أرواحهم من معان سامية، حتى تكاد أنفسهم في سبيل البحث عن تلك الطرق تذهب مكابدة وأنينًا.

إن هؤلاء الشجعان -أبطالَ ملاحمِ ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا- يدركون طبيعة الكفاح الذي خاضوا غِماره، لذا يتحلّون بقمة الصبر، كذلك يعرفون أنهم ما انطلقوا في هذا الدرب إلا بحثا عن صحبة "الخضر" و"ماء الحياة"، لذا يتّقدون عزيمة وتصميما. إنهم كالجبال في إيمانهم والفولاذ في إرادتهم، فلو جاءت لهم الدنيا بكل سحرها وفتنتها ما حادوا عن طريقهم وما غيروا قبلتهم.

النفوس النافعة أو مجتمع الضمير[1]

(ديسمبر ١٩٨٦)

عندما خُلق الإنسان وأُرسل إلى هذا العالم، وُضعت في فطرته بذور الخير والشر، والجمال والقبح، والنفع والضر؛ ومُنحت تلك البذورُ قابليةَ التوسع والنموّ والتطور في سفوح ماهيته الإنسانية. ومنذ تلك اللحظة تَداخل -في كينونة الإنسان- الليلُ والنهار، ولاح الفحمُ إلى جانب الماس، وبزغ النور عقب الظلام؛ وتَصارَع الحقد والنفور مع الحب، وخاضت الحرية عراكا مع الأسر لا ينتهي، وسلّطت النمطيةُ والشكليةُ مصايدها للقضاء على روح الإخلاص والانطلاق والعشق، وكافح الحق ضد الباطل على الدوام. ويبدو أن الصراع بين هذه المتناقضات، والتدافع بين أصحابها وممثليها، سيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أجل، إننا نرى -في ناحية- أرواحًا حائرة تتخبط في متاهات الأنانية المظلمة، مع جهل فادح بالطريق الهادي وإشارات الطريق، بينما نجد في -الناحية الأخرى- أرواحًا مشرقة تُعانق الخلود

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٣٢، (سبتمبر - أكتوبر) ٢٠١٢. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٩٥ (ديسمبر ١٩٨٦)، تحت عنوان: (Yararlı Ruhlar veya Vicdan Topluluğu). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

الماورائي في كل لحظة، وقد حسمت أمرها للإبحار في رحلة أبدية لا نهاية لها، أو بعبارة أصح عزمت على أن تعيش المعراج في عالمها الداخلي.

وبينما نرى الفئة الأولى ترتعد خوفًا في عالم من الكوابيس يبدأ بفوضى وينتهي بفوضى أخرى، نجد الفئة الثانية تعيش في عالم مشرق من الإيمان بالماوراء الأخروي في كل لحظة من لحظات حياتها، متقلبة بين قصور الجِنان التي امتدت أطرافُها مترامية حتى التحمت بأطراف قلوب هؤلاء السعداء.

وبينما نلاحظ الفئة الأولى يائسة أسيرة مَهِيضةَ الجناح، تتجرع ألوانًا من العذاب المرير جرّاء سوء قراءتها للحياة والأحداث، وفساد تفكيرها، وعفونة تقييمها، وبالتالي حرمانها من الاستمتاع بطعم الحياة؛ تُطالعنا الفئة الثانية مبحرةً في عالم يتلألأ نورًا بفضل جمال رؤيتها وحسن تفكيرها، فهي منطلقة محلقة نحو عوالم زاهية جديدة في كل حين، ناهلةٌ من معين سعادة غامرة لا توصف.

أجل، إن أبناء المجموعة الأولى قد خيم الظلام على عالمهم الداخلي، وأحاط بهم تشاؤم قاتم من كل جانب، ففقدوا جدارتهم وأهليتهم في نفع المجتمع وإفادة أبنائه. هيهات للأمة أن تفيد منهم شيئًا أو أن تنفعها مواهبُهم بعد ذلك؛ بل إن هؤلاء لو دُفعوا لإفادة مجتمعاتهم دفعًا، فسوف تنتصب أنانيّاتُهم عائقًا حيالهم، ولسوف يتعثرون بشِباك الهوى ينهزمون أمام "أنفسهم" ويفشلون في تجاوزها، ولا يمكنهم أن يحققوا المنشود منهم أو المأمول فيهم البتة.

محال أن تنبعث مروءة أو إنسانية من قلوب هؤلاء البؤساء بعد أن

امتلأت بألوان من المطامع، محال أن تتوقع منهم محبة للآخرين أو فهما. بل حتى لو بدوا وكأنهم يحبون الآخرين، فبقليل من التركيز تكتشف أنهم غير مخلصين ولا صادقين في ذلك.

إن معرفة تلك النفوس المظلمة البعيدة كل البعد عن الوضوح والشفافية والشجاعة، واكتشافَ هويتها، والاطلاعَ على حقيقتها، في منتهى الصعوبة، بل يكاد يكون متعذرًا. إن هؤلاء من الحنكة والمهارة بحيث يُجيدون إظهار المشاعر الإنسانية في الوقت الذي يمارسون فيه أشنع المظالم وأفظع الاعتداءات، كما يحسنون الترائي باللين والرفق أثناء ظلمهم الصارخ وتجاوزاتهم الواضحة. هؤلاء عندما يمتلكون القوة يفتكون أشد ما يكون الفتك، ويعنُفون أشد ما يكون العنف. وعندما يعتريهم الخوف على أنفسهم أو يرون أنهم فقدوا السند والظهير، تبدو سفالتُهم جلية وتظهر دناءتُهم بيّنة، فلا يجدون حرجًا في أنفسهم من لثم الأيدي، ولا يرون بأسًا من تقبيل الأقدام. إن هؤلاء الأشقياء لا يترددون في إحراق العالم كله مقابل مصلحة ذاتية صغيرة، كما لا يترددون في انتهاك حقوق مئات الآلاف من الأبرياء مقابل منفعة خسيسة.

هؤلاء الأنانيون الذين يحسبون أنفسهم دعامة العالم وقاعدته، يقضون حياتهم كلها في سجن مؤبد من المطامع والرغبات، ولا يفلحون -ولو مرة واحدة- في رؤية الأشياء وقراءة الحوادث وفق جوهرها، بل لا يرغبون في ذلك أصلاً. صُمٌّ عُميٌ بلا قلب ولا إحساس؛ ما يحسون به أو يسمعونه خداع وضلال لا غير، وما يرونه أو يحدسونه فُتات أوهام وأضغاث أحلام، وما يُبدونه من رأي أو

يطلقونه من أحكام هَذَيان كهذيان المخمورين.

لو وضعتَ هؤلاء في ميزان التقييم الذاتي، فسوف تجدهم عديمي المواهب واللياقة، فقراءَ القدرات والخبرات، عديمي الفائدة للمجتمع الذي يعيشون فيه، يَظهرون في قلب الواقع فجأة عندما تكون القضية إشباعَ الرغبات الشخصية والاستمتاع الذاتي. وإذا ما تعلق الأمر بإسداء المعروف إلى الآخرين، والسعي لصالح المجتمع، ودرء المفاسد عنه، وجلب المنافع له، فلن تجد لهم أثرًا مهما بحثت.

أما المجموعة الثانية الطيبة، فقد عَرفت سرّ الانبعاث والوجود والبقاء، وانطلقت في أعماقها الذاتية بعزيمة نادرة فحققت في عوالمها الداخلية فتحًا بعد فتح، وأقبلت على تأسيس روابط من الحب والعاطفة مع كل شيء ومع كل أحد. هؤلاء الطيبون الذين يتمتعون بقدرات عالية في ذواتهم، مفيدون حقًّا للآخرين، نافعون جدًّا لمجتمعاتهم، لا يمكن الاستغناء عنهم أبدًا. في ظل راية الإرادة التي ثبّتوها في ذروة ذواتهم يناضلون من أجل الفضيلة على الدوام، وينقّبون عن التجرد والإخلاص والإيثار والتضحية دون انقطاع. إن هؤلاء الربانيين، بأرواحهم التي نضجت بنار الفكر، وعقولهم التي بلغت حد الصفاء، كأنهم ظلال لأنوار الأنبياء، يمرون على كافة المواقع التي سبقهم إليها الأنبياء من قبلُ، يبلغون مرتبة القرب من الملائكة، ويتوحدون معهم، ويطوفون خلال صفوفهم.

إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ينزلون في نقطة الوسط وموقع القلب بين آلاف الطوابير من كتائب أهل الحظوة والسعادة الذين يمتدون صفوفًا متعاقبة بين يدي الحق سبحانه... فنقطة الوسط تبدأ

منهم وتنتهي إليهم، وتليهم مباشرة رايات هؤلاء الربانيين ترفرف في السماء... -نفدي أصحابَ تلك الرايات المرفرفة بأرواحنا- فهم من يمتثلون أوامر الأنبياء ويجسّدونها على أرض الواقع. وما إن يلحّن قادة القلب قصيدة الحياة، حتى يهبّ من اصطف خلفهم من الربانيين ليترنموا بها بأرقّ الأصوات وأعذب النغمات. وما إن يبدأ سادة الوسط ببثّ رسائل الخير والجمال والمعقول، وإيقاد مشاعل الحقيقة في كل مكان، حتى ينطلق من اصطف وراءهم من النورانيين ليحوموا حول تلك المشاعل إلى الأبد. وما إن يَشرَع أبطال القلب بنفخ الروح والانبعاث فيمن حولهم -مثل إسرافيل وقد هبَّ قائمًا ووضع الصور على شفتيه- حتى يسعى من اصطف خلفهم من السعداء ليسربلوا الروحَ بالجسد، ويمثلوا تلك الروح في كل ساحة من ساحات الحياة في أعلى مستوى من النموذجية والمثالية.

ليست الأصوات التي تتردد في ديار لم تصلها أصوات هؤلاء السعداء بعدُ إلا حشرجات؛ وما العبارات التي تقال إلا هذيان كهذيان المجانين. فالعميُ الذين لم يبلغوا سعادةَ رؤية تلك القامات السامقات، والصُّمّ الذين لم يُكتَب لهم حظّ سماع أنفاسهم التي تَسكُب السكينة والطمأنينة في القلوب، سوف يخلطون بين تغريد العندليب ونعيق الغراب طوال حياتهم، ولن يتمكنوا من التمييز بينهما أبدًا.

لقد عَرف هؤلاء السعداءُ الحقيقة الكبرى منذ البداية، فأحنوا هاماتهم لها، وطأطأوا رؤوسهم أمامها... آمنوا بالله ربًّا ومعبودًا، ووضعوا جباههم على عتبة بابه سبحانه. وإن السعداء الذين يُحنون

هاماتهم أمام بابه تعالى تُحيّي رؤوسُهم أقدامَهم، وتتجول أقدامُهم في الذّرَى التي بلغتها رؤوسُهم. وإنّ الحلقة المتشكّلةَ في السجود من اتصال الرأس بالقدم لَتُمكّنهم من التحليق المستمر في حالات من الصعود (عرشيات) والنزول (فرشيات)، تنتهي وتُتوَّج بمعراج جديد في كل مرة[1]. أما إذا رفع حصان إلهامهم قائمتيه شامخًا، وتوثب وهّاجًا، فسوف تجدهم قد قفزوا إلى ما وراء السماوات بنَفَس واحد، وجالوا في ربوع الجنان، وسابقوا الملائكة، وأخذوا في الحوم والتطواف حول من لا يمكن إدراكه -سبحانه- بِحيرة وانبهار لا نظير لهما.

ومن يدري كم من مرة في اليوم يتخذ هؤلاء من الشمس كُرةً، ومن نجم آخر مِضرَبًا فيقدّمون لأهل السماوات ألعابًا سحرية شتى، وعروضًا عجيبة مبهرة. كم من مرة يحلّقون بأجنحة المناجاة والضراعة فيَسعدون بلذة الوصال، ويَنعمون بقرب الحبيب الباري وصحبة الخليل المتعالي، ثم يعودون من ديار الأنس بدلال أَكْرِمْ به من دلال. كم من مرة يجيشون بأطياف جديدة من مشاعر العشق والوجد، ويحسون في أرواحهم بحظوة اكتشاف الوجود الحقيقي، فيغرقون في لذة أيما لذة ونشوة ما بعدها من نشوة.

هؤلاء السعداء، يتردد ذِكرُ الحق تعالى في أنفاسهم دومًا، وتموج الحقيقة في أفكارهم، وتلتمع بشارة الخلود على ألسنتهم، وتتلألأ السعادة الأبدية في آفاقهم. لقد عقدوا العزم على إعمار الأرض وبنائها دون أن يخطر على بال أحدهم الاستمتاع بلذائذ الدنيا أبدًا.

---

[1] العرشية: العروج من الخَلق إلى الحق تعالى، والفرشية: السير من الحقّ تعالى إلى الخَلق بعد بلوغ ذروة المعراج. (المترجم)

التجرد سجيتهم، والإخلاصُ ديدنهم، واحتساب الأجر عند الله خُلقهم الأصيل. فهم لا ينتظرون مقابل أعمالهم جزاء ولا شكورًا، ولا يرغبون في أن تُذكَر مآثرُهم أو أن تُسجَّل بطولاتهم قاطبة.

إنه لمن المؤسف حقًّا أن أصحاب هذه الأرواح السامية، الذين يمتلئون بالفضيلة ويفيضون بالخير على الآخرين -امتلاءَ الأقداح وفيضانها- اضطُهدوا دومًا، وأُهينوا من قبَل بعض المخدوعين باستمرار، وتم التضييق على حرياتهم وعلى حقهم في ممارسة حياة كريمة شريفة، مع محاولات شنيعة للتهميش والإقصاء خارج المجتمع والواقع.

شُقّ قلبي يا حبيبي،
وانظر إلى ما فيه من جراح،
إن بين قومنا من يمكر بنا،
مكرًا سيئًا...

* * *

آه، طويلة هي هذه الطريق،
كثيرة منازلها، قصيّة مَفاوِزها،
لا معابر فيها ولا جسور،
عميقة المياه سحيقة الوديان... (يونس أَمْرَه)

ولكن ما دامت الأرواحُ تشع بالأنوار، والضمائر تتألق بالحرية، والصدور تخفق بالإيمان، فصبراً ومزيداً من المرابطة والمثابرة!

الأجيال السعيدة[1]

(يناير ١٩٨٨)

"مُغمَض العينين أنا.. ألحظ أجيال الغد.. تتفتح عن منابت الأمل.."

إننا نوقن بأن كل شيء في عالم الغد الطيب الجميل، سيكون بروعة الوجوه المشرقة لأهل الجنة وجمالها، مشرق تعبيرُه كنظراتهم، فواح عطرُه مثلما يتضوع من أجسامهم، ومن عبق تلك الروائح الزكية التي تفوح نفحاتها مِسْكِيَّة من كل جانب ستلين القلوب المتحجرة، بل ستذوب.

أجل، سيتفتح الوجود في راحة إنسان المستقبل المستنير روحًا والمتقد ذهنًا كبرعم وردة يتفتّح ورقة ورقة. ويمضي الإنسان السعيد نحو المستقبل المنير مكتشفا أقاصي الأكوان متنقلا من نصر إلى نصر كالفاتحين العظام، حتى يصل إلى اكتشاف سر أن الأشياء كلها مسخرة لبني الإنسان، ويسير تحت أقواس النصر الواحد منها تلو الآخر، لينصب راية الفكر والوجدان على برج مرضاة الله تعالى، ويرى قدرته في عجزه، وغناه في فقره، فيحلّق بأجنحة الشكر

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٤٧، (مارس - أبريل) ٢٠١٥. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ١٠٨ (يناير ١٩٨٨)، تحت عنوان: (Mutlu Nesiller). الترجمة عن التركية: هيئة حراء للترجمة.

والشوق، ويستمر في البحث عن عوالم أخرى يفتحها. وحتى تحين اللحظة التي يفتح فيها عينه على العالم الآخر، يعيش في دنياه الحلوة هذه حلاوة الأحلام، محاولًا إضافة أبعاد جديدة لها.

إنْ قُدِّرَ لنا أن نصل إلى تلك الأيام نحن الذين نقاسي عقدة في لساننا وضيقًا في صدورنا وشللًا في مشاعرنا، ونعاني الحرمان فلا نجد فرصة لتوسيع عالم وجداننا وأفكارنا... فستهيج بنا الأشواق وستسَّاقط من أفواهنا الحِكَمُ. وعندما نرى الآمال التي أخفيناها في صدورنا تلوح أمام أعيننا ومشاعرنا الخفية التي تتردد بين الحسرة والأمل تنكشف أمامنا، وأفكارنا السجينة الحزينة على قلة حظها تبرز إلى الميدان، سنتذوق حلاوة عوالم كانت تعيش دومًا في خيالنا.

أجل، إن مشاعرنا الهامدة في أعماقنا ستقوى وتتقد بشوق، وتذوق لذة هذه الحياة كفراشة تتنقل في الصباح الباكر بين أفنان الورود وأغصان الزهور، باحثة عن أبعاد جديدة من سعادة الحياة التي هي اللذة بذاتها. في هذه الأجيال التي تبرعمت في جوارحها أنواع من اللذائذ، سيجد أصحاب الأرواح المنفتحة على ذاتها وعلى عوالم حسها وشعورها، فرصة للبحث عن عوالم أخرى من الجمال اللدنّي، وعوالم أخرى من الخيال المذهل الذي يخطف الأبصار، وسيشاهدون في سهول قلوبهم وبراريها المشرقة بالإيمان، عناقيد نجوم متراصة جنبا إلى جنب، وسفوحًا كسفوح تلال الجنة موزعة هنا وهناك. وفي ظلال هذه الأفكار الملونة الجميلة التي تتوالى، سوف يمزقون الرتابة التي تسعى لإطفاء جمال عالمهم إربًا إربًا فيعيشون في شوق وطرب يعجز اللسان عن وصفه.

إن المرء الذي يبلغ هذه المرتبة، يظل مستغرقًا في تأمل وجه الحقيقة التي تشرئبّ له عبر المنافذ المتفتحة على قلبه ضاربًا عرض الحائط بالصورة الضيقة لعالم الوجود، متخلصًا من أسر ماديته، باحثًا عن مأوى جديد له خارج كل أبعاد الزمان والمكان. وفي كل قفزة، تحوطه هالات نورانية مضاعفة، وفي كل عملية من عمليات التنوير هذه يزداد إحساسًا بالمنبع الأساسي لوجوده، وينسى تمامًا ما كان يُطلق عليه من قبلُ "أنا"، فيغدو كل صوت يطرق سمعه صوتَ عشق، وكل لون يسيل إلى عينيه لون عشق، ذلكم الذي غُرس كبذرة في روحه منذ الأزل وأحاط بكل كيانه كحمى نافضة، عند ذلك يحترق بنار الوصال ولوعته؛ ولا يعود لبكاء الألوان ولا لانزياح الأنوار والأطياف، ولا لعبوس الموت وحزنه أيّ أهمية أو معنى؛ ويرنّ كل صوت في أذنيه كنغمة أمل باسم، وينبض كل دبيب في أعماقه نبض الخلود، وتُكشَف له جميع الأسرار، ويجد نفسه بين أذرع العشق يحرق كل ما هو أجنبي في قلبه وعقله ويذروه رمادًا، فيدرك الغاية من وجوده.

أجل، إنني آمل أن ترتشف أجيال الغد لذائذ مثل هذه الحياة في كل يوم وكل ليلة وكل ساعة بل وكل ثانية، وأن تستوعب في صدرها أمواجا متلاطمة متعاقبة من بحار العشق والوصال، تتحول كل موجة صغيرة منها إلى بحر خضم، وأن يصل يومًا أولئك السعداء -الذين يرتشفون قطرات من العشق والوصال في كل حين- إلى العشق الأعظم والوصال الأكبر، وينجون من ضجيج "الكثرة" وخداع "الظلال".

أنْ نكونَ من جديد[1]

(فبراير ١٩٩٠)

إن تجديدًا كاملاً غير ناقص، لا يتم إلا عبر جهود متضافرة بين الروح والذكاء والحس والإرادة. فتفعيل طاقة الروح وقدراتِها إلى حدها الأقصى، واستثمارُ المعارف المتراكمة عبر الماضي دون هدر لأصغر جزئية منها، والانفتاحُ الدائم على نسمات الإلهام ونفحات المعنى والوجدان، وعدمُ الانحباس في ممارسات التقليد الأعمى، والالتزامُ بالرؤية المنهجية والسلوك المنظّم باستمرار... هي بعض المقومات الأساسية لأي تجديد منطقي معقول.

فإذا كانت الروح قوية متحفزة، والذكاء حادًّا متوقدًا، والحس يقظًا مرهَفًا، والإرادة مشحونة مشحوذة، فلا خوف من أن نكون اليوم في الأعلى أو في الأسفل أو أن نكون متقدمين أو متخلفين. إذا تمكن الإنسان من أن يحلّق بروحه وإرادته، وعقد العزم على مواصلة السير في طريقه، فسوف يتربع على القمم غدًا لا محالة، وإن بدا اليوم يلهث في آخر ركب المتخلفين.

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٣٠، (مايو - يونيو) ٢٠١٢. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ١٣٣ (فبراير ١٩٩٠)، تحت عنوان: (Yeniden Varolma). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

عندما شيّدت الصين سورها العجيب، وأبدعت في وضع مبادئ أخلاقية راقية ونُظُم اجتماعية مُثلى، كان الإنسان الغربي يعيش حياة الكهوف والمغارات. وفي العهد الذي ازدهرت فيه أرجاء الشرق بعمران باهر يحاكي روعة الجِنان بفضل الأنبياء، كانت الأراضي التي أقيمت عليها مدينة لندن غابات تجول فيها الوحوش وتصول فيها الذئاب. وبينما كان سكان نينوى وبابل والكرنك يتفيؤون ظلال أروع الحضارات الإنسانية، لم تكن الجامعات الكبرى أمثال السوربون وأكسفورد وكمبريج قد دخلت عالم الرؤى والأحلام بعد. وفي الوقت الذي كان الغربي يتخبط في قبضة جهل حالك وهمجية متردية خلال القرون الوسطى التي أنكرها فيما بعد ووصفها بالمظلمة -وفعلاً كانت مظلمة بالنسبة له- كان العالم الإسلامي يعيش عهد تنويره العظيم وانبعاثه الفريد عبر الأندلس وبغداد وبخارى وأمثالها من رموز حضارتنا الراقية؛ بل إن هذا العهد الزاهر قد شكّل منبعًا ثرًّا استلهم منه الأوروبيون صحوتهم التنويرية التي جاءت فيما بعد.

منذ أن خُلق الوجود لم يثبت شيء في موقعه قط، ولم يُكتَب الخلودُ لكائن مهما كان. فمن جاء رحل، ومن رحل ناب عنه غيرُه، ثم أعقب هؤلاء آخرون وآخرون، وهكذا.. فمن سعد في عهد وعزّ، شقي في آخر وذلّ؛ ومن ذلّ في عهد وتَدنّى، عزّ في غيره وسما. فمن ذا يمكنه أن يقول إنّ مَن بدا اليوم عزيزًا متبخترًا لن ينقلب غدًا ذليلاً مهينًا، ومن حُكم عليه بالذل والهوان اليوم لن يسعد بتاج العز مستقبلاً؟

فها هي اليابان التي دُمّر بنيانُها تدميرًا، ومُسحت بها الأرض مسحًا، قد نهضت اليوم لتصفية حساباتها مع العالم أجمع. وتلك

ألمانيا التي كُسّرت سواعدُها، وقُصّت أجنحتُها، ونُبذت في العراء ذليلة مقهورة البارحة، قد أصبحت اليوم كابوسًا مروِّعًا لمن أذاقها مرارة الذل والمهانة. فما بال عالمنا؟ هل سيبقى يراوح مكانه؟ كلا، إنه قادر على أن يصحو من جديد، يجمع شتاته، وينطلق لكي يسوّي حساباته مع عصره.

وفي ضوء ما نرى ونلاحظ اليوم يمكننا القول إن عالمنا قد دخل وتيرة رأب الصدع، وجمع الشمل؛ فهو يقبل على مقوماته التاريخية التي يَدين لها في صناعة ماضيه الأغر، ويسعى سعيًا حثيثًا لبناء مجتمع يتألق بالقيم الروحية ويسمو بالمعاني الوجدانية. وإذا تصورنا تأثير الظلم الصارخ والاضطهاد المرير وسياسة القمع الماكرة المتواصلة التي مارستها أوروبا منذ عقود وعقود في رفع وتيرة شحنه الروحي، فضلاً عن الخبرة التي تراكمت لديه عبر قرن كامل من الزمان، فذلك يعني أن المناخ قد أصبح ملائمًا، وأن الظرف قد صار مناسبًا، وأن الشروط قد اكتملت للانبعاث مرة أخرى وللنهوض من جديد.. لا سيما وأن العالم الآخر قد أشرف على الهلاك، وبلغت الروح منه الحلقوم جراء إصابته بآفات التفكك وعلل الانهيار، وبات يرزح تحت نِير الإباحية العبثية، وجرثومة اللاأخلاقية الفوضوية، ومصيبة الجفاف الروحي، ومتاهة الحياة المادية. وإنّ وضعًا كهذا لا ينذر إلا بالسقوط الأكيد والدمار الحتمي، إن لم يكن اليوم فغدًا.

إن سكرة النصر ونشوة النجاح التي غمرت بعض أبناء أمتنا في بعض الفترات، وما تلاها من آفات الاسترخاء، وحب الراحة والدعة، والتنقيب عن الحياة الناعمة، والسعي لإشباع الرغبات والنزوات..

إن هذه الآفات قد أحكمت كمّاشتها اليوم على المجتمعات الغربية بالكامل وهي تسوقها إلى هاوية الموت خطوة خطوة. وإن الكُتَل المادية التي سئمت من الصراعات، وكلّت من الحروب وانحازت عنها بعيدًا، وألقت بنفسها شيئًا فشيئًا في زخارف الدنيا الزائفة ومفاتنها الصورية وسحرها الخادع وجمالها الزائل.. سوف تنهار مناعتُها، وتنكسر مقاومتها، وتخور قواها، وتعيا عن الصمود أمام القوة المركزية الجاذبة لتلك الدوامة الرهيبة التي ما فتئت تلك الكُتَلُ تحوم حولها، ومن ثم فليس أمامها إلا أن تستسلم إلى محاور استقطاب أخرى وتنجرف في تيارها، فتستحيل حالُها وتتغير طبيعتُها وتتبدل ماهيتُها، أو تهلك وتموت وتنمحي من مسرح التاريخ إلى الأبد. دعهم اليوم وما يتغنون به من أناشيد النصر وأغاني الفتح، وما يدندنون به من أن الأرض قد دانت لهم، وأنهم قد بسطوا هيمنتهم المطلقة على العالم كله، وأحكموا زمامهم على كل مكان... فإن وجه المستقبل لا يبدو باسمًا لهم أبدًا.

أجل، كما دالت حضارة بابل ومصر واليونان وبيزنطة والسلاجقة والعثمانيين، ستدول المجتمعات الغربية كذلك، وتُشرِف على خاتمتها، وينتهي عهدها بمعنى من المعاني، وتنمحي من مسرح التاريخ من حيث دورها الذي تؤديه، وتخلي مواقعها إلى أمم جديدة أعمق إيمانًا وتدينًا، وأبلغ حيوية وتحفزًا، وأشد عزمًا وثباتًا، وأرقى رؤية وأسمى قراءة لحقيقة الحياة.

إن أسباب السقوط والانهيار هي عينها أمسِ واليوم وغدًا. وإن سقوطنا الذي يمتد إلى قرابة قرنين من الزمان قد سار في الخط نفسه.

فلم نستطع أن نحافظ على صلابتنا الدينية، ولا على وحدة الصف والروح، ولا على عاداتنا وتقاليدنا. أجل، لم نفلح في إعداد العدة للمستقبل، ولم نحسن عملية الشحذ والتعبئة له؛ كما لم ننجح في تنشئة الأجيال الفتية ولا في تجهيزها وفق هذه الرؤية.. بل وعجزنا عن المحافظة على فتوتنا على مستوى الأمة؛ ومن ثم فشلنا في مقاومة الزلازل الداخلية والعواصف الخارجية التي لم تهدأ قط ولم تنقطع يومًا، فسقطنا سقوط شجرة دلب عملاقة قد تآكل جوفُها.

أما اليوم، فبينما يهوي الطرفُ الآخر نحو حفرة موته خطوة خطوة وهو غارق في خضمّ المفاسد والمخازي، ترانا نحلق باستمرار نحو ذرى عالية بمعية أمم تشاطرنا الخط نفسه.

لقد وصفوا لنا -حتى اليوم- ذلك العالم الذي تأسس بنيانه على باطل بأوصاف مزخرفة لا أصل لها، وصوروه لنا بغير صورته، فثبطوا هممنا، وأخمدوا جذوة حماسنا، وكسروا معنوياتنا، وحطمونا في إرادتنا واحدًا تلو الآخر حتى أصبحنا مشلولين جميعًا. وإن النخب المثقفة الذين روّعتهم صدمة التقدم الصناعي والتطور التكنولوجي الذي وقع في الغرب، بدلاً من أن يهبّوا لتجديد الذات وفقًا لطبيعة العصر في تقلباته ومستجداته، وقعوا في خطأ تاريخي فادح، حيث هرعوا إلى التخلي عن كافة قيمنا النابعة من ذواتنا، وجميع فضائلنا التي تمثل جوهرنا، واندفعوا نحو التغرب جملة وتفصيلاً في أنماط الإحساس ونظم التفكير. ولكن هيهات.. فلا هم صاروا غربيين بالمعنى الكامل، ولا استطاعوا أن يعودوا إلى عالمهم الذاتي من جديد.. ضاع الجوهر.. وانهارت القيم الروحية والمعاني الوجدانية..

وتزلزلت شجرة الأمة زلزالاً رهيبًا.. والأدهى من كل ذلك أنه لم يتأتّ لنا اللحاقُ بالغرب ولا محاذاتُه في قيمه الذاتية لقاء ذلك الثمن الباهظ الذي تكبّدناه. ولم يكن ذلك ليقع أبدًا، إذ كيف لأمة تفاعلت مع الروح، وتمازجت مع المعنى، وتوحدت مع القيم الوجدانية عبر قرون وقرون أن تتقبل –جملة وتفصيلاً– حضارة لم تقم في أساسها على السمو الروحي والمبادئ الإنسانية؟! ولم يحصل التقبّل فعلاً، بيد أن الأمة فقدت الكثير من روحها وذاتها وحقيقتها في هذا الإبّان.

أجل، لقد تم الترويج للغرب بيننا على مر العقود السابقة على اعتباره منبعًا للفضائل والمحاسن رغم ما يزخر به من مساوئ ورذائل، وتم الإغضاء كليًّا عن سلبياته الفتاكة، في الوقت الذي نُسجت حول ميزاته الضئيلة ملاحم وأساطير، وأحيطت بها هالة من التضخيم والإعظام، فكان التهليل لأدنى المحاسن والتصفيقُ لأقلّ المزايا، ودُفع الناس إلى المُكاء والتصدية دفعًا.. ضُللت الجماهير أيما تضليل، وخدعت الجموع أيما خداع.. وكانت الأمة هي الضحية في هذه اللعبة، وهي الدافعَ للثمن أيضًا كما هو الحال دائمًا.

واليوم، ها هو عهد جديد يطلّ علينا.. عهد يَدُول فيه التفككُ عليهم، ويدور السقوط دورتَه فيهم.. بينما تبزغ في أفق عالمنا شمس استيقاظنا من جديد واستعادة وعينا بذاتنا ونهضتنا مرة أخرى نحن ومن يرافقنا على الدرب من أمم أمثالنا. وإن الإسراع أو الإبطاء في درب هذا التكون الجديد مرتبط أشد الارتباط –في إطار الأسباب الكونية– بجهود أبطال يمثلون إرادة الله ويوقّرونها في أعماقهم. إن كل جهد بشري دعاء بحد ذاته، وكل خَلق يصدر عن صاحب القدرة اللانهائية

إجابة لذلك الدعاء. ومن ثم علينا أن نعي جيدًا ماذا نبتغي وماذا نريد، وينبغي كذلك أن نطلب مبتغانا في دائرة الأخذ بالأسباب والالتزام بها.

للأسف، منذ إعلان "التنظيمات"[١] حتى اليوم لم نفلح في تحديد مبتغانا، ولا في التعبير عن ذلك المبتغى بأسلوب مناسب، ولا في نقله إلى ساحة التفعيل. كذلك لم ننتبه أبدًا إلى رعاية السنن الاجتماعية والاقتصادية الضرورية في تقدم الأمم وارتقائها، ولم نستطع أن نستثمر مواهب الأمة وقُدُراتها، بل تغافلنا عن بنائها الأخلاقي وبعدها الروحي دومًا.. واستهوانا النظر -حصريًّا- إلى المقومات التي كانت منطلقًا لرقي الدول الغربية في يوم من الأيام... أجل استهوانا النظر إليها، واعتبرناها ثوابت لا تتغير، ومسلَّمات لا تُضِلّ ولا تُزِلّ، فاندفعنا نستنسخها واحدة تلو الأخرى إلى أن كبّدنا الأمة خسارة حتمية في سبيل ربح موهوم.

بينما كان الواجب أولاً وقبل كل شيء، أن تُبسَط أجنحة الحفظ وألوية الحماية على قيمنا الدينية ومبادئنا الوطنية وفضائلنا الأخلاقية ومقوماتنا الثقافية التي توحدت مع كيان الأمة حتى صارت الروح الساري في جسدها والدم الجاري في عروقها، ثم يُؤخَذ ما يتوجّب أخذُه من الآخرين وفقًا لهذه القيم وتلك الرؤية. فلو تم الأمر على هذا النحو، لكان أوفق بالسير الفطري وأقرب إلى التحرك السنني،

---

[١] التنظيمات هي فترة إصلاحات في الدولة العثمانية بدأت سنة ١٨٣٩ وانتهت بفترة المشروطية الأولى (الدستور) في ١٨٧٦. وقد عَرفت هذه الفترة محاولات لتحديث الدولة وتأمين وحدتها ضد الحركات القومية الانفصالية. والإصلاحات أكدت على الهوية العثمانية وحاولت أن تدمج غير المسلمين وغير الأتراك في المجتمع العثماني بتحسين حرياتهم المدنية ومنحهم المساواة كاملة. (المترجم)

ولكان حظنا من قطف الثمار أوفر وأبقى. بيد أن المؤسف والمؤلم حقًّا هو أن هذا الأمر رغم أهميته تعرض للإهمال على الدوام، واستمر تجاهله عن عمد في جميع حركات الإصلاح المنبعثة في عالمنا منذ أمد بعيد. بالله عليكم، أكان ارتقاء الدول التي تتربع فوق قمم الازدهار المادي اليوم لأنها استوردت نُظمًا قانونية مُثلَى -من وجهة نظرها- ثم طبّقتها في كافة مناحي حياتها إبّان نشأتها، أم لأنها بحثت عن أوجه حاجاتها، ونقّبت عن مواطن ثغراتها وهي تتدرج في مدارج الارتقاء والتقدم، فوضعت قوانين تسد تلك الثغرات واجتهادات تناسب تلك الحاجات؟

إن النظر إلى تلك الدول باعتبارها تمثل عين الصواب في كل قضية، إنما هو انحراف خطير إبّان البحث عن الصواب؛ كما أن التعثر وعجز الإجادة في الاستنساخ أثناء عملية الاستنساخ ذاتها، إنما هو ضرب من عمى البصيرة ولون من العار المشين.

إننا كأمة بدءًا من مصطفى رشيد باشا إلى مدحت باشا، ومنه إلى "العثمانيين الشباب"،[١] وحتى "الاتحاد والترقي"[٢] لم نفكر بهذه

---

[١] العثمانيون الشباب: حركة معروفة في أواخر الدولة العثمانية بحركة "تركيا الفتاة". وهي ذات صبغة قومية حداثية ثورية بدأت في عام ١٨٨٩ بمطالبات إصلاحية سياسية في صفوف الطلاب العسكريين ثم شملت قطاعات أخرى، وكانت بدايتها ممانعة لسلطة السلطان عبد الحميد الثاني. وعندما تأسست جمعية الاتحاد والترقي في ١٩٠٦ ضمت معظم أعضاء تركيا الفتاة. بنت الحركة واقعًا جديدًا لانشقاقات صاغت الحياة الثقافية والسياسية والفنية للدولة العثمانية قبل انهيارها. (المترجم)

[٢] الاتحاد والترقي: حركة قومية معارضة للسلطان العثماني تأسست عام ١٩٠٦، وضمت أعضاء تركيا الفتاة، وشكلت أول حزب سياسي في الدولة العثمانية. وصلت إلى

القضايا مطلقًا، بل ونظرنا إلى إنساننا على أنه فرنسي أو إنكليزي أو ألماني، وسعينا إلى نُظُم فكرية مستوردة لكي نُلبِسها أبناء أمتنا وهمًا منا أنها ملابس جاهزة فُصِّلت من أجلهم خصيصًا.

إن الفرمانات السلطانية التي صدرت والمذكرات القانونية التي أعدت في عهد التنظيمات وفي العهود التالية، لم تَخرج في جوهرها عن هذا الإطار من الفهم الزائع، بل وقُصد بها التملّقُ والتزلّفُ إلى "الدول المعظمة" أثناء الإعداد.. ولم تؤخذ طبيعة البنيان الأساسي للمجتمع بنظر الاعتبار قط.. ولم يُحسَب حساب ما ستأتي به هذه الفرمانات والمذكرات من مغانم ومغارم.. بل عندما كان "الخط الهُمايُوني"[1] في "كولخانة" يُتلَى وسط ابتهاج ساطع ببريق المظاهر ورنين الهتافات، لم يكن حتى كبار رجال الدولة قد فهموا شيئًا من تلك العبارات المزركشة التي تطايرت في الفضاء يومها، ناهيك عن أن تَفهمها الجماهير الشعبية.

فلو أن رجال الدولة لدينا من لدن سليم الثالث وحتى اليوم، أبدوا قدرًا يسيرًا من العناية من أجل الحفاظ على قيمنا الدينية والوطنية والثقافية أثناء عرضهم مشاريع شتى تتعلق بمستقبل الأمة والوطن،

سدة الحكم بعد تحويل السلطنة إلى ملكية دستورية وتقليص سلطات السلطان آنذاك عبد الحميد الثاني في انقلاب ١٩٠٩. وهي التي ساقت الدولة العثمانية إلى الحرب العالمية الأولى وساهمت في انهيار الدولة وتفككها مساهمة كبيرة. (المترجم)

[1] الخط الهُمايوني هو المرسوم السلطاني الذي عرف بفرمان التنظيمات والذي أعلن عنه في حديقة كولخانة المجاورة لقصر توب قابي في إسطنبول عام ١٨٣٩ في عهد السلطان عبد المجيد حيث شمل إصلاحات دستورية طبعت صبغتها التغربية التحديثية على فترة طويلة عرفت بفترة التنظيمات. (المترجم)

وتحت مسميات الإصلاح التي امتلأت بها فرمانات متتالية عديدة.. لو أنهم أبدوا شيئًا من العناية لكنا قد قطعنا مسافات واسعة من ذلك الوقت حتى اليوم. ولكن هيهات.. فقد تم تجاهل هذا المنحى كليًّا في كل مرحلة من مراحل الإصلاح، وبالتالي فإن محاولات "التنظيمات" و"المشروطيات"[1] التي ولدت مشوهة في أصلها، باءت بالفشل ولقيت حتفها لحظة ولادتها.

إن الأمم التي تحركت معنا في الدرب نفسه وفي الأيام عينها التي انطلقت فيها مشاريعنا الإصلاحية، تحلق اليوم فوق قمم الارتقاء المادي. ولا حاجة إلى الجلوس الطويل والتأمل المتصل لكي نكتشف سر ارتقاء هؤلاء. فالذين استطاعوا البارحة أن ينظموا وقتهم في بلدانهم، وأجادوا تقسيم الوظائف وتوزيع الأدوار بصورة مثالية، ونشروا حس الأمن وشعور الثقة وسط أفراد مجتمعاتهم ولو بنسبة معينة، وحافظوا على قيمهم الوطنية والتاريخية بإلحاح.. هؤلاء، ظهروا اليوم كأمة حقًّا.. نعم كأمة، وإن لم تكن عاقبتهم تدعو إلى الأمل.

والآن، أناشدكم، إن كنا نزعم أننا حريصون على مستقبل أمتنا، فهل يمكننا أن ندعي أننا سعينا إلى تنظيم الوقت تنظيما جادًّا يرقى إلى مستوى الأمم المتقدمة، أو إلى تقسيم الوظائف وتوزيع الأدوار بصورة مثالية؟! وهل يمكننا أن نقول بأننا استطعنا أن نبث الأمن وننشر الثقة داخل أفراد الأمة وفقًا لمعاييرنا الثقافية ومبادئنا الذاتية؟! وهل يمكننا أن ندعي أننا استطعنا أن نصون ونحفظ قيمنا الدينية

---

[1] وهي محاولات الانتقال إلى النظام الدستوري البرلماني في الدولة العثمانية، وذلك في عام ١٨٧٦، وفي عام ١٩٠٨. (المترجم)

والوطنية التي تعتبر كل واحدة منها جوهرة فريدة لا مثيل لها؟!

ولكن، على الرغم من كل هذه السلبيات، فإن إنساننا لا يزال حيًّا بكل أجزائه، ميمِّمًا وجهه شطر المستقبل، واعيًا بذاته، واعيًا بـ"من يكون"، و"ماذا يريد أن يكون"، مصمِّمًا على القيام بواجباته ومسؤولياته التاريخية، متطلعًا إلى الفرص والإمكانات التي سيجهزها له أصحاب القرار ممن يحتلون القمم. إننا على يقين تام، بأن أمتنا -ما لم تعصف بها رياح معاكسة- ستأخذ موقعها الباهر في الموازنات الدولية مرة أخرى عبر السبل والإمكانات التي تهيئها دولة الزمان ودورة التاريخ، ولن تستطيع أي قوة أن تمنع وقوع هذه النتيجة بعون الحق ﷻ.

المجتمع المثالي[1]

(يونيو ١٩٩٠)

المجتمع المثالي هو الذي يتكون من أفراد مثاليّين. أمّا تلك الأكوام الهائمة المتخبطة التي تتشكّل أجزاؤها وجُزَيئاتُها من المساوئ والآثام، فهي حشود فارغة عقيمة مُوصَدة أبوابُها أمام كافة ألوان الخير والفضيلة والجمال.

الإنسان المثالي، أو الإنسان الكامل -كما عبر عنه القدماء- هو المتحلّي بصفات ملائكية.. هو بطل البصيرة وفارس الإدراك.. هو المنتبه إلى الحقيقة الكبرى التي عبرت عنها الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(التين:٤) وآياتٌ أخرى في المعنى نفسه.. هو المدرِك يقينًا أن الباري ﷻ قد خلقه في أجمل الأشكال المادية، وسوّاه في أروع الصور المعنوية، فكان بديع الصنع، متفرد الهيئة، تَصدُق عليه حقيقة ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ بكل ما يعنيه التعبير.. وهو كذلك العارف بكنه الآية الشريفة التي تقول:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٣١، (يوليو - أغسطس) ٢٠١٢. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ١٣٧ (يونيو ١٩٩٠)، تحت عنوان: (İdeal Cemiyet). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾(الأحزاب:٧٢)، الخبيرُ بمضامينها العميقة الواسعة.. إنه يعلم أنه المرشَّح الوحيد بين جميع الكائنات -المرئية منها والمعروفة- للعروج إلى آفاق لا نهائيةٍ، وهو واعٍ وعيًا تامًّا أنه مجهّز بِطاقات وقُدرات مفتوحة إلى اللامحدود، ومستوعبٌ سبل استثمار "المواهب الأولى" التي منحها إياه الفاطر جل وعلا.

أجل، إنه إنسان ذلك الوعيِ وتلك البصيرة.

ولهذا، فإنه بقدر تمكّنه من استثمار "مواهبه الأولى" التي وهبها له الباري ﷻ منّة منه وفضلاً، وبقدر كدحه لإمضاء حياته تحت أنوار الوحي ولألاء الإلهامات، وجهدِه في توفية الإرادة حقها، وبقدر براعته في تنمية تلك المواهب وتفتيقها مثل حبة أنبتت سبع سنابل، ونجاحِه في إطلاقها نحو الأبدي اللامتناهي.. بقدر تمكّنه من ذلك كله يمكنه سلوك الصراط الهادي إلى ذروة "الإنسان الكامل".

الإنسان المثالي يموج عقلُه موجَ الدوّامة بألف سؤال وسؤال، ويواصل التنقيب عن الحقيقة بنَهَم عجيب، ويغذّ السير قُدُمًا لكي يفكّ شفرة ألف لغز ولغز؛ تراه متوقّد الذهن متوثّب البحث عن أجوبة للأسئلة الكونية الكبرى: "ما الحياة، وما الموت، وما حقيقة الكون، وما علاقته بالإنسان، وما معنى العبودية لله، وماذا تعني الطاعة له، وما الإثم، وما الثواب، وما حقيقة المِحَن التي تُلمّ بالإنسان، ولماذا تُلمّ به؟".. في الوقت ذاته تراه مشتعل الفؤاد.. قد شيّد من بوارق الحكمة التي لا تكفّ عن الوميض في سماء وجدانه، ومن نسمات الإلهام التي لا تنقطع عن تجلياتها في أرجاء روحه، صروحًا نورانية شامخة.. ثم سما حتى بلغ قمة تلك الصروح.. فأبصر كنه الأشياء،

واكتشف ملكوتها، وأدرك ما طُوي منها وراء ستار المنظور.. فاتجه إلى المصدر الحقيقي للروح، يغمره الحبّ وتهزّه الهيبة نتيجة تقلبه بين مدّ الحيرة وجَزْر الانبهار.. ثم ذاب في نشوة من السكينة لا توصف، ولذة من الطمأنينة تسمو على كل تعبير.

إن روحًا قد وصلت تلك القمة السامقة لَيستوي لديها الإحسانُ والحرمانُ، لا تفرح بالألطاف المتعاقبة ولا تزهو بها، ولا تحزن بانقطاع العطايا ولا تيأس منها.. العطاء والحرمان في نظرها سِيّان.. إذ بينما يغترّ البعضُ بالعطاء فيطغى، أو يُحرَم منه فيتحسر يائسًا ويشقى، تجد تلك الروح الواصلة قد عرفت كيف تَستنبت الورودَ في قلب الفلاة، وتستخرج السكّر من جوف القصب، وتحقق أرباحًا متنامية حتى في مواسم الكساد والخسران.

أجل، حتى لو أصابت الإنسانَ المثاليّ أشدُّ المِحَن قسوة وفتكًا، وأحدقت به أكبرُ الدوامات رهبة وعتوًّا، فلسوف يرى نفسه سائرًا في ممرّ طويل من الامتحانات، ينتهي به إلى ألوان شتى من التوفيق المؤكد والفوز المبين، ولسوف يحس -في أسوء خطوبه وعند أصعب لحظاته- بنسمات من الأنس والسكينة القادمة من وراء الحُجُب تطوف في أرجاء روحه بِرقّة ونعومة، فيركع بين يدي الله تعالى خاضعًا منكسرًا وقد امتلأت نفسه بمشاعر الحمد والعرفان، وفاضت بأحاسيس الشكر والامتنان.

الإنسان المثالي، يمتلك ثقة لا حدّ لها، وطمأنينة لا غاية بعدها، لأنه يؤمن إيمانًا لا يخالجه شكّ بعناية القدرة المطلقة، ويوقن بأن الله قادر على كل شيء، وأن حكمه نافذ في كل شيء. وإنّ ذلكم الإيمان الصافي الرقراق المتجذّر في أعمق أعماق قلبه، وكذلك تصوّرُه

ورؤيتُه وعقيدتُه التي أكسبت عالم روحه أبعادًا جديدة تتجاوز جميع مقاييس العقل.. كلُّ ذلك يرقى به إلى قمة تسمو على كلّ إحساس، وتتفوق على كلّ شعور. فلو تَمكّن في تلك اللحظة من أن يُنصت إلى ذاته بأذُن تعي تلك الأعماق، فلسوف يسمع همسات ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾(فصلت:٣٠)، أو ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(النحل:٣٢)، ولسوف يَسبح في متعة أكرِم بها من متعة، ويغوص في نشوة ما بعدها نشوة.

هذا، ولأنّ الإنسان المثالي يؤمن بالدار الآخرة من كل قلبه، فسوف يُمضِي سِني عمره وينظم شؤون حياته وفق تلك الدار.. وسيبذل قصارى جهده لاجتناب كل جُرم أو مظلمة أو فساد.. ويظل في جهاد مستمر مع نفسه دون كلل أو ملل، ومن ثم فلن يسقط في براثن العبثية ومتاهة الإباحية أبدًا.. بل ستبقى عيناه متعلقتين بجمال السفوح الزاخرة بتجليات "الخليل" السرمدي و"الولي" الأبدي.. ويظل عقله في نشوة غامرة وقد وعى معنى الأبدية والخلود.. ويغدو قلبه روضة من رياض الجنان، تبتسم فيها الألوان الزاهية، وترفرف فوقها الأرواح الطاهرة غادية رائحة.. إذ يدرك حق الإدراك أنه ما جاء إلى هذا العالم العجيب إلا مسافرًا سائحًا، يشاهد الجمال، ويتأمل الكمال، ويتجول في أرجائه المترامية مشدوهًا مبهورًا.

وبينما يقضي "إنسان الجسد" كل حياته خلف ملذّاته الجسمانية، أسيرًا لرغباته النفسانية دون أن يبلغ ما ينشده من طمأنينة، فإن "إنسان الغاية" سعيد النفس مطمئن الفؤاد على الدوام.. فهو بطل الروح والمعنى.. نذر نفسه للإنسانية يخدمها بمعرفته وعرفانه،

ونهض بشجاعة خارقة وعزيمة صادقة لإزالة الظلم من كل أنحاء الأرض.. فهو -إذا اقتضى الحال- لا يد له على مَن ضربه، ولا لسان له على مَن شتمه، بل يبسط جناح عفوه حتى على من لم يَعرِف قدرَه أو يقدّر صنيعَه.. وهو -إذا جَدّ الجِدّ- الصّوّال في ميادين الرجال، الجوّال في مواقع المقارعة والنزال ببسالة منقطعة النظير. ولو أن السيوف نالت من أطرافه قَطعًا وبترًا، والرماح دكّت جسده طعنًا وفتكًا، ولو أن الجراح أثخنته من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، وصبغت ملابسه بصبغة العَلَم الأحمر، وتكسّرت رماحه في يديه، وباتت سيوفه لا تقطع.. أجل، حتى في تلك اللحظة، فإنه سوف يهمز جواده، مقتحمًا به الصفوف، طعّانًا للصدور، حصّادًا للرؤوس ومزلزلاً قلوب الظَّلَمة بزئير كزئير الأسود المزمجرة.

إن بطل الروح هذا، يؤمن يقينًا أن كل شيء ما خلا الله زائل، لذلك لا ينحني أمام أحد، ولا يركع إزاء أي شيء، ولا يغرّه أيُّ إغراء مادي؛ بل يقيّم كل ما يملكه، ويسخّر كل ما لديه لرفع كلمة الإسلام، مشحونًا بمشاعرِ رجال الآخرة وتصورات أبناء الخلود. فهو متواصلُ الغوص والتقليب في أعماق الحوادث والأشياء بحثًا عن الحق والحقيقة.. قد فرّغ كل وقته ووظّف كل طاقته لتحقيق سعادة الأمة، مولِيًا عناية خاصة بالمواقع التي يراها أشدّ حيوية وأكثر جدوى للأجيال القادمة، موقِفًا نفسه عليها قائلا: "لِتَحيَ الأجيالُ القادمة".. ثم يمضي -وقد أدى واجبه- لا يلتفت إلى الوراء ولا يلوي على شيء.

إنه يسعى ليل نهار ابتغاء مرضاة الحق تعالى منقّبًا عن الصدق الخالص. فلا الرغبة في الاستمتاع المادي تثنيه عن وجهته، ولا تألقُ

الروح بالكرامات الخارقة تعكّر صفاء نظرته. يؤمن أن العبودية لله أعظم قيمة في الوجود. وفي ضوء هذا الميزان يرى أبسط العِباد أعظمَ منه مرتبة وأسمى منزلة، وبالتالي يُنزلهم منزلة التاج من الرؤوس. وإذا ما لفحه هؤلاء بنيران من الغلظة والخشونة والإنكار وعدم التقبل، فإنه يمتص لفحَ تلك النيران ويحتويها في صدره إلى أن يَخمد أوارُها. وهكذا يقدم مثلاً أعلى في المنهج والسلوك، ويعلّم هؤلاء الذين لا علم لهم بالأصول ولا الأسلوب أدبَ درء السيئة بالحسنة. أجل، في عالمه الدافئ الناعم الرقيق ترِدُ الصواعق والبوارق على قلب من نور، فتولد من جديد وتنمو في قلب النور لتضيء العيونَ والقلوبَ بوهج النور.. وفي عالمه المبتهج بالأنوار تتحول ألوان شتى من النيران النمرودية المتعاقبة إلى برد وسلام في كل حين، لتنفح النفوسَ الخشنةَ المتمردةَ رقّة وأنسًا.

يبدو أننا -ولا سيما البعض منا- لم نفلح في السموّ إلى هذا المرتقى من الاستواء والنضج بعد. ولأننا كذلك، لا نحسن دفع السئية بالحسنة، بل نواجهُ العنفَ بالعنف، والحقدَ بالحقد، والخشونةَ بالخشونة نفسِها؛ بل ونقع في خطأ كبير عندما نظن أهواءنا أفكارًا، ونخلط بين عواطفنا الذاتية وكفاحنا الذي نكابده باسم الإسلام، ولذلك نتكبّد خسائر فادحة في أغلب الأحيان بعد أن كنّا سائرين في مواطن الكسب ومواسم الربح.

لولا جمال الإسلام الذاتي وجاذبيته الأصيلة، ولولا نفَسُ القرآن الذهبيّ الذي يبعث الحياةَ في النفوس.. لَتعذّر مع أدائنا الناقص الرديء، وتمثيلنا الواهي المتداعي، أن تَبلُغ هذه الأمانةُ المقدسةُ وتلك الدعوةُ النبيلةُ إلى ما بلغته اليوم.

الإنسان الجديد[1]

(مارس ١٩٩١)

لقد دار الزمانُ دورتَه ودالت بالأمم أيامُه ودولتُه حتى أصبحنا على مشارف قرن جديد منفتح على مفاجآت وألطاف من العناية الربانية. لقد كان القرن الثامن عشر -بالنسبة لعالم المسلمين- قرن المبتعدين عن جوهرهم المغمورين في تقليد أعمى؛ وكان القرن التاسع عشر، قرن الذين انجرفوا خلف شتى أنواع "الفانتازيات" وأعرضوا عن ماضيهم ومقوماتهم التاريخية؛ والقرن العشرون، كان قرن المغتربين عن أنفسهم كليا والمنكرين لذواتهم وهويتهم، قرن الذين ظلوا يُنقّبون عن مَن يهديهم وينير لهم الدرب في عالم غير عالمهم. ولكن جميع الأمارات والعلامات التي تلوح في الأفق تؤكد أن القرن الواحد والعشرين، سيكون قرن الإيمان والمؤمنين، وعصر انبعاثنا ونهضتنا (Renaissance) من جديد.

أجل، سيولد من بين هؤلاء الذين هجروا العقل والتفكير مندفعين خلف "موضات" فكرية دخيلة دون أي تمحيص، ومن بين الجماهير الفاقدة لوَعيها، الهائمة على وجهها، إنسان جديد بكل ما تعنيه الكلمة،

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد الحادي عشر، (أبريل - نونيو) ٢٠٠٨. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ١٤٦ (مارس ١٩٩١)، تحت عنوان: (Yeni İnsan). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

يفكر ويقارن، يوازن ويدقق، يعتمد على التجربة قدر اعتماده على العقل، ويؤمن بالإلهام والوجدان قدر إيمانه بالعقل والتجربة. يتوق إلى الأفضل والأرقى في كل شيء، ويجيد القراءة الكلية والنظرة الشمولية. إنسان يسمو بالموازنة بين الدنيا والآخرة، ويتقن الجمع بين العقل والقلب فيمثل نموذجا فريدا.

لن تكون ولادة هذا الإنسان هينة يسيرة بلا شك؛ بل ستكون مصحوبة بآلام وأوجاع وصراخ وأنين، شأن كل مخاض. ولكن حين يأتي موسمها، فسوف تتم تلك الولادة المباركة حتما، ويظهر "جيل قَمَريّ الطلعة" بيننا فجأة كظهور الخضر عليه السلام. سوف يولد كما تولد الرحمة من بين سحائب اشتد بها الكرب فانكمشت وتراكمت وتقلصت ثم انهمرت؛ سوف ينبثق كما تنبثق المياه العذبة من باطن الأرض بعد طول معاناة تبعث الري والحياة؛ سوف يتفتح كما تتفتح أزهار الثلج حيث ينحسر الجليد تنتشر باسمة مشرقة؛ سوف يتربع على قلوبنا كما تتربع قطرات الندى على أوراق الزهور تتخذها عروشا لها زمن الربيع. أجل سوف يبزغ الإنسان الجديد لا محالة، إن اليوم أو غدا.

الإنسان الجديد صاحب "شخصية" قوية تسامت على المؤثرات الخارجية بشتى أنواعها، وصممت على نهوضها الذاتي وكفاءتها الذاتية. لن يستطيع شرق ولا غرب أن يأسره أو أن يضع سلاسل في قدميه، ولن تستطيع أفكار أو فلسفات تناقض جذوره الروحية أن تغير وجهته أو تحيد به عن طريقه أو تغرقه في ظلماتها، بل ولن تزحزحه قيد أنملة.

الإنسان الجديد حر في تفكيره، حر في تصوره، حر في إرادته، وحريته مرتبطة بقدر عبوديته لله ﷻ. الإنسان الجديد لا يسعى إلى التشبه بالآخرين ولا يلهث وراءهم ليكون مثلهم، بل يسعى إلى

أن يُشبِه ذاتَه، ويتزوّد بمقوماته التاريخية. الإنسان الجديد مشحون بالفكر، متوقّد بعشق البحث، مفعم بالإيمان، منفتح على الوجدان، متشبع بمواجيد الروح ولذائذها... يعمل على بناء عالمه بجهد منقطع النظير، مفيدا من إمكانات عصره إلى أقصى حد، مستوعبا -كذلك- قيمه الوطنية ومبادئه الروحية.

الإنسان الجديد يؤمن كما آمن أهل العزيمة من رجالات تاريخه المجيد، يفكر كما فكروا، ينطلق -كما انطلقوا- يحمل أنفاسه إلى كل مكان في العالم، يقتحم الظلمات -كما اقتحموها- يقذف الأنوار في قلبها. وهو إذ يؤدي واجبه بصدق لا يتخلى عن فكرة الحق في أي لحظة وفاء للحق. يتألم ويئن، يموت ويحيا من أجل إحياء الحق وإنهاضه، وإنه على استعداد -دائما- للتخلي عن الغالي والنفيس من أجل ذلك. سعادتُه الشخصيةُ ليست بغيتَه أو همَّه على الإطلاق؛ هَمُّه الوحيدُ ألا يهدر بذرة واحدة من البذور الصالحة التي منحها له الحق تعالى، ينثرها بعناية فائقة على سفوح العناية الربانية من أجل مستقبل الأمة القريب والبعيد؛ يرتقب مخاضا جديدا، يتلوى ويئن ويقلق كالطائر الحَضون، يبتهل إلى المولى ﷻ في رجاء، يموت ويحيا في اليوم ألف مرة ومرة.

السير في سبيل الحق والفناء فيه غايته الوحيدة في الحياة، وانفلات هذه الغاية من بين يديه -في نظره- خسارة لا يمكن تلافيها.

الإنسان الجديد يستخدم جميع وسائل الاتصالات الحديثة؛ كتباً وجرائد ومجلات، وإذاعة وتلفازاً ومنشورات لكي يصل بمُثُله وتصوراته إلى العقول والقلوب والأرواح والمشاعر، ويُثبِتَ كفاءته مرة أخرى، بل ويسترد مكانته المسلوبة في التوازن العالمي من جديد.

الإنسان الجديد عميق في جذوره الروحية أيما عمق، غزير المواهب متعدد الاهتمامات في علاقاته مع العالم الذي يعيش فيه. إنه صاحب القول الفصل في كل ميادين الحياة من العلم إلى الفن ومن التكنولوجيا إلى الميتافيزقيا، وهو أهل خبرة ومراس في كل ما يخص الإنسان وقضايا الإنسان.

إنه عاشق لا ينطفئ ظمؤه إلى العلوم مهما نهل، مولع بالمعرفة ولعاً لا يفتأ يتجدد كل حين، عميق بأبعاده اللدنية تعجز العقول عن تصورها. وهو بهذه الخصال السامية مؤهَّل ليكون رفيق درب سعداء عصر السعادة (رضوان الله عليهم أجمعين) وينافس سكان الملإ الأعلى في سباق معراجي جديد كل يوم.

الإنسان الجديد متشبع بحب الوجود، حارس للقيم الإنسانية محافظ عليها. إنه ذاتي -من جهة- يحدد موقعه في الحياة ويبني ذاته على مبادئ الأخلاق وقيم الفضيلة التي ترقى بالإنسان لتُخرِج منه إنسانا حقيقيا، وكوني -من جهة أخرى- يستوعب الوجود كله بقلبه الكبير وشفقته الواسعة، ويسعى إلى إسعاد الآخرين دوما. يختار لنفسه كيف يكون، ويتأمل في إخوانه من البشر كيف يتعايش معهم، وفي الأشياء كيف يتعامل معها، يصمِّم من أجل ذلك خطة بعد أخرى ويضع فكرة تلو فكرة، ويشرع في تنفيذها حين تسنح الفرصة ويتوفر الإمكان.

الإنسان الجديد يحمي كل ما هو نافع وإيجابي في مجتمعه ويحث الناس على حمايته، يشنّ حربا ضروسا على كل ما هو ضار وسلبي، ويظل مشدودا كالقوس حتى يقتلع تلك الفيروسات من جسم المجتمع. إنه يؤمن حقا، ويعرف معنى الإيمان، ومن ثم يحث الجميع على تذوق حلاوته. العبادة -عنده- جمال وهو لسانها

الجهوري. يقرأ الكتب التي ينبغي أن تقرأ ويوصي بقراءتها. يساند الصحف والمجلات التي توقّر جذورنا الروحية وأصولنا الذاتية. لا يبرح ينتقل من شارع إلى شارع آخر يحمل ما يحتاج إليه أبناء أمته يروّج له وينشره دون كلل أو ملل، ليضرب بذلك المثل الأعلى في تحمّل المسؤولية والقيام بحقها.

الإنسان الجديد يملك روحا إبداعية ترفض النمطية بكل أشكالها. يعرف كيف يجدد ذاته مع احترام الجوهر، ويعرف كيف يروّض الأحداث فتنقاد لكلامه راضية. يسير أمام زمانه على الدوام، يجري بهمة تتجاوز حدود إرادته، يحدوه الشوق والحماس، وتملؤه ثقة بالله عظيمة. إنه مثال للتوازن بين الأخذ بالأسباب والاستسلام لرب الأسباب؛ مَن رآه دون معرفة به، ظنه -من جهة- عابدا للأسباب في أخذه لها، أو ظنه -من جهة أخرى- قدريا في تركه لها كلية؛ بينما الحقيقة ليست هذه ولا تلك.. الإنسان الجديد، بطل التوازن بكل ما تعنيه كلمة التوازن من معنى؛ فهو يرى أن الأخذ بالأسباب من واجبه كعبد، والتسليم للحق تعالى من صميم إيمانه بمسبب الأسباب.

الإنسان الجديد فاتح ومكتشف معا. ينصب رايته كل يوم على أبراج جديدة في أعماق ذاته وفي آفاق الكون الشاسعة، ويلح على طرق أبواب الآفاق والأنفس دوما. وكلما اكتشف جديدا في ما وراء الأشياء -بفضل إيمانه وعرفانه- ازداد شوقا وتوقدا، وظل يتنقل بخِبائه من أفق إلى آخر في الماوراء وما بعد الماوراء. وأخيرا يأتي يوم تبوح له الأرض بما تخفيه في باطنها، وتنفلق البحار بعصاه السحرية تنثر بين يديه الدرر المكنونة في أعماقها، وتفتح له السماء أبوابها على مصاريعها تدعوه إليها تحية وتقديرا.

الوعي الجمعي[1]

(نوفمبر ١٩٩٤)

إن أشد الفترات تأزّمًا في حياة الأمم هي الفترات التي تعيش فيها حالة تغيّر اجتماعي، وتعيد فيها تشكيل بنائها الذاتي من جديد. وإن حالها في هذه الظروف تشبه حال الأحياء التي تدخل مرحلة "تحول بيولوجي"، حيث إنها طوال عملية التجدد تتقلب وسط أوجاع مخاض مرهقة، وتقاسي كروبًا مضنية، وتكابد آلاما متتالية لكي تبعد عنها البالي المضر، وتُطوّر بدلاً منها الجديد النافع. كذلك لا مناص في فترات التحول الاجتماعي وبسبب الأحداث التي تثير حالة توتر لدى الجماهير.. لا مناص من الوقوع في براثن الأزمات سواء على مستوى الفرد أم المجتمع. وإذا تجاهلت عمليةُ التخطيط والبناء "ثوابتَ" أبرزت جدارتَها مرارًا عبر اختبارات عديدة، فسوف تزداد الأزمة تعقيدًا وتؤدي بالمجتمع إلى أخطاء فادحة. إذ قد يقع العقل -في هذه الأحوال- صريع العاطفة؛ وقد تنفلت الأوضاع فيؤدي ذلك إلى انحراف عن الخطط المرسومة، طبعًا إن كانت هناك خطط

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٢٥، (يوليو - أغسطس) ٢٠١١. ونشر لأول مرة في مجلة سيزينتي التركية، العدد ١٩٠ (نوفمبر ١٩٩٤)، تحت عنوان: (Kolektif Şuur). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

مرسومة؛ وقد يتلاشى التناغم العام كليًّا نتيجة حلول مؤقتة ضيقة أو مشاريع صغيرة قاصرة، فيواجه المجتمع نتائج مرعبة -لم تكن في الحسبان- في عكس اتجاه الخطط المرسومة والآمال المنشودة؛ وبالتالي قد تندفع الجماهير وكذلك القيادات التي توجّهها -كما نلاحظ ذلك كثيرًا- إلى تصرفات عاطفية طائشة في مواقف تقتضي تعقّلا وتبصّرا وتدبيرا، ومن ثَمَّ يؤدي ذلك إلى أصناف شتى من الهدم والتخريب في مرحلة البناء والتكوين.

إن الشعوب والأمم كثيرًا ما تجد نفسها أمام "ملتقيات قدَرية" إبان فترات إعادة البناء ومخاض التحوّلات. تلك "الملتقيات" قد تحمل في طياتها إمكانات الرقيّ والتألق الباهرَين، وقد تنتهي بها -بسبب اندفاع الجماهير وجشع المتمركزين في القمم- إلى انهيار فجائي لكل ما تم بناؤه حتى تلك اللحظة، والعودة إلى نقطة البداية من جديد؛ وتلك لعمري مأساة قلّما خلت منها حقبة من الزمان.

وجدير بالذكر هنا، أن الفرد في فترات التغيّر والتحوّل تعتريه حال مغايرة لحاله التي كان عليها في أيامه الطبيعية، إذ ينسلخ هنا من حالته الفردية انسلاخًا تامًّا، ويتقمّص قميص "سيكولوجية الجماهير"، يتحوّل إلى كيان جماهيري، ويصير جزءًا لا يتجزأ من الحشود التي تندفع سيلا هادرا نحو اتجاه واحد تبتغي الوصول إليه ولا ترضى عنه بديلاً.. وفي سبيلها تلك تجرف كل ما حولها، وتدفع كل ما يعترض سبيلها بغية الوصول إلى هدفها المنشود. إن الأفراد الذين تعرضوا لتحوّل ذهني كهذا، لا يستطيعون أن يعملوا بعقلية الفرد المتثبّت الممحّص البصير، بل يندفعون مأخوذين بـ"سيكولوجية

الجماهير" وعقليتها، منقادين لتوجيهاتها، منصاعين لأوامرها.

وإن هذا النمط من العقلية "السيكولوجية" ومفرزاتِها يختلف تمام الاختلاف عن نمط عقلية "الوعي الجمعي" ويتناقض معه تمام التناقض في مقاصده ومآلاته. إذ إن نمط "الوعي الجمعي" ينبني في أصله على التعقّل والتمحيص والتثبّت والتروي، وملاحظةِ الحاضر والمستقبل معًا في التقدير والتدبير، ومعاينةِ الجزء مع الكل جنبًا إلى جنب في آن واحد. ومن ثَمَّ كنا وما زلنا نحض على هذا النمط من الوعي وننصح به باستمرار. فبينما تطغى على النمط الأول عواطف غير منضبطة وحماس غير متزن وانفعالات غير منتظمة، يتألق في النمط الثاني تعقّل وتبصّر وانضباط وانتظام وحذر وتثبّت. وقد يبدو كلا النمطين من التفكير والسلوك متشابهين للوهلة الأولى من حيث الصورة الحركية والوعود المستقبلية التي يبشران بها، إلا أنه في النمط الأول يستحيل تجنُّبُ وقوع عواقب تتناقض مع جوهر الحركة وأهدافها، في حين أنه في النمط الثاني لا مكان للتعثّر والانتكاس والفشل بالقدر نفسه على الإطلاق.

إن "الوعي الجمعي" يحمل في أعماقه أسباب وجودنا وأسرار بقائنا أمة، إذ يستقي مادة حياته من منبع ثقافتنا الدينية وهويتنا الذاتية، وبفضله تتناغم مكارم الأخلاق مع الحياة الاجتماعية. إن الأفعال التي تصدر عن أبناء "الوعي الجمعي" تنسجم فيها العاطفة الجياشة مع السلوك الواعي المنتظم، والحيوية المتدفقة مع الإقدام المتبصر المتزن. وإذا ما تم تثمين هذه الأفعال في "فترات التحوّل" فإنك لن تجد ميزانًا يستطيع أن يوفيها قدرها، لأنها تبلغ قيمة ما بعدها

قيمة بالدور العظيم الذي تقوم به. وشتان بين قيمتها في الظروف الحرجة وقيمتها في الظروف العادية. أما الأفعال التي تصدر عن حشود مندفعة بـ"سيكولوجية الجماهير" فإنها لا تخلو من أخطاء كبيرة واضطرابات مدمرة.

إن المبادرات والمشاريع التي تستهدف مقاصد سامية وغايات عالية، تسمو بأبنائها من حال إلى حال، وترقى بهم من درجة إلى أخرى، تظل تشحذهم وتصقلهم حتى تنضجهم وتجعل منهم كيانات متوحدة في مجموعة واحدة، وتُخرج منهم أممًا في أفراد.

إن أصحاب المشاريع الكبرى إذا نجحوا -أثناء إنجاز مشاريعهم- في أن يقدّموا العقل على العاطفة، والتجربة والملاحظة على السلوك الحماسي، وأن يحيطوا مشاريعهم بأنوار الرسالة الربانية.. إذا نجحوا في ذلك فسوف تدخل الحشود المندفعة بالعاطفة تحت تأثير تلك الحركة الحكيمة المتثبتة المتوازنة، تنخرط في سلكها، وترقى في تحركها إلى موقع التعقّل والاتزان والانضباط، فتلتقي مع أرباب الاستقامة وأهل الاعتدال على خط واحد.. وهنا بالتحديد سوف يَبرُز "أربابُ المستوى" ممن تفوّقوا على الجماهير تبصّرًا وحكمة وفكرًا ليتفاعلوا معهم ويقاسموهم عواطفهم الجياشة وحماسهم المتدفق، وسوف يظهر فضاء مركّب عجيب من حركة العقل والعاطفة.

وعليه، فإن الأفراد الذين لا يستطيعون -بحكم مزاجهم البشري- أن يكونوا رجال تعقّل واتزان في كثير من الأحيان.. بعد تسرّب هذا الفهم الحكيم إلى وعيهم وشعورهم وتشربهم له، وبعد تقلّبهم في بوتقة "الوعي الجمعي" وانصهارهم فيها، وبعد قبولهم هذه

"الخميرة" الحيوية واستيعابهم لها، ودخولهم في مراحل تحوّلية جوهرية وتَشكُّلِهم فيها.. سوف يتسامون إلى مرتقى عال وفضاء واسع يصبحون فيه أبناء مثاليين لمجتمع مثالي.

إن جميع التحوّلات التي تحصل في هذه الوتيرة الكريمة، قد لا نجد لها تفسيرًا معقولاً للوهلة الأولى، وقد تبدو لنا وكأنها تحدث في عالم من الخوارق بدفع من قوى غامضة خفية؛ بينما يمكن إرجاعها جميعًا إلى مرجعية أساسية حيوية، هي هويتنا الذاتية وشخصيتنا الثقافية المعنوية التي نهلت من روح الدين وتغذّت بجوهره وتشبّعت بحقائقه الخالدة.

وإنه لمن الحقائق الكبرى التي لا تقبل الشك والمراء، أن أبناء أمتنا النجباء، بفضل هويتنا الذاتية هذه، قد اجتمع شملهم والتأم شتاتهم حول فكرة واحدة وعاطفة واحدة مرات عديدة طوال التاريخ؛ فانتظمت صفوفهم على غايات متبادلة وأحلام مشتركة، وخفقت قلوبهم بنفس المشاعر والآمال، ودافعوا جنبًا إلى جنب عن القيم السامية ذاتها، وكافحوا صفًّا واحدًا من أجل المبادئ العالية نفسها، واستبقوا فيما بينهم دون توقف أو فتور لتحقيق الرؤى المنشودة والمقاصد السامية عينها.

صحيح أن هناك عوامل ودوافع أخرى لها سلطان على الأفراد والجماعات ولها تأثير على سلوكهم، ولكن عندما تتصل الأمة بجذورها الروحية وتُحكِم صلتها بأصولها الوجدانية، فلسوف يتلاشى تأثير تلك العوامل، ويبهت دورها، ويضعف وزنها. وإذا كانت وشائج الارتباط بين أبناء الأمة ومقوماتها التاريخية -المادية

منها والمعنوية- وثيقة متينة مستمرة، فسوف يحلّق هؤلاء الأبناء الأوفياء نحو فضاءات الماضي الزاهر، وتتفاعل مشاعرهم القلبية بمشاعر أجدادهم النبلاء، ويندمجون معهم في جيشانهم الروحي وتألقهم الوجداني -بدفع قويّ من الوعي بالتاريخ- فتلتقي التصورات وتتوحد الآمال.. فيحققون بطولات تضاهي بطولات أولئك الأجداد، ويبدعون في تطوير أنظمة فكرية، ورؤى عالمية، ومبادئ ومشاريع جديدة تحمل قدرة التأثير على المجتمعات البشرية في كافة بقاع الأرض. ويمكننا أن نذكر لذلك نماذج بطولية عديدة في باب تاريخنا التدافعي مع القوى العالمية الكبرى مثل ملحمة "مؤتة" ورائعة "القادسية" ومعركة "مالاذْكُرْد" وأسطورة "جَنَقْ قلعة"... كما يمكننا أن نذكر عواصم عديدة في باب التذكير بموقعنا المرموق في الموازنات الدولية من خلال الخط التاريخي الذهبي الممتد من المدينة المنورة إلى الشام، ومن الشام إلى بغداد، ومنها إلى إسطنبول. نكتفي بهذا القدر هنا، اعتمادًا على فراسة القارئ وغزارة مادته المتعلقة بهذا الشأن في خزانة تداعياته التاريخية.

لقد دخلنا في هذه الأيام مع الأمم والشعوب المرتبطة بنا في سلسلة من التحوّلات والتغيّرات. وإذ نسير نحو مستقبل حافل بتحوّلات متلاحقة وتقلّبات متتالية، فإنه من الأهمية بمكان الحفاظُ على روح الأمة وهويتها الذاتية، وإقرارُ الفرد والجماهير على محور التعقّل والتبصّر والاتزان في التفكير والتخطيط والتدبير، وعدم إتاحة الفرصة لأيّ نوع من أنواع التفكير الفوضوي والسلوك الاستفزازي الذي من شأنه أن يثير الحشود الجماهيرية إلى تصرفات عشوائية

مجهولة العاقبة.. وفي حال وجود بؤر استفزازية ينبغي التصدّي لها فورًا. وإنّ اتباع هذه الخطوات واتخاذ تلك التدابير مهم جدًّا بقدْر أهمية الإرشاد إلى الله ﷻ والجهاد في سبيله، بل قد يكون أهم منهما وأخطر في الظرف الراهن بالذات. ولا يَغيبنّ عن البال أبدًا أنه من السهولة بمكان، أن تتحوّل الجماهير الحاشدة من الألفة إلى البغض، ومن الوحدة إلى التفرّق، ومن التحرّك المشترك إلى الفوضى والتمزّق. لذا ينبغي ألا تتاح الفرصة لأفراد الحشود العشوائية في أن يجرفوا أنفسهم والأمة التي ينتمون إليها، نحو عواقب مأساوية بسبب معالجات متعجلة متسرعة، أو تحت تأثير بعض النفوس المولعة بالمغامرات. أجل، ينبغي التصدي لتلك النفوس المغامرة حتى لا تعبث بمقدرات الأمة؛ وبالمقابل يتطلب الموقف توجيهَ الأنظار باستمرار إلى أبطال مخلصين يمثلون روح الكتاب المجيد وجوهر السنة النبوية الشريفة. وإنك لتلمح في سلوك هؤلاء الأبطال الذين يُعتبَرون ركنًا نورانيًّا أساسيًّا من أركان "الوعي الجمعي" الذي يدور في مدار الوحي الإلهي التواضع والانمحاء ونكران الذات بدل السعي وراء الشهرة والمناصب، والإيثارَ بدل الاستئثار، والحرصَ على مصالح المجتمع بدلاً من المصلحة الذاتية.

إن هؤلاء الأبطال يحملون في جوانحهم هموم المجتمع كله.. هموم يومه وغده.. يشعرون في أعماقهم بمسؤولية تاريخية تجاه حاضر الأمة ومستقبلها. فبينما تجدهم يزأرون بأفكارهم بشجاعة منقطعة النظير حينًا، تلقاهم في حين آخر وقد اعتراهم الهمّ المقلق، وأصابهم الأرق المضني، وذهبت بهم التوجسات مذاهب شتى

حرصًا على حياة "البراعم الناشئة" من الضياع. مَثَلُهم في ذلك مثل الدجاجة الحضون تبسط أجنحتها على بيضاتها، تشمل أفراخها بالمحبة، تموت وتحيا من أجلها في اليوم مائة مرة. إنهم إذ يتعرّضون إلى أشنع أنواع التشويه والإهانات لا يردّون عليها ولو بكلمة، بل يتحمّلونها على مرارتها معتصمين بصبر جميل؛ وإذ تتفجر براكين العواطف وتثور نيران الانفعالات في أعماقهم لا يأبهون لها، بل يكظمونها ويحبسونها في صدورهم، ثم يمضون في سبيلهم كأن لم يحصل شيء. لن تُحجِم هذه النفوس المتدفقة بمشاعر سامية عن أن تُقبِل على الموت بابتسام، أو أن تضحّي بأرواحها من أجل الآخرين ببسالة مذهلة، أو أن تزجّ بنفسها وسط النيران كإطفائي شجاع بكل سعادة لإنقاذ من يستغيث بها. وهي إذ تقوم بهذه البطولات الفريدة يتوهج ألق الشعور بالمسؤولية على ملامحها، وتتجلى لذة العبودية وخشوعها على سلوكها. إنهم لا ينتظرون جزاءً ولا شكورًا مقابل تضحياتهم النبيلة، بل لو استنجدهم أحد فلم يسرعوا إلى نجدته في الحال عدُّوا ذلك جريمة لا تغتفر، واعتبروا أنفسهم غير أوفياء، وبادروا إلى محاسبة أنفسهم وتعنيفها.

قلوب هؤلاء المخلصين تخفق بالأمل في كل وقت. لا يقصّرون أبدًا في استثمار الطاقات والإمكانات المادية والروحية التي تدعم مشاريعهم وتحقق خططهم التي رسموها وفقًا لخريطة آمالهم معتبرين إنجازها أسمى أمانيهم. وهم في كل ذلك لا يبتغون سوى مرضاة الله تعالى والتحقق بمعاني الإخلاص المحض؛ حتى إذا ما مُنِحوا -دون سؤال منهم- مكافأةً مادية أو تنزّلت عليهم مواهبُ

روحية وموارد وجدانية لقاء خدماتهم أو مكابداتهم، فسوف يترددون بين هواجس الخوف من أن يكون ذلك استدراجًا من الله وابتلاء، وبين فرحة نوال النعمة العظمى والإعلان عنها؛ فتجد عباراتهم تتراوح بين مشاعر الخوف والرجاء.. فهي وجِلة مرتعشة متعثرة عند شعورهم بالخوف.. مشرقة مبتهجة ممتلئة ثقةً بالله ﷻ عند إحساسهم بالرجاء. وهم بين هذه المشاعر وتلك يواصلون حياتهم أبطالاً للمراقبة ورموزًا للتبصّر واليقظة.

هؤلاء المتيّمون ليسوا رجالاً مستسلمين متواكلين سلبيّين أبدًا. فبالإضافة إلى توكلهم الكامل على الله ﷻ، وتسليمهم الخالص له، وتفويضهم التام إليه، فهم منتبهون إلى ما يجري حولهم من وقائع أشد ما يكون الانتباه، حساسون تجاه ما يحدث في الساحة من تحوّلات وتقلّبات أشد ما تكون الحساسية؛ بل ويتخذون إزاءها مواقف واضحة وحاسمة، ويتفاعلون معها تفاعلاً حكيمًا وبصيرًا. فهم لا يتعثرون بعواطفهم أبدًا، لا في شؤونهم الدنيوية ولا في شؤونهم الأخروية.. يزِنون كل حركاتهم وسكناتهم بموازين الأوامر الإلهية.. يراعون مستوى الفهم البشري في مقولاتهم وخطاباتهم وتفسيراتهم، ومن ثَمَّ تأتي قراءتهم ورؤيتهم لحقيقة الكون منسجمة مع الفهم البشري. يدرك هؤلاء الحكماء موقع الإنسان من الكون حقّ الإدراك، ويعرفون مكانته حقّ المعرفة. يبتعدون عن كل فعل يؤدي إلى الاصطدام مع فطرة الأشياء وطبيعة الأحداث، ويسعون دائمًا إلى أن يكونوا متوافقين متآلفين مع السنن الكونية.

هذا، ولكي نسير بخطوات واثقة إلى المستقبل المشرق الذي

نؤمّل أن يكون لنا، ننبه فيما يلي إلى قضايا في غاية الأهمية والحيوية؛

• ينبغي على الأمة جميعًا وبالأخص على النخب والمثقفين منها، أن يؤسّسوا "سَلامًا" بينهم وبين تاريخهم.

• ينبغي أن يتم التخطيط لكل حركة تجديدية وعملية تغييرية وُضِعت من أجل إنشاء المستقبل، بناءً على مقوماتنا التاريخية وجذورنا الروحية.

• ينبغي ألا تُشوَّه قضية حيوية كهذه بأغراض سياسية وألا تُلوَّث بمطامع فردية أو مصالح فئوية.

• يجب أن يوضع في الحسبان أن المساعي والجهود التي تصبّ في هذا الاتجاه قد تعترضها بعض المضاعفات الجانبية المفاجئة حتى وإن تم اتخاذ كل التدابير اللازمة. ومن ثَمَّ ينبغي السير بحكمة وبصيرة؛ كما ينبغي عدم إتاحة الفرصة لعواطف طفولية طائشة قد تبدر من بعض الشباب العابث، أو لتصرفات غير مسؤولة قد تصدر عن بعض عشاق المغامرات؛ بل حتى لو أُهِينت كرامتُنا، فسوف نكبح جماح عواطفنا، ونُحكم السيطرة على أَزِمّة انفعالاتنا، ونَصُرّ على أسناننا، ونحتمي بالصبر، إكرامًا لغايتنا السامية وآمالنا المنشودة.

• قبل أن نهدم بنيانًا ما، ينبغي أن نكون قد حسمنا قرارنا حول ما سيُبنَى مكانه. فإذا كان ذلك واضحًا وضوحًا تامًّا، عندئذ يمكن الشروع في هدم البنيان القديم المتداعي. وإنّ مبدأنا في هذا الشأن هو "نَهدم لِنَبْني"، ومن ثَمَّ فقبل أن نضرب أول معول على المبنى الذي نريد هدمه، ينبغي أن يكون "نموذج البنيان الجديد" جاهزًا حاضرًا أمام أعيننا.

• إن جميع القرارات وكافة الأفعال المتعلقة بأي مشروع في هذا الإطار، ينبغي أن تُزوَّد بالعلم والخبرة والمعرفة والتخطيط؛ وكل مسعى وكل مبادرة ينبغي أن تدعم بالدراسات العميقة والبحوث الدقيقة والاستيعاب الشامل حتى لا نقع في دائرة مفرغة من الهدم والبناء.

إننا اليوم في مفترق طرق وعلى "ملتقى قدَري" مرة أخرى. ففي ظل الموقف الحرج الذي نعيشه والموقع الدقيق الذي نوجد فيه، إذا استطعنا أن نستثمر المرحلة الزمنية التي نمر منها بأفكار عظيمة ومشاريع عملاقة ورؤى بعيدة المدى وعزيمة كعزيمة الأنبياء، فإن فرصتنا في رجحان كفة ميزان "الملتقى القدَري" لصالحنا أسنح بكثير -بالمقارنة مع الأمم الأخرى في العالم- لكي يبزغ نجم سعدنا متألقًا في الآفاق.

إننا اليوم نعاني من مآس حقيقية، وهشاشة اجتماعية واقتصادية، ناهيك عن الفوضى التي لا تسأم بؤرُ الفساد الداخليةُ والخارجية من إثارتها واستفزازها. لكنني على يقين تام بأننا قادرون على تجاوزها. إذ إن سنة الله اقتضت ألا تستمر وتيرة السقوط والتراجع إلى الأبد، وألا تسير عجلة الأحداث والوقائع في اتجاه واحد قط، وألا يمتد سلطان الليالي إلى أبد الآباد. فكم من مَرة دار الزمان دورته، فتألقت خرائب الديار بلآلئ العمران من جديد، وعادت يد الأحداث -التي تسير في خط دائري- توزع أزهار البسمات على البؤساء الذين أبكتهم فيما مضى، وانهزمت ظلمات الليل أمام ضياء النهار مدحورة مقهورة، ودوّت جنباتُ الكون مهللة بضحكات النور الساطعة.

سلطنة القلوب[1]

(أغسطس ١٩٩٥)

منذ ما يقرب من قرنين من الزمان والبشرية في انجراف متواصل ما بين محنة وأخرى، تحوم حول حفر الموت دومًا، وتصدمها الكوارث وهي تبحث عن الخلاص، وتعتصرها المصائب والويلات. في هذه الفترة من الزمان، كانت شهوة الربح ورغبة الشهرة ونزعة الجاه لبعض الأفراد والطبقات والفئات والشركات الكبرى وعصابات المافيا هي القوة التي تدير المجتمعات في غالبية العالم، بدلاً من الدول والحكومات. بطبيعة الحال، لم يكن مستغربًا في عالم كهذا أن يكون "معيار التقييم" في كل شيء هو كثرة المال وبذخ العيش ومستوى الرفاهية.

أجل، في عالم انقلبت فيه "القيم الحقيقية" رأسًا على عقب، كان من الطبيعي أن تقاس مكانة الناس بما لديهم من أموال، وما يجمعونه من ثروات، وما يمتلكونه من قصور صيفية وأخرى شتائية. وهذا ما وقع فعلاً. وكمصارع وقح، مدّت الثروة والإمكانات المادية ذراعيها

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٥٦، (سبتمبر - أكتوبر) ٢٠١٦م. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ١٩٩ (أغسطس ١٩٩٥)، تحت عنوان: (Kalplerin Sultanlığına Doğru). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

عاليًا في الهواء، ووطئت بأقدامها العلم والفضيلة والفكر والشجاعة معلنة بزهو وعجرفة انتصارها. ليس للثروة -في حقيقة الأمر- "قيمة" إلا عندما تلتقي مع العلم والعقل والفضيلة والشجاعة. أما إن بقيت وحدها فمن الصعب أن يكون لها أي معنى، بل قد تتحول أحيانًا إلى أداة وحشية للفتك والتدمير. إنه لمن المؤلم حقًّا أن يُنظَر في عالم اليوم إلى قيم سامية تشكل ديناميات حيوية حقيقية لأي مجتمع مثل قيم المعرفة والفكر والأخلاق والشجاعة باعتبارها نوعًا من الترف والغباء، كونها لا تحقق عائدًا ماديًا أو تجني أرباحًا ملموسة.

إن الأفراد الذين يشكلون مجتمعًا واحدًا، إن كانت مشاريعهم الحياتية تدور في فلك المتطلبات الجسدية والرغبات المادية، وحياتُهم تتقلب في أودية المتعة واللهو، وليس لهم همّ إلا تضخيم الثروات والبحث عن الملذّات.. في مجتمع كهذا لا مفر من أن يسود أفراد لا يحملون أي غاية نبيلة، محتالون، انتهازيون، فقراء حماس، جهلة، قاصرو نظر وعاجزون عن رؤية خطوتين إلى الأمام تحت أقدامهم؛ وبطبيعة الحال سيغيب عن المشهد ذوو الكفاءات الجادة النشطة وأصحاب العزائم الصلبة والمواهب العالية والشخصيات الفذة؛ وستُقصَى الفضيلة وتُنحَّى القيم الأخلاقية والجمالية جانبًا، وتبقى التجارب والخبرات بلا أي قيمة. هذا فضلاً عن تهميش الكفاءات العالية والمواهب الراقية النافعة للأمة والبلاد. ولا نبالغ إذا قلنا إن تشوّهًا من هذا القبيل هو السائد في أغلب مناطق العالم.

إن البشرية اليوم -مقارنة بالقرون الماضية- تمتلك ثروات وإمكانات هائلة. لكنها في المقابل وقعت أسيرة رغباتها التي لا

تنتهي واحتياجاتها التي لا تنفد، وصارت فريسة لألوان من الترف، وضحية لأصناف من الإدمان بصورة لا مثيل لها في التاريخ، وتلك حقيقة لا مراء فيها. إنها اليوم كلما عاشت من أجل جسمانيتها ورغباتها المادية زاد جنونها لمزيد من التلذذ والاستمتاع؛ فكلما شربت ازدادت عطشًا، وكلما أكلت ازدادت شراهة، وباتت تتفنن في اختراع حيل وأساليب لا تخطر على البال مدفوعة برغبة جامحة في كسب أكثر، وباعت روحها للشيطان مقابل أخس الأثمان وأحط المصالح، وابتعدت عن القيم الإنسانية أيما ابتعاد.

أجل، إن إنسان اليوم الذي يُتلف أيامه لاهثًا خلف قيم مادية آنيّة، يستهلك ذخيرة عمره في حقيقة الأمر، ويتنازل عن مشاعره الرفيعة الكامنة في أعماق روحه. ففي عالم إنسان كهذا، يستحيل أن ترى عمقًا إيمانيًا أو ثراء عرفانيًا أو محبة أو عشقًا أو نفحة من نفحات الأذواق الروحانية. فكل عمل يقوم به يقيّمه من زاوية المكاسب المالية أو الرخاء المادي أو المتع الجسدية، ومن ثم يلقي بكافة المنح الأخروية والمواهب اللدنية عُرض الحائط.

إن ما يشغل فكر هذا الإنسان ونشاطه هو كيف يسلب ويختلس؟ ماذا يشتري ويبيع؟ كيف سيلهو ويستمتع وأين؟ وإذا لم تلبّ السبلُ المشروعةُ طموحاته ورغباته تلك، وعجزت عن تحقيق مكاسبه في الإطار المشروع فسيلجأ إلى كل سبيل غير مشروع، وسيستخدم كل ألوان الحيل والمجازفات، بل إذا ضاق سطح الأرض عن إشباع شهواته المروعة، فسوف يتخذ من باطنها سراديب وأنفاقًا كتلك التي تستخدمها القوارض والجرذان.

على إنسان يومنا الذي يواصل رحلته في جحور وأنفاق كهذه أن يسارع بالخروج منها، وأن يعيد اكتشاف "مساره الإنساني الذاتي". وإلا فسوف ينجرف من دوامة إلى أخرى، ويتقلب من متاهة إلى متاهة، ولن يستطيع أن يبني "ذاته" أبدًا. فإذا أنقذتَه من الشيوعية فسوف يقذف بنفسه في الفوضوية، وإذا جنّبته الإلحاد فسوف يهوي في فراغ الحلولية، وإذا انتشلته من الداروينية فسوف يتشبث بما بعد الداروينية، وسيبقى هكذا نمطيًا دائمًا وبلا هوية، يجاهد باستماتة ليبقى ذيلاً بدلاً من أن يكون قائدًا.

لهذه الأسباب، فهو يستهلك حياته منذ بضعة قرون في دوامة من الأزمات؛ فإنْ تخلّص من أزمة سياسية أو إدارية سقط في أحضان أزمة أخلاقية، وإن نجح في الخلاص منها تورط في شبكة من الأزمات الاقتصادية، وإن لملم شتاته وحاول الخروج منها ألقى بنفسه في معترك أزمات عسكرية، وهكذا يظل يدور في حلقات مفرغة يستهلك طاقاته ويبدد قدراته بـ"سلبيته" تلك. وليس من سبيل -فيما أحسب- للخلاص من هذه الدوامة القاتلة سوى أن نراجع مواقفنا من جديد حيال بعض الديناميات الدينية والوطنية والتاريخية كالإيمان والمحبة والأخلاق والرؤية الميتافيزيقية والعشق والتربية الروحية.

فـ"الإيمان" معرفة الحقيقة كما هي، أما "المحبة" فنقل تلك المعرفة إلى الحياة. والذين حُرموا الإيمان لا يمكنهم أن يجدوا الحقيقة المطلقة أو يعرفوها. فإذا قال أحد هؤلاء "آمنتُ" فإن ذلك مناقض لعالمه الداخلي، وإذا قال "وجدتُ" فإن ذلك نوع من التضليل. سيئو الحظ أولئك الذين لا يؤمنون، وأجساد بلا روح

أولئك الذين لا يحبون. فالإيمان أهم مصدر للفاعلية، والإيمان يعني احتضان الروح للوجود بأكمله واستيعابَها للكائنات كافة، والمحبةُ هي العنصر الأساس للفكر الإنساني الحق، وهي كذلك بُعده الميتافيزيقي. وعليه، فإن الأبطال الذين يتحملون مسؤولية زرع فسائل ثقافتنا الذاتية ورعايَتها وإنماءها في السنوات المقبلة ينبغي أن يتجهوا إلى محراب الإيمان أولاً، ثم يسيروا نحو منبر المحبة، وينطلقوا بعد ذلك لينشروا أنفاس المحبة في كل أصقاع الأرض. وهم إذ يقومون بمهمتهم تلك، يجدر بهم أن يعلموا أن سر تأثيرهم كامن في عمق سلوكهم الأخلاقي وتشرّبِهم لقيم الفضيلة السامية.

أما "الأخلاق" فهي جوهر الدين وأساسه، وأهم أعمدة الرسالة الربانية. وإذا كان الالتزام بالأخلاق والفضيلة بطولة -وهو كذلك- ففرسان هذا الميدان وأبطال حلبته هم الأنبياء ومن سار على دربهم بإخلاص. إن أبرز ما يتسم به المسلم الحقيقي أن يكون ذا أخلاق عالية. فالمتأمل بنور العقل وعين الحكمة في القرآن آية آية وفي السنة فصلاً فصلاً لا يجدها كلها إلا أخلاقًا. وقد عبر عن هذه الحقيقة العظمى أوجز تعبير وأوفاه القامةُ السامقة والخُلُق المجسَّم ﷺ حينما قال: "الدين حسن الخلق".

إننا كأمة أبناءُ منظومة أخلاقية رفيعة. ولا يمكن لأي تصور أو "فنتازيا" فكرية أن تزعزع أخلاقنا، بل لا ينبغي أن يحدث ذلك أصلاً؛ فحُلمنا أن نتجاوز الدُّنَى بالأخلاق، ونحلّق بها إلى الآباد. إننا نؤمن بأننا سنحقق ذلك بطاقتنا الميتافيزقية التي تعد بعدًا آخر من منن الله وألطافه علينا.

و"الرؤية الميتافيزيقية" هو ما ينفتح فيها العقل على الوجود بأكمله، ويسعى إلى فهمه واستيعابه بما ظهر أمام الستار وما توارى خلفه. فإذا ما ضلّ العقلُ أو الروحُ هذه الرؤيةَ الاستيعابية للوجود تمزق كل شيء وتناثر، وغدا شخوصًا بلا روح. ومن ثم فنفي الفكر الميتافيزيقي أو إنكار وجوده إفلاس للعقل. إذ الحقيقة أن كل "تركيب" حضاري كبير نما وترعرع في أحضان الفكر الميتافيزيقي. بدأ كذلك في شبه القارة الهندية وباقي المناطق الشرقية؛ وهو كذلك في عالمنا الذي نشأ وازدهر في ضوء الرؤية الكونية للقرآن التي ولّدت على أثرها حضارات زاهرة متعاقبة. وبما أن الرؤية الميتافيزيقة تتضمن انفتاح الروح على الوجود، واستيعابَها للطبيعة، واحتضانَها للكائنات كافة، فهل يدري الذين يقيمون حربًا بين الميتافيزيقا والعلوم أنهم يحدثون تصادمًا بين الشلال والمنبع الذي انبثق منه؟

الميتافيزيقا هي استشعار حقيقة الوجود بـ"عشق". وبالتالي فالعشق هو الشعور بالكائنات كلها، والشعور بما يدور في الوجود من حراك منتظمٍ متسلسل متناغم، والشعور بالحب إزاء كل ذلك جميعًا. نعم العشاق الحقيقيون لا يسعون إلى مال أو جاه، ولا يرغبون في شهرة أو مقام. إنهم يستنشقون "بردًا وسلامًا" وسط عواصف العشق التي تحرق قلوبهم وتذروها رمادًا، ويطالعون سيماء من أحبوه في صفحة صور الزوال المتتابعة، ويتفقّدون معشوقهم وسط رماد كيانهم المحترق المتناثر، إلى أن ينعموا بوصال المحب بالمحبوب، والطالب بالمطلوب. وبعبارة أهل العشق فهم في سياحة دائبة من وديان "الفناء في الله" إلى ربوع "البقاء بالله" وفي حركية ودينامية لا تنقطع.

ولا شك أن بلوغ ذلك الأفق لا يتحقق إلا بـ"تربية روحية" حقيقية.

إن تربية الروح باختصار تعني أن يتوجه الإنسان نحو الغاية التي خلق من أجلها. وبعبارة أخرى أن تتحرر الروح من سيطرة الجسد والمادة، وأن تولّي وجهها نحو جوهرها الأصلي ومنبعها الأساسي، وأن تمضي في سيرها الروحاني نحو تلك الغاية التي خلقت من أجلها. والحقيقة أن هذا الموضوع يحتاج إلى مزيد تفصيل ليس هذا مكانه، ومن ثم نكتفي بهذا القدر الموجز.

إن الأجيال البائسة التي فقدت مقوماتها الروحية كافة، وابتعدت عن جوهرها، باتت -ضحيةَ عقولها وتفكيرها- في شقاء وضياع. ومن ثم ينبغي أن نغير الزاوية التي تنظر منها هذه الأجيال، والأفقَ الذي تطالع منه الوجود والحوادث، وننفق في ذلك الغالي والنفيس. ونحن على يقين بأننا قادرون على ذلك. قد يستخفّ البعض بالجهود التي نبذلها في هذا الميدان، إلا أننا متشبعون بالأمل. المهم أن نغذي إرادتنا بالعبادة، ونضبطها بمحاسبة النفس. وظيفتنا فقط أن نواصل السير. والله معنا حيثما اتجهنا. ما علينا إلا أن نغمض أعيننا وننثر البذور في ربوع المستقبل الذهبية. أمّا شقُّ تلك البذور طريقَها إلى الحياة، فأمره إلى الله سبحانه.

إننا على يقين تام بأننا إذا استطعنا أن ننجز خدمة واعية ومشاريع شاملة، فإنه ستولد من رحم دنيانا هذه دنيا أخرى تسري فيها نسمات الأمن والسكينة والمحبة، وتستقيم الحياة على جادة السعادة الحقة. كما أننا على يقين بأن أجيال المستقبل ستيمم وجهها شطر محبة عظمى تتجاوز المال والجاه والشهرة والمقام وكافة أصناف الرغبات والشهوات.. تلك هي محبة سلطنة القلوب.

جنون القوة[1]

(ديسمبر ١٩٩٥)

إننا نعيش في عالم تتداخل فيه الظلمات مع النور، ويختلط فيه الخير والشر، وتتسابق فيه الأخلاق والفضيلة مع الانحلال والعبثية، وتتصدى فيه نفحات الطهر والعفاف لطوفان الدنس والفجور، ولا تكفّ الخيبةُ عن تعقّب الآمالِ في كل خطوة تخطوها. أجل، لم يسبق أن وقع في أي فترة من فترات التاريخ تناوب مذهل بين التحلل والبناء بهذا الحجم المروّع وهذا الانتظام العجيب وهذا الاتساع الشاسع كما وقع في العصر الراهن. فالتحولات تأتي بسرعةِ البرقِ، وتحاكي هزيم الرعد في شدة وقعها وإملاءاتها الفوقية، حتى الذين يتعارضون فيما بينهم لا يَجدون فرصة للتعبير عن آمالهم أو إحباطاتهم، ولا عن رضاهم أو رفضهم لما يقع.

أما الذين يمتلكون زمام القوة فقد راحوا يُسخِّرون الإمكانات التكنولوجية في خدمة أجندات الكراهية والعداوة والجشع، وباتت لديهم القدرة على إنجاز ألوان وأشكال مِن الهدم والتدمير والتخريب

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٥٩، (مارس - أبريل) ٢٠١٧م. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٢٠٣ (ديسمبر ١٩٩٥)، تحت عنوان: (Kuvvetin Çılgınlığı). الترجمة عن التركية: أجير أشيوك.

في بضعة أيام فقط، بعدما كانت تحتاج من قبلُ إلى قرن من الزمان.

إنهم يستطيعون أن يهدموا -في حملة واحدة- أقوى الأنظمة ويُسَوُّوها بالتراب، وأن يغيّروا -في نفخة واحدة- نظامًا سياسيًّا ويُقِيموا مكانه آخر، وأن ينسفوا -بين ليلة وضحاها- أعرقَ طرائق التفكير ومناهج الأفهام، فيتركوا الحشود البشرية بلا سند ولا مرجعية، ويضعوا القيود على المعتقدات ويضيّقوا نطاق حرية الأفكار؛ ولقد استعانوا مؤخّرًا بالماكينة الإعلامية من أجلِ غسيلِ الأدمغة والعقول، وإلباس الحق لباسَ الباطل، أو إظهارِ الباطل بمظهرِ الحقّ، فأحدثوا بلبلةً وفوضى في القيم المجتمعيّة.

لم يَحْدُث في وقت من الأوقات منذ أنْ خُلقت الدنيا إلى الآن، أَنْ تحولت شخصية الإنسان وكرامتُه ودينه وأسرتُه وأخلاقُه وشهامتُه وحقوقه معرضًا للمناقشة والإدانة بقرارات "قَرَقُوشية" ظالمة بهذا المستوى من اللامبالاة، وهذا الحدِّ من عدم الإنصاف.

وإلى جانب كل هذا، فإني أرى أن أبرز خواصّ هذا العصر -الذي نعيش فيه آلافًا من التناقضات المتداخلة-هي التضحية بالحق في سبيل القوة، وطغيانُ مفهوم المصلحة على كل القيم والمُثُل، وحلولُ العصبية القومية الصّلبة محلَّ القيم العالمية، ومحاولةُ حل المشاكل الوطنية والعالَميةِ بالقوة الغاشمة.

صحيح أن هناك حكمةً في خَلق القوة وإيجادِها، لكن الواقع أن الناس لا يلجؤون إلى استثمار العقل والمنطق والمحاكمة العقلية -بل ولا العبقرية- في القضايا التي يسعون إلى حلها عن طريق "القوة"، أو بالأحرى يغضون الطرف عن تلك المقوّمات، ولهذا نلاحظ أن كثيرًا

من التحولات التي تمت في العالم عبر سلطان "القوة"، لمّا تطَلَّب الأمر تأسيسَها على قواعد عقلية من جديد استَهلك ذلك سنواتٍ عديدة، بل انتهى بفشل ذريع.

أجل، القوّة طاقة كامنة تستطيع حل بعض المشاكل عندما تكون في يد الحقّ وتحت إرشاد المنطق والمحاكمة العقلية، إلا أنها ما فتئت أداةً للتدمير والتخريب في يد الفكر الغاشم المتهور الذي يدور في فلك العاطفة العمياء. أجل، إن هذا النوع من "جنون القوة" هو الذي دوَّخ الإسكندر وأزاغ بصرَه، ونَسفَ عبقريةَ نابليون، وجَعل مِن هتلر "ثور القرنِ المجنونَ"، ولكن ما يؤسَف له هو انهزام الحق والمنطق والمحاكمة العقلية جميعًا في أيامنا هذه أمام القوة المجنونة ووقوعُها في حالة من الأسر.

وأعتقد أن هذه القوة الجامحة هي سرُّ ما نعيشه في عصرنا من سلسلة أزمات وأحداثٍ كل منها بمثابة دوامة.. تلك القوة الغاشمة التي حلَّت محلَّ القيم الإنسانية والفكر الإنساني والمنطق واحترام الحق. ويبدو أنه لا مناص من دوام هذه الأزمات إلى أن يستسلم دعاة القوّة للحقّ، وتتخلّص الجموع الذين يتَّبعونهم من دوامة المخاوف اليومية العابرة، ويرَوا العالم الذي يعيشونه رؤيةً واضحة.

إننا نعيش الآن في مناخ من العولمة يحيط بنا ويحتوينا من كل الجوانب بضروراته وقوانينه.. وعلينا أن نستفيق من سباتنا ونَصْحُوَ من غفلتنا، وأن نكون عنصرًا راشدًا من عناصر التوازن المتمحور حول الحق والقوة والعقل والمنطق، في وقت تمس فيه الحاجة إلى التعايش مع الآخرين، وإلا فسنبقى رازحين في رِقِّ التبعيّة، تحت

رحمة المصالح كلقمة سائغة وهدف سهل.

أجل، ينبغي أن تَستفيد أعيُنُنا دائمًا من مراصد الماضي وتُسدِّدَ النظرَ إلى آفاق المستقبل المُشِعَّةِ بالأمل. فلو ظلت هذه التناقضات على هذه الحال فستجرفنا أمواج هائلة من التحولات والفوضى لا نقوى على مواجهتها، وعند ذلك لن نتمكن من رفعِ رؤوسنا أو نَصب قاماتنا.

إن تخطّي تلك المخاطر المبذورة على طريقِ مسيرتنا يحتاج إلى أبطال تشبّعوا بروح الإيثار، لا يعيشون لأنفسهم فقط؛ هؤلاء الأبطال المرتقَبون الذين سيُنقذون الإنسانية اليوم لا تهمّهم ذواتهم أبدًا، بل ينذرون حياتهم كلها لإحياء الآخرين.

وعندما يحين اليوم الذي تغمر فيه أرواحَ الجماهير العريضة أفكارُ هؤلاء الأبطال التي تشع نورًا وتنبض محبة، سوف تهدأ العواصف التي تكتسح طبقات البشرية، وتنتهي أيام الحسرة والهجران.. ونتمكن -بفضل استردادنا لموقعنا في التوازن العالمي- من تأسيس توازن رباني قائم على جدّية في السعي، وعدالة في التدبير، والتزام تام بمبدإ الحرية الفطرية الكاملة.. وسوف تضمحل الأزمات الاجتماعية التي تعرضت لها مجتمعاتنا كافة، وتُحَلّ المعضلات الكبرى التي أرهقتنا على الصعيد الدولي واحدة تلو الأخرى.. ويعود التناغم الأزلي بين المِحَن والمِنَح والأتراح والأفراح من جديد.. ويُهمَس لنا وللإنسانية بأسرها -أو لجزء كبير منها- بمعان ذات مغزى، تشبه في لحنها وأدائها معاني زمانٍ كنا نضطلع فيه بأدوار كبرى، نقيم القسط ونرفع ميزان العدل بين أمم الأرض كافة.. وندرك بأرواحنا المعنى الحقيقي لـ"الإنسان النافع" من جديد.

إن كل جهد يُبذَل في سبيل إيصال أمتنا أولاً والإنسانية ثانيًا إلى "أفق" كهذا، لهو من الأهمية بمكان من أجل بناء السلام والأمن والاستقرار والقيم الإنسانية العالمية على مستوى الكرة الأرضية. وبلوغ أفق كهذا، يضاهي في أهميته بلوغ الغاية من الخلق، كما أنه حلم يراود الإنسانيةَ كلها. إن كل تقدم باتجاه تحقيق هذا الحلم، وكل تحرك صوب النهوض بالحق لَيُعتَبَران أصحّ الخطوات إلى الله تعالى. وكل خطوة -مهما صغرت- يخطوها المرء في هذا الاتجاه، جزء مكمِّل لذلك التكوّن الكبير المنشود.

أجل، إن هذه المحاولات والجهود النسبية التي نبذلها، هي في مجملها رشحات تُغَذِّي حوض المستقبل السعيد. وإننا نحلُم أن تصير الرشحةُ إثر الأخرى بحيرة، وأن تُفتَح أمامها جداولُ تتدفق فيها المياه كالأنهار الهادرة.

سمات المؤمن الحق[1]

(مايو ١٩٩٩)

إن أشد ما نحتاج إليه اليوم "رجال مثاليّون" مؤهَّلون للقيام بدور "الدليل الأسوة" أمام المجتمع وأمام "أجيال المسؤولية" الذين بلغوا الحد الأقصى من التأهّب للقيام بالواجب الذي تحمّلوه أمام الله ﷻ. نعم، الحاجة ماسة إلى "مرشدين مثاليين" يهبّون لإنقاذ البشرية من مستنقعات الجهل والإلحاد والضلال والفوضى التي تتخبط فيها منذ عصور، ويسيرون بها نحو شواطئ الإيمان والعرفان والاستقامة والاطمئنان.

أجل، إن ابن آدم بفضل تلك "العقول الفذّة" التي ظهرت إبان المحن والأزمات، تحمل مصابيح الهدى لتضيئ الدرب للحشود المتخبطة في ظلمات شتى دينية وفكرية واجتماعية واقتصادية وأخلاقية، والتي أعادت قراءة الكون والإنسان والوجود بل وما وراء الوجود، وعملت على حلّ عقدنا الفكرية والعاطفية، وأزالت السدود التي تعيق أفكارنا من الانطلاق ومشاعرنا من الجيشان...

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٤٤، (سبتمبر - أكتوبر) ٢٠١٤. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٢٤٤ (مايو ١٩٩٩)، تحت عنوان: (İnanmış İnsanın Nitelikleri). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

أجل، بفضل هؤلاء الأفذاذ استطاع ابن آدم أن يجعل من كفن الموت قميص حياة خمسين مرة، ويعيد تفسير الأشياء والحوادث من جديد مائة مرة، ويتلو كتاب الكون -هذا الكتاب الذي انطفأ بريقه وبهت لونه واصطبغ بصبغة العبثية في نظر العقول السطحية- على امتداده الشاسع بعد الإحساس بأعماقه اللانهائية تلاوة تطرب لها النفس كأنها الموسيقى سحرًا وجمالاً... ويطالعه بنشوة عظمى كمن يطالع معرضًا بديعًا باهرًا... ويُقبِل على الأشياء فيحللها فصلاً فصلاً وفقرة فقرة ليكتشف الحقائق الكامنة في روح الكون المديد.

إن أعظم سِمَتين أُكرِم بهما هؤلاء "السعداء" الأطهار؛ إيمانهم النقي، وما يبذلونه من جهود جبارة ليُطْلِعوا العالمين على حلاوة ما ذاقوه من إيمان. إنهم على يقين بأنهم يستطيعون -بفضل هذا الإيمان وتلك الجهود- تخطي جميع العقبات، والوصول إلى الله وإلى الطمأنينة الحقة، وتحويل دار الدنيا إلى جنات، وإقامة قصورهم في الحياة الأخرى على سفوح جنان الفردوس. ومن ثم فهم يشعرون بالحياة والخدمة الإيمانية فيها -في ضوء الخاتمة المنشودة- كأنها جولة ممتعة في ربوع الجنة.

لا شك أنه لا يوجد نظام ولا فكرة أو فلسفة استطاعت أن تُحدث أثرًا إيجابيًّا في عمق الإنسان كالذي يحدثه الإيمان مهما تفاوتت نسبته في ذات المؤمن. ففور دخول الإيمان -بمعناه الحقيقي- في قلب إنسان، تتغير رؤيته فجأة للكون والأشياء والخالق وتزداد عمقًا واتساعًا حتى يتمكن من تقليب صفحات الوجود وتقييمها وكأنها صفحات كتاب. ليس هذا فحسب، بل وتنبض الكائنات من حوله

بالحياة فجأة -تلك التي لم يكن يعيرها التفاتًا في السابق أو كان يعتبرها بلا روح أو معنى- وتبتسم إليه ابتسامة الصديق الحميم، وتحتضنه بدفئ ورفق وحنان. في مثل هذا الجو الدافئ الحنون يبدأ الإنسان باستشعار قيمته الحقيقية، ويعي أنه الجزء المدرِك الفريد في هذا الوجود، ويعرف سر الدروب المنسابة في انحناء والتواء في ثنايا صفحات الكون وسطوره، ويحس وكأنه بدأ يحدس الأسرار الكامنة وراء أستار الوجود، فإذا به ينجو من سجن الأبعاد الثلاثة للمكان ويرفرف في فضاءات اللانهاية.

أجل، كل إنسان آمن حقًّا، ينتقل -وهو المحدود- إلى اللامحدود بفضل التأملات التي تمور في أعماقه مورًا. وبينما هو مقيد بالزمان والمكان إذا به يتحول إلى نسر فوق الزمان والمكان، ويرتقي إلى مصافّ الكائنات المتسامية على المكان، ويسمع أنغام الملائكة وتراتيلها.

إن هذا الكائن الذي كانت بدايته من ماء مَهين، ومن طين لازب، الصغير في ظاهره، الكبير في حقيقته، يتسع وينمو بقدر ما تتهيأ الأجواء المناسبة لتفتّح النفخة الإلهية الكامنة في جوهره، فيغدو كائنًا متساميًا لا تسعه الأرض ولا تحده السماء... كائنًا يبدو جِرمًا صغيرًا ولكن فيه انطوى العالم الأكبر. فهو يتجول بيننا، يجلس ويقوم معنا، يطأ بقدميه التراب الذي نسير عليه، وحينما يسجد يضع جبهته على الأرض التي نضع عليها جباهنا؛ ولكنه يوظّف السجود -حيث جمع الرأسَ والقدمين في نقطة واحدة وغدا حلقة مكورة- كمنصة انطلاق في طريق "القرب"، فيبلغ أفق "الأقربية" من الله في قفزة واحدة، ويبسط جناحيه ليحلق مع الأرواح الطيبة عاليًا في السماوات

التي يحلقون فيها، ويعيش كالأخرويين رغم أنه لا يزال دنيويًّا.

إن قلبًا هذا شأنه -بحسب نمو مشاعره الإنسانية وتفتقها- يتجاوز "فرديته" دائمًا، ويغدو "كليًّا"، يحتضن الناس جميعًا، يمد يده للجميع، ويرسل البسمات والتحايا إلى الوجود كله بأخلص المشاعر وأنقاها. يستخلص من كل شيء رآه ومن كل إنسان التقاه ألوانًا جميلة ونقوشًا بديعة من التجليات الإلهية ويصغي إلى ترنيماتها الساحرة، وينغمر في مراقبة جذلى جديدة مع كل تسبيح من السماوات منبعثٍ من تردد جديد وذبذبة أخرى، يحس وكأنه يسمع رفرفة أجنحة الملائكة.

إنه يسمع ويشاهد معارض للجمال واسعةً ممتدة تشمل كل شيء، بدءًا من جلجلات الرعد المرعبة الخالعة للقلوب، إلى نغمات العصافير الشادية الباعثة على السكينة والارتياح؛ ومن أمواج البحار الهائلة المتلاطمة، إلى خرير الجداول الهامسة بمعاني الخلود؛ ومن الطنين الساحر المنبعث من الغابات الهادئة، إلى المنظر المهيب لذرى الجبال الشوامخ المتطاولة نحو السماء؛ ومن النسمات السحرية التي تداعب التلال الخضراء ليل نهار، إلى العطور النّشوَى التي تفوح من البساتين والحدائق لتغمر كل مكان. نعم، يشاهد معارض الجمال هذه ويسمع أصداءها ويحس بها فيقول لنفسه "إذن هذه هي الحياة الحقيقة". يقول ذلك، ثم يهتف مع جميع الكائنات ومع معانيها الشبيهة بالروح معزِّزًا أنفاسه بالأدعية والتسابيح ليوصلها إلى قيمتها الحقيقية.

جبهته على الأرض في سجود دائم، ونظره معلَّق على فُرْجة

الباب الذي قضى حياته آملاً أن يُفتَح له يومًا ويحظى بنظرة رضى وقبول.. يُغمِض عينيه ويفتحهما على هذا الأمل.. يتلمّس ما يدور خلف الباب بتوق وشوق عظيمين.. ينتظر الساعة المباركة التي تزول فيها الغَيْبة والغربة وتُشرق فيها القُربة سكينةً وطمأنينةً تغمر أرجاء روحه.. ينقّب عن جواب أو صدى لنداءات الشوق ومطالب الوصال المترددة في روحه.

تجده وقد شرع أجنحته وحلق مثل الطائر حينًا، وحط على الأرض وسار ماشيًا حينًا آخر؛ ومهما يكن، فهو ميمّم وجهه نحوه -سبحانه- يهرول إليه دون توقف وقد ضم كلَّ أحد إلى صدره واحتضن كل شيء بمحبة غامرة. في كل منزل يحط رحاله فيه، يشعر بظلالٍ جديدةٍ للوصال تظلله فيعيش بهجة "ليلة عُرْس" سعيدة[1]. وفي كل منحنى يطفئ نار شوق، ويلتهب في الوقت نفسه بنار شوق أخرى، فيبدأ بالاحتراق من جديد. ومن يدري كم من مرة في اليوم يجد نفسه مغمورًا بنسمات الأنس، وكم من مرة يحزن ويتألم للوحشة والوحدة التي يعاني منها البؤساء الذين حُرِموا من الإحساس بهذه المواهب السنية والإشراقات البهية.

أجل، فمثل هذه الروح البالغة هذا المدى من رحابة الأفق يجد نفسه مستقرًّا على منصات انطلاق نحو عوالم جديدة على

---

[1] استخدم المؤلف هنا في النص التركي عبارة "شبِ عروس" وهو عبارة فارسية تعني ليلة العرس، وقد استخدمها جلال الدين الرومي ليعبر بها عن فرحة الوصال بالموت وتسليم الروح إلى الله تعالى، فالموت عرس في أدبيات الرومي، عرس يلتقي فيه الإنسان الفاني بمحبوبه الباقي، فليلة العرس ساعة الوصال. (المترجم)

الدوام، متحفزًا أشد ما يكون التحفز، مشحونًا بعزم يفوق مقاييس الإنسان العادي... وكذلك يفكر في ألوان المنن التي سينالها، وأنواع النجاحات التي سيحرزها بفضل إيمانه والقوة الكامنة وراء ذلك الإيمان. وبما أن أُفقه واضح، وطريقه مفتوح، وإرادته حرة، وقلبه في طمأنينة وسكينة، فهو يجري دومًا دون شعور بأي تعب أو إرهاق. وكلما قطع منزلاً وحط رحاله في منزل آخر يزداد رصدًا وإنصاتًا لأعماق ذاته، كما تزداد محبته عمقًا لكل ما حوله ومن حوله.

عندما ينصت إلى روحه يجد نفسه في واحة من السكينة والطمأنينة لا تنتهي. وبينما يعاني العديد من الناس من غربة قاسية ووحدة كئيبة بدوافع شتى، تراه بعيدًا كل البعد عن وحشة الطريق وغربته. فهو يدري من أين جاء، ولماذا جاء، وإلى أين يصير؟ وهو على وعي بكل ما يدور في دار الدنيا من لقاء وفراق، وعلى دراية بأنه يجري في درب واضح الغاية بيّن الهدف؛ لا يشعر بمشقة الطريق أبدًا، ولا تصيبه المخاوف ولا الهواجس ولا الاضطرابات التي تهز الآخرين هزًّا. واثق بالله، متحفّز بالأمل، مرتشف متعةَ الوصول إلى الذروة التي تزيّنها أحلام زرقاء ناصعة للمستقبل السعيد.

أجل، ستجد أبطالَ هذا الإيمان الشامخ مواظبين -بحسب عمق إيمانهم- على السير في الطريق وقطع المسافات مطمئنين سعداء كأنهم يتنزهون في سفوح الجنان، في الوقت الذي يتعثر فيه الناس في سيرهم ويضطربون. هذا من جانب، ومن جانب آخر ستجدهم -بفضل ارتباطهم بالحق تعالى- قادرين على تحدي العالم أجمع، والاضطلاع بكل مهمة، وتخطّي كل حاجز. فلو قامت القيامات

كلها لا يضطربون، ولو واجهتهم نيران جهنم واحدة تلو الأخرى لا يمسهم خوف ولا يتراجعون. هاماتهم مرتفعة في عزة وإباء دومًا، لا يحنونها لأحد إلا لله. لا يخشون أحدًا، ولا ينتظرون جزاء ولا أجرًا من أحد، ولا يقعون تحت منة أحد.

وعندما يحرزون الفوز ويتنقلون من نصر إلى آخر تعتريهم مخاوف، وتحيط بهم هواجس خشية أن يكون النصر ابتلاء لهم من عند الله، وتنحني ظهورهم شكرًا على هذه النعمة العظمى، وتفيض أعينهم بالدمع فرحًا وسرورًا. وإذا ألمّتْ بهم خسارة أو تعرّضوا لنكسة يعرفون كيف يصبرون، وكيف يشحنون عزائمهم، ويشحذون إرادتهم، ويهتفون "لنبدأ من جديد" منطلقين إلى الأمام. أولئك لا تطغيهم النعمة وليسوا من الجاحدين، وعندما يصيبهم الفقر والعوز لا ييأسون.

إنهم يحملون قلبًا وخُلُقًا نبويًّا في تعاملهم مع الناس.. يحبون الجميع، ويحتضنون كل شيء.. يتغافلون عن رؤية أخطاء الآخرين، بينما يحاسبون أنفسهم على أتفه العثرات. لا يصفحون عن الأخطاء في الحالات الاعتيادية فحسب، بل حتى في حالات الغضب كذلك، يعرفون كيف يسايرون ويتعاملون مع أغلظ الطبائع وأكثرها فظاظة. فالإسلام أمر أتباعه بالعفو والصفح، والبعد عن الحقد، وعدم الانهزام أمام مشاعر العداء والكراهية والانتقام. وكيف لنا أن نتوقع سلوكًا آخر غير هذا السلوك السامي من أبطال يدركون في قرارة نفوسهم دومًا أنهم سائرون إلى الله؟!

أجل، إنهم يبحثون دومًا عن سبل إسداء الخير للآخرين، ويرجون

لهم الحسنى، ويلحّون على إبقاء شعلة الحب متقدة في قلوبهم حية في نفوسهم، ويشنون حربًا شعواء لا نهاية لها ضد مشاعر الغيظ والنفور.

هؤلاء الأبطال يحرقون أخطاءهم وذنوبهم بنار الندم، ويشتبكون في صراع شرس مع نوازع الشر المبثوثة في طبائعهم كل يوم عدة مرات. يبدؤون العمل من أنفسهم، ويمهّدون البيئة الصالحة لغرس فسائل الخير والجمال وتنميتها في كل مكان. وهم -كذلك- واقتداءً بفلسفة "رابعة العدوية" يَعُدّون كل شيء وكل أحد عسلاً مصفّى وإن كان سمًّا زُعافًا، ويقابلون من يأتيهم حاقدًا ناقمًا بالبسمات، ويصدّون أشد الجيوش عداوة بسلاح الحب الذي لا يُهزَم أبدًا.

إن هؤلاء يحبهم الله، وهم يحبونه كذلك. وعندما يحبونه تجيش قلوبهم بفيض هذه المحبة. وساعةَ يشعرون بأنهم محبوبون لديه يَغرَقون في حال من الذوبان والانتشاء لا يمكن وصفها. التواضع ديدنهم، فهم يخفضون أجنحتهم حتى الأرض، ويرجون أن لو كانوا ترابًا تنبت فيه الورود. وبقدر احترامهم للآخرين فإنهم حريصون -كذلك- على كرامتهم وعزتهم؛ لا يسمحون أبدًا أن تفسَّر سماحتهم ورقّتهم وحِلمهم ونبلُ أخلاقهم ضعفًا أو مسكنة. بل لو استوجب الأمر لما ترددوا لحظة واحدة في الافتداء بحياتهم والسير نحو ديار الآخرة. لا يغريهم مدح مادح أو يثنيهم قدح قادح ما داموا يعيشون عقيدتهم ويَحيون بإيمانهم. ما يهمهم فقط ألا تبهت نضرة الإيمان وبهاؤه في قلوبهم، لأنهم عقدوا العزم على أن يكونوا مؤمنين حقًّا.

حب الإنسان[1]

(سبتمبر ١٩٩٩)

الحب إكسير يبعث الحياة.. بالحب يحيا الإنسان، وبالحب يسعد، وبالحب ينشر السعادة في قلوب الآخرين. الحب في معجم الإنسانية هو روحُنا؛ به نحس ببعضنا وبه نشعر. لم يخلق الله رابطًا على وجه الأرض أقوى من الحب في وصل الناس ببعض. الدنيا دار خربة متهدمة الأركان والأطراف، والحب باعث الحياة ومُوقِد النُّضرة فيها. للجنّ والإنس ملوك، وللنحل والنمل ملكات، ولهؤلاء الملوك والملكات عروش يتربعون عليها عبر انتخابات أو أساليب شتى.. ولكن هنالك ملك يتربع على عروش قلوبنا دون حاجة إلى أيِّ انتخاب، ألا وهو الحب. تزداد قيمة الألسن والشفاه والأعين والآذان أو تقلّ بقدر رفعها لراية الحب، أما الحب فهو قيّم وشريف بذاته. إن القلب لم يبلغ ما بلغ إليه من السموّ والرفعة إلا بفضل الحب.. أليس القلب موطن الحب؟ عندما جاء الحب إلى الحصون المحصنة ونصب رايته أمامها مرفرفة؛ فُتِحت له الأبواب على مصاريعها دون أن تُسفَك قطرة دم.

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٦٤، (يناير - فبراير) ٢٠١٨. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد:٢٤٨ (سبتمبر ١٩٩٩)، تحت عنوان: (İnsanı Sevmek). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

وعندما وصل فرسان المحبة إلى ديار الملوك الجبابرة، تنازلوا عن عروشهم وآثروا أن يكونوا جنودًا عاديين في كتائب هؤلاء الفرسان.

لقد نشأنا في جو تلألأت فيه أعينُنا بانتصارات الحب، وطربت فيه آذانُنا بدقَّات طبوله المدوية، خفقت قلوبنا عند كل رفرفة من لوائه، عانقناه بحرارة وامتزجنا به بعمق، وأخيرًا ربطنا أعمارنا به على طول امتدادها، ونذرنا أرواحنا له ما حيينا. فإن حيينا فبالحب نحيا، وإن متنا فبالحب نموت. نشعر به في عمق كياننا مع كل نفَس، نستدفئ به في البرد، ونبترد به في الحر. في غمار حروبنا تدوي دقات طبول الحب، وبأناشيده تغدو مواسم سلامنا أعيادًا سعيدة.

إن كان في هذه الدنيا البائسة -التي شاع فيها ألف صنف وصنف من الفساد- شيء لا يزال يحافظ على طهره ونقائه؛ فذلك هو الحب، وإن كان فيها حسناء لا تزال تحتفظ بجمالها وعفتها بين آلاف من الحسناوات البائسات اللواتي شحب لونهن وانطفأ بريقهن؛ فإنها المحبة. لا شيء في أي مجتمع من مجتمعات العالم أكثر واقعية وأبقى على الزمان من الحب. عندما يرتفع صوته -أحنَّ من صوت الأم تهدهد طفلها في سريره- تصمت كل الأصوات، وتسكت جميع المعازف متنازلة عن أحلى أنغامها، ومستغرقة في إنصات خاشع.

إن رحلة الخلق في هذا الوجود بدأت نتيجة اشتعال قنديل الحب. فلولا محبة الحق سبحانه للخلق، لما كانت الأقمار ولا الشموس ولا النجوم.. كل كون من الأكوان قصيدة حب والأرض قافيتها. تدوي نغمة الحب في أرجاء كتاب الطبيعة وأركان النظام الكوني الشاسع، وترفرف رايته في سماء الإنسانية عبر مناسباتها الدافئة. إن

كان هناك عُملة لا تفقد قيمتها عند الناس أبدًا، فإنها الحب، لأن قيمة الحب ذاتية. فلو وُزِن الحبُّ بأنقى أنواع الذهب، فإن كفته راجحة لا محالة. قد يفقد الذهب قيمته في الأسواق، بيد أن أبواب الحب موصدة دومًا في وجه الخسارة، ولا يمكن لأي تدخّل خارجي أن يقلل من قيمته.

لم يفكر في محاربة الحب على مر التاريخ إلا أرواح متوحشة أُشرِبت في قلوبها الحقد والكراهية والعداء. وأحسب أنه لا إكسير -كذلك- يُلِين الأرواح المتوحشة ويؤلّفها إلا الحب. كم من مشكلة عجزت ثروات الدنيا عن حلها فجاء الحب بمفتاحه السحري فحلّها. محال أن تُقاوِم الحبَّ أو تنافسه أي قوة في العالم. إن ملوك الذهب والفضة قد انهزموا أمام فدائيي المحبة في كل ماراثون خاضوه معهم. أجل، أتى على ملوك المادة حِينٌ من الدهر تَبخّرت فيه ثرواتهم، وكسدت تجارتهم، وخمدت نيرانهم رغم صخبهم وضجيجهم وعروضهم المبهرة وأبّهتهم البراقة، في حين ظل مِشعل الحب متقدًا يلج القلوب ويحيي الأرواح.

إن السعداء الذين ثنوا رُكَبهم في محراب الحب ونذروا حياتهم لنقشه ورَقشه في القلوب، قد حذفوا من معاجمهم مفردات الحقد والغيظ والكراهية والتآمر، ولم يلجؤوا إلى العداوة قط وإن دَفعوا أرواحهم مقابل ذلك، ومحال أن يلجؤوا. إن رقابهم التي انحنت بالحب رَفعت تحيةَ السلام دومًا للحب، ولم تنهض إلا أمام الحب احترامًا وتوقيرًا. بل عندما اندفع كل واحد من هؤلاء الأبطال كالجياد الأصيلة بالحب، انتفضت العداوة مذعورة وأخذت تنقب عن جحر

لنفسها تختبئ فيه، وانفجرت الكراهية غيظًا وكمدًا، وراح الحقد يرتعد خوفًا ورعبًا، والتفّت المؤامراتُ على رقاب أصحابها التفافًا.

إن كان في الوجود إكسير استطاع أن يبطل أشد مكائد الشيطان فتكًا حتى اليوم؛ فهو الحب. لقد أطفأ الأنبياءُ نيرانَ غيظ الفراعنة والنماريد بكوثر الحب، وجمع أولياءُ الحق شتات الأرواح الضالة الثائرة المبعثرة كعقد انفرطت حباته بالحب، وألّفوا بين قلوبهم في عالم من المشاعر الإنسانية النابضة بالحب. لقد كانت -ولا تزال- قوة الحب فائقة متجاوزة تبطل سحر هاروت وماروت وتطفئ نيران جهنم على الدوام. من امتلك سلاح الحب، لا يحتاج إلى سلاح آخر. إن للحب قوة تُفشِل أثر أيّ رصاصة انطلقت من فوّهتها أو قذيفة من مدفعها.

إن حب الإنسان لأخيه الإنسان، بل إن احتضانه لجميع الكائنات بشعور من الرحمة الغامرة، مرتبط في الحقيقة بمدى اكتشافه لذاته ومعرفته بها، بمدى اكتشافه لحقيقة ماهيته وإحساسه بانتمائه إلى الخالق ﷻ. فبقدر شعوره بأعماقه وإحساسه بالجواهر المكنونة في وجدانه، يعي أن سائر إخوانه من بني الإنسان يملكون مثلها في كينوناتهم، فينظر إلى كل إنسان وكل كائن بعين أخرى، ويحس بهم إحساسًا آخر، ويكنّ لهم في قلبه توقيرًا مختلفًا عما سلف، إكرامًا لانتمائهم إلى الخالق سبحانه، وتقديرًا للجواهر الكامنة في ماهياتهم. إن إجلالنا لبعضنا وثيق الصلة بمدى معرفتنا وتقديرنا للجواهر المكنوزة في ذوات كل واحد منّا.

ولا بأس من أن نوسع إطار الأثر الذي ورد في بعض الكتب

على أنه بيان نبوي: "المؤمن مرآة المؤمن"، ونربطه بالمعنى الأخير فنقول: "الإنسان مرآة الإنسان". فإذا نجحنا في تبنِّي هذه الرؤية، فإن كل واحد منّا سوف ينظر إلى ذوات الآخرين عبر عدسة الجواهر المكنونة في ذاته، فيعي ما يملكونه من مشاعر عميقة وأمداء فسيحة وكنوز دفينة، ويربط تلك الهبات والعطايا بصاحبها الحقيقي ﷻ، وذلك يعني أن النور والجمال والبهاء الذي يبهرنا في كل ركن من أركان الوجود، والحبَّ وما يرتبط بمعاني الحب المبثوثة في كل مكان، كلها منه وله وإليه سبحانه.

إن روحًا أحست بهذه المعاني الدقيقة تُتحِفنا بأناشيد ساحرة من لسان قلبها، وتترنم مثل جلال الدين الرومي: "تعال، هلمّ إلينا، شاركنا، نحن أهل العشق، منحنا قلوبنا للحق تعالى. هيا تعال، التحق بنا، ادلف من باب المحبة، اجلس في بيتنا معنا. أُدنُ نتحدث بلغة القلب فيما بيننا، أقبل كي تتعانق قلوبُنا ونتكلم بعيدًا عن الآذان والأعين.. تعال نتبادل بسمات كالورود دون شفاه أو أصوات.. تعال نتقابل كالأفكار دون فم أو لسان.. ها قد صرنا جميعا شيئًا واحدًا، إذن هيا لِيُناجِ بعضنا بقلوبنا دون لسان أو شفاه. ها قد تشابكت أيدينا، تعال نتحدث بلغة الحال. إن لسان الحال أعمق تعبيرًا عن سلوك القلب، فهلمّ نمسك ألسنتنا، ونتحدث بقلوبنا المرتعشة".

محال أن تجد هذا العمقَ من الإحساس والثراءَ من الحب الإنساني الذي ينبض في عروقنا لدى الفكر اليوناني واللاتيني، أو الفلسفة الإغريقية والغربية. إن التصور الإسلامي يرى أننا جميعًا تجليات متنوعة لجوهر واحد، وأن كل واحد منّا وجوه مختلفة

لحقيقة واحدة. أجل، حينما يلتقي الأفراد حول معان مشتركة كالإنسانية الواحدة أو المعبود الواحد أو الرسالة الواحدة أو اللغة الواحدة أو الوطن الواحد أو الأمة الواحدة، يصبحون أعضاء في جسد واحد كما في الحديث النبوي الشريف؛ عندئذ لا تُنافِس اليدُ أختَها، ولا يعيّر اللسانُ الشفاهَ، ولا ترى العينُ عيبَ الأذن، ولا يُنازِع العقلُ القلبَ.. فإذا كانت هذه هي الحقيقة، وإذا كانت الجوارحُ المختلفة تتكامل في جسد واحد، فأيّ عقلية منحرفة تلك التي تفرّق بين تلك الجوارح؟

لماذا نحطم وحدتنا؟! ذلك الأكسير الذي يُعَدّ وسيلة بالغة الأهمية لتحويل دنيانا إلى فردوس، وانفتاحِ أبواب الفردوس لنا على مصاريعها، واستقبالِنا بنداء "ادخلوها بسلام آمين"؟! فإذا كان التوافق طريقًا لتوفيق الله، فلِمَ النزاع والشقاق؟ متى نجتثّ من أرواحنا أفكارًا ومشاعر تبعدنا عن بعضنا؟ متى نهرع إلى دروب الحب نعانق بعضنا؟

إن الطبائع والأمزجة -شأنها شأن الطرق المؤدية إلى الله- بعدد أنفاس الخلائق. هذا يقتنع بهذا الفكر، وذاك يهوى ذلك التفسير، هذا يسير من هذا الطريق، وذاك يعبر ذلك الجسر، هذا يرقى إلى القمم بمعراج، وذاك يصعد إليها بمعراج آخر.. كل واحد له نغمة تُحرّك عواطفه، كل واحد له أدواته الخاصة، ولكننا جميعًا نسعى ابتغاء مرضاةِ الله وتحويلِ الأرض إلى جنات فردوسية. فما دامت مساحة السعي ممتدة واسعة إلى هذا المدى، وما دامت الطرق المؤدية إلى الغاية بهذه الوفرة، فلِمَ هذا التزاحم؟ لا سيما وأن الذئاب ينتهزون نزاعاتنا وخصوماتنا ضدنا!

أختم بكلمات بديعة لأحد شعرائنا الأفذاذ إذ يقول:

القوسُ إلى السهمِ،
والشابُّ إلى الشيخِ،
والأنثى إلى الذكرِ،
مفتقر يا صاحِ،
ألا ترى ألا تعِي؟
أجزاءُ الكون برمّتها،
تحتاج بعضَها البعضِ.. (الشاعر العثماني بَصِيري)

تعالوا نتحدث بقلوبنا[1]

(أكتوبر ١٩٩٩)

بين القلوب دروب ومسالك خفيَّة لا تُعدُّ ولا تحصى، تمتد فيما بينها في انحناء وتداخل لا ينتهي. ولكل إنسان درب خاص يسير فيه، وأفق ذاتي يحلِّق في أجوائه، وبين هذا وذاك يتقاطع مع كثيرين أو يتوافق بقصد أو بغير قصد مرات عديدة، وتقابله مفاجآت لم تكن في حسبانه. ولهذا الإنسان أيضًا أهداف عددَ الحقائق النسبية المبثوثة في الوجود، وحتى يرتقي إلى تلك الأهداف ويبلغها، عليه أن يعبر جسورًا ويرتقي سلالم ومعارج شتى. لكن الطبائع السمحة التي نمت ملكاتُها الإنسانية وتفتَّحت، والنفوس التي تحترم القيم العالمية، تمضي نحو سماء حقائقها النسبية دون أن تزاحم أحدًا أو تتشاجر مع أحد أو تشوه صورة أحد.. تمضي دون أن تعترضها عوائق السير. في عالم هؤلاء لا يتعلق اختلاف الألوان والأشكال والثقافات والأفكار والتصورات إلا بالمظاهر السطحية فحسب.

في أعماقهم حيوية صامتة لا تفتر، وحركة متوازنة لا تختل،

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٦٥، (مارس - أبريل) ٢٠١٨. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد:٢٤٩ (أكتوبر ١٩٩٩)، تحت عنوان: (Gel Gönüllerimizle Konuşalım Demiştik). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

ونشاط متناغم كقافية الشعر، يضربون مثلاً أعلى في السكينة والسلام يثير غبطة الناظرين. إنهم كالبحار العظيمة، تعلو سطحَها أمواج تلو أخرى، ترغي وتزبد ثائرة هائجة، ترتفع وتهبط هادرة مزمجرة. ووسط هذا الصخب والتلاطم يختلط اللون الأخضر بالأزرق باللازوردي؛ أجل، يطفو على سطحها بعض الاختلاف والتباين، ولكن حينما تغوص في أعماقها يتلاشى كل ذلك، فلا تجد أثرًا لزبد، أو حسًّا لهدير، أو إشارةً لأي تباين في الألوان.

مجموعة من الغرباء نحن.. حاولنا أن نستحضر هذا العمق وتلك السعة في قلوبنا منذ سنين وسنين. سعينا ألَّا نحكم على بعض الفئات بناء على غلظة أو خشونة في ظاهر تصرفاتهم -التي بالتأكيد لها أسباب ومبررات شتى- ونظرنا إلى الرحابة الوجدانية الكامنة في أعماقهم، نظرنا إلى سكونهم النابض، وتناغمهم المتقد، وجوانبهم القابلة للتعافي، المفتوحة إلى الخير، سعينا إلى تقبّلهم واستيعابهم بكل قلوبنا؛ وما كان لنا أن نفكر بغير ذلك، فثوابت الإسلام وكلياته الأساسية تلزمنا بذلك بمقتضى عالميته وإنسانيته. حرصنا على أن نحس بسمت الإسلام هذا، ونشعر بروحه، ونربط جميع تصوراتنا وعواطفنا بهذا المعنى الكامن في جوهره. أقبلنا على ديننا بعمق، فتمسكنا برؤيتنا للحياة بقوة من جهة، وسلَّمنا بوجود أديان واتجاهات فلسفية أخرى واقعًا ملموسًا من جهة أخرى. لقد التزمنا بشعار "وقِرْ الجميع وتَقبَّلْ كلاً على وضعه" منقِّبين عن سبل العيش معًا ليل نهار.

التزمنا بهذه الرؤية وأخلصنا لها؛ لم نحقر أحدًا لاختلاف دينه أو مذهبه أو عقيدته أو اتجاهه الفكري، ولم نجرح أحدًا. تعرَّضنا

للاعتداء مرارًا، أُوذينا في أنفسنا، وأهينت كرامتُنا، وشُوِّهت سمعتنا، وتجرعنا أشد المرارات، لكن لم نردّ. كنا نملك أسبابًا لا حصر لها للردّ.. تغاضينا عن كل إهانة وسبٍّ وسخرية، بل اعتبرنا مبدأ "المعاملة بالمثل" ظلمًا فما ارتضيناه لأنفسنا قط، لم نفكِّر في التراجع عن احترام الكرامة الإنسانية الكامنة في أعماق هؤلاء مقابل ما لاقيناه منهم من حقد وكراهية وغلظة وخشونة، واعتبرنا ذلك نوبة طارئة مؤقتة. وضعنا رؤوسنا -إذا تَطلّب الأمر- رصيفًا تحت أقدام كل من لمسنا عنده مشاعر إنسانية، تعبيرًا عن رؤيتنا هذه والتزامنا بها بصورة لا لبس فيها.

إن كان سلوكنا هذا ثمرة ترويض النفس وتطويعها فهو التواضع المحمود بعينه، أما إن كنا بهذا السلوك قد حططنا من قدر ديننا وعرّضناه للذل والمهانة واقترفنا بذلك إثمًا دونما قصد منا، فإنا نضرع إلى الله أن يعفو عنّا ويغفر لنا. لقد رفعنا شعار "احترام الإنسان" ونادينا به، خشينا أن تتضرر القضية وتهتز الثقة بظهور أشخاصنا، فسلكنا سلوك طائر "الهُوما"[1] لا يُرَى منه إلا أثر ظله، فكان دأبنا التراجع إلى الوراء على الدوام. لم ننتظر شيئًا كبيرًا من هؤلاء الذين حرصنا على كسب قلوبهم، واحترام أفكارهم، واستقبالهم بالأنس والبشاشة في كل سانحة، بل كان كل رجائنا أن يعاملونا بإنسانية لا أكثر. لم يكن هذا القدر اليسير من "الرجاء" سوى منحة "حسن ظن" منَّا إكرامًا لصورتهم "الإنسانية"، ولم يكن أدبنا لِيسمح لنا بغير ذلك.

---

[1] طائر الهوما: طائر أسطوري يعيش حياته كلها يطير على ارتفاع عال بخفاء، ولا يحط على الأرض أبدًا، ومن تسقط عليه ظلال أجنحته ينال السعادة طوال حياته. وهو الطائر الأسطوري الأكثر شيوعًا في دواوين الشعر التركي. (المترجم)

أجل، حينما فاضت أعيننا فرحًا باستيعاب الجميع، وخفقت قلوبنا حبًّا للإنسانية كافة، لم نطلب إزاء مشاعرنا هذه -التي بلغت عمق أم حنون- أيّ مقابل قط. ولو سعينا في أي طلب، لَتعذّرت إقامة أواصر بهذا الاتساع وهذا العمق مع سبعين أمة مختلفة، إذ الأواصر المبنية على مقابل لا تدوم قط. لقد أسسنا وشائج الود وعلائق الصداقة بيننا وبين الناس على أساس أنهم آيات بديعة من صنع الله ﷻ، حتى تظل تلك الوشائج نابضة إلى الأبد.

لقد ردّدنا هذه النغمة في الحل والترحال، ووزَّعنا أقداحًا من المحبة على الجميع في الليل والنهار -ولعل دندنتنا حول ذلك قد أصابت بعض الرؤوس بالدوار فقابلت محبتنا بالكراهية- وفتحنا صدورنا في كل سانحة وعرضنا ما فيها من أفكار ومشاعر إنسانية أمام الكافة، ونحَّينا جانبًا النقاش حول معاييرهم القِيَمية -بعيدًا عن كونها قيِّمة أو لا- وحاولنا أن نعيش فوق المعايير، لنتيح فرصة الاستفادة من شلالات محبتنا للجميع، ثم أخذنا ننتظر ساعة السعد التي تلتقي فيها عين العقل مع الفكر السليم. أعتقد أنه كان من حقنا أن ننتظر من كائن كُرِّم بوسام "الإنسانية" هذا القدر من الأداء. ولن يكون التفكير العكسي إلا انتقاصًا من قدره وهو الذي أرسل إلى الأرض مزوَّدًا بمواهب وطاقات تمكّنه من التفوق حتى على الملائكة إن استطاع تفعيلها.

بهذه المشاعر الوجدانية الصافية، ظللنا نحلم سنين وسنين بأننا إذا تركنا ينابيع محبتنا مفتوحة عن آخرها، فلسوف تنبت في التربةِ التي تلوّثت بالحقد والكراهية والعداء والمؤامرات، فسائلُ من الحب تنمو وتزهر وتغطي الأرجاء كلها. وهذا ما حصل حقًّا، فقد استجاب

جُلُّ المجتمع ممن يقاسموننا أحلامنا وآمالنا لنداءاتٍ انبعثت من القلب بإخلاص هاتفة[١]:

إليَّ بصوتٍ منك يا فارسي! ألاَ تَسمعني؟
منذُ سنين وأنا أتسلَّى بطَيفك دَوما،
أَعيش على أمَل أن تُقْبِلَ يوما،
.....
قلبي المتوهج بالأمل، ينتظرك،
إلى السماوات يعلو حِينًا، ويحبو على الأرض حِينَا،
.....
كل مكان منقوض مهدوم.. هذا عيد البوم!
تحطمت الجسور فلا عابِرَ للسبيل..
جفّت عيون الماء فلا وارد عليها..
.....
فيَا فارِسِي انبعثْ! تمامًا كما في حديث الرؤى..
ثم أَقْدِمْ على صهوة الفَرَسِ الأَبيضِ!
ذاتَ فَجْرٍ، عند بَدْءِ البُكُور،
إنني أغمض الآنَ عَيْنِي فتبصرك الروح،
أيا فارسي! فانبعث وتعالَ!
تمامًا كما في حديث الرؤى!

أجل، تجاوب الملايين مع هذه النداءات المنبعثة من القلب،

---

[١] مقاطع مقتبسة من قصيدة "روح الأمة" للأستاذ فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد ١٥ (المترجم)

انجذبوا لسحر هذا الحلم اللازوردي الخلاب، وأخذوا يترنمون بألحان الحب في كل مكان، وانهمر الحب على الرؤوس كالغيث؛ لم نعلِّق -في البداية- عليه آمالاً عريضة إلا بقدر الضرورة، كانت بدايته قطرةً أو قطرات، ثم تحول إلى شلالات بعد حين، وغدا أملاً جميلاً يراود شرائح المجتمع كافة تتوسم فيه بشارة لانبعاث جديد لم يَسبِق له مثيل.

كان ذلك بعدًا آخر من تجليات عظمة الخالق سبحانه. فهو تعالى يحقق -في بعض الأحيان- أعمالاً عظيمة بأيدي كائنات في منتهى الصغر لكي ينبّهنا إلى حقارة الأسباب، ويذكرنا بقدرته العلية بأسلوب آخر. أجل، غمرتنا مِنَحٌ متتالية من هذا النوع أثناء هذه الفترة. لقد فتح صاحب القدرة اللامحدودة أبواب القلوب على مصاريعها لأفراد بسطاء من أمثالنا، ومنحهم مقام "السليمانية" في مملكة الحب. نعم، منحهم ذلك، فاختلَّ توازن أرواح شيطانية تمثل الحقد والكراهية والصراع على إثر هذه الصدمة المروعة، وراحت تتخبط في وديان أوهامها العفريتية تائهة مولولة.

صارت الكلمة لأبطال التسامح في كل مكان. كان الحجر والتراب يتحول –في أيديهم- ذهبًا خالصًا، والفحم ماسًا، والسم الزعاف عسلاً مصفى. انتشى هؤلاء السعداء بتحول المجتمع نحو هويته الذاتية بوتيرة سريعة، واغتبط المجتمع باكتشافه لأعماقه الذاتية من جديد. أجل، لقد تصافحت الرقة والبشاشة مع اللطف والمروءة، وأغدقت القلوب التي سئمت رؤية الدماء والدموع والآلام على حظها السعيد ابتسامات جذلى مستشعرة بزوغ فجر ينبض بالسكينة والسلام. جلس

الجميع تحت قبة السماء الجميلة يحكون إلى بعضهم قصص القلب وأحاديث المحبة ليل نهار، وولَّت تمتمة الساحرات أدبارها للبيان الحقيقي الذي يبعث السكينة والطمأنينة في القلوب باحثة لنفسها عن جُحر تتوارى فيه. كان النور يحقق انتصاراته على الظلمات في كل الجولات، وتفر غمغمات الحقد والكراهية تاركة مواضعها للحب، والأواصر الإنسانية تعزف ألحانها بأحلى وأرق النغمات. قعد البُغض مكتوف الأيدي ينتظر ساعة حتفه، وتلوّت مشاعر الحقد والعداء كمدًا ويأسًا جراء تقلصها وانكماشها.

لم يكن على وجه الأرض من هو أسعد منا، كنا ننتظر ممن لا زالوا يحسون بإنسانيتهم أن يعلّقوا على قلوبهم ريشًا من أجنحة جبريل، يطيرون بها إلى آفاق تحلق فيها الملائكة، ويُسمِعون الدنيا كلها نغمًا جديدًا تلحينُه من عالم الروح والمعنى، كنا نتوق إلى ذلك بفارغ الصبر. كنا نتلهف إلى سماع نغمة جديدة تنبعث من أعلى طبقات السماء، لا مكان فيها لدمدمة شجار أو صدام، قد أوصدت أبوابها على جميع أصناف الكذب والتزييف والتشويه. لكن المؤلم أن مجموعة قليلة[1] قد جُبِلت على العداوة والاعتداء

[1] في بداية التسعينات بدأ الأستاذ كولن جهودًا حثيثة في نشر ثقافة الحوار والعيش المشترك في تركيا بين كافة الاتجاهات والتيارات والطوائف، وقد لاقت هذه الجهود تجاوبًا كبيرًا من الجميع فخففت حدة التوتر وقضت على كثير من أسباب النزاع والفرقة، وشعر المجتمع بأهمية توحده على قيم إنسانية مشتركة، واستمرت هذه الجهود إلى نهاية التسعينات حتى قررت مجموعة لها نفوذ في البلاد أن تقوّض كل هذه الجهود، فحدث ما تحدث عنه الأستاذ في المقال في تلك الفترة، وهم اليوم يقومون بالدور نفسه بعد أن قطعت تركيا أشواطًا في الوئام المجتمعي وترسيخ ثقافة العيش المشترك. (المترجم).

والفوضى والافتراء تستمد سلطتها وتأثيرها من انتهاجها مهنة التدمير وإثارة الصخب، قد سَدَّت الطرق كالغيلان، واستمالت قلوب بعض الحائرين المترددين العاجزين عن استخدام عقولهم، وسعت إلى إضرام النار في ثمار هذه الفترة المباركة بغية إبادتها، رغم أن خمسة وثمانين بالمائة من أبناء المجتمع متعاطفون معها وفق تحريات واستطلاعات خاصة أجرتها أجهزتهم نفسُها.

ولم يكتفوا بذلك، بل تحينوا فرصة بعد أخرى، وبدأوا يشنون غارات متعاقبة على الدين، يشوهون صورة المتدينين، ويَصِمون الجميع بألقاب أيدولوجية وتصنيفات مشبوهة، فهذا "دينجي"، وهذا "طُرقي"[1]، يشعلون نار الفتنة في كل مكان بفزاعات الرجعية، بل صاروا يرددون الشتائم التي كانوا يمطرونها يومًا على الأمة والدولة في اجتماعاتهم تحت "الرايات الحمراء" في حق المتدينين هذه المرة، يفرغون بذلك ما تخفيه صدورهم من ضغائن وأحقاد دفينة.

فهل يحققون رجاءهم ويفوزون بمبتغاهم؟ تلك قصة أخرى، ولكن كما يقول الشاعر:

إن كان للظالم ظلمه، فوليُّ المظلوم هو الله،
أخو الجور قد يَسلَمُ في هذه الدنيا،
فهل سيَسلَم في ديوان الحق غدا؟ (عاشق محزوني شريف)

صمتُنا وديعة أسلوبنا.. "الرد بالمثل" مبدأ ظالم في أدبيّاتنا.. قطعنا

---

[1] هذه كانت اتهامات الأمس، أما اليوم فقد زاد عليها النظام التركي الحاكم في الفترة من ٢٠١٣ وما بعدها اتهامات جديدة من أمثال "الكيان الموازي، العصابات الإرهابية، الخونة، العملاء، والحشاشين، ومصاصي الدماء.. إلخ". (المترجم)

عهدا على أنفسنا: "لا يد لنا على من ضربنا، ولا لسان لنا على من شتمنا". ماذا نفعل؟ لم يمنحنا الله أنيابا نعضُّ بها، ولا مخالب وحشية نمزق بها. ثم كلٌّ يعمل على شاكلته، لم يكن بوسعنا أن ننهج سلوكًا يناقض طبيعتنا، لأننا اعتبرنا ذلك جريمة في حق أنفسنا وسُوءَ احترام لشخصيتنا، لذلك آثرنا الصمت وضبط النفس وتَجرُّع العلقم في مواطن كان بإمكاننا أن ننطلق فيها بالكلام كالأمواج الهادرة.

ثم إنه لم يبق هناك حاجة إلى أن نردَّ على هذا أو ذاك؛ لأن أزيد من ثمانين بالمائة من المجتمع ورغم كل أصناف التشويه والصخب اعتبروا تلك الافتراءات بلبلة جوفاء، ووقفوا معنا موقفًا مشرّفًا يليق بأمة عظيمة، ولم يضطرونا إلى أن نبدي سلوكًا يناقض أسلوبنا. استطعنا مرة أخرى وبـ"جبر لطفيّ" أن نبقى في إطار العفو والصفح الذي التزمنا به، ولم ننقض عهدنا الذي قطعناه على أنفسنا في استيعاب الجميع بالحب.

أجل، للمرة الأخيرة كشف بعضهم عن زيف معدنهم، وسنحت لنا فرصة كي نعبر فيها عن صدق مشاعرنا ونقاء سريرتنا، وسنلتزم بهذا النهج من السلوك ونواظب على احترام أنفسنا وتوقير شخصيتنا ما حيينا. لن نشجَّ رؤوسًا من أجل دنيا عابرة، ولن نقتلع أعينا، لن نلوث ألسنتنا، ولن نجرح قلوبًا، وسنوجه دعوات الحب إلى الجميع مخلصين في علاقتنا مع أمتنا للعبارات الآتية التي اتخذنا منها شعارًا:

"لقد سامحتُ كل من كان سببًا فيما عانيت منه من أذى وإهانة وتعذيب. لم أذق طوال عمري البالغ نيِّفًا وثمانين سنة شيئًا من لذائذ الدنيا. قضيت حياتي في ميادين الحروب وزنازين الأسر، أو

معتقلات الوطن ومحاكم البلاد. لم يبق صنف من الآلام والمصاعب لم أتجرعه. عوملت معاملة المجرمين في المحاكم العسكرية العرفية، ونُفيتُ وشُرّدتُ في أرجاء البلاد كالمجرمين. وحُرمت من مخالطة الناس شهورًا في زنازين البلاد.. تعرضتُ لإهانات متنوعة. مع ذلك أعلن أنني سامحت وصفحت عمن فعل بي ذلك". (بديع الزمان سعيد النورسي)

وأنا كذلك كمؤمن، أعاهد نفسي أن أكون مخلصًا لهذه المشاعر، أقسم أنني لن أقاطع أحدًا، ولن أحمل ضغينة في قلبي لأحد. أقسم أن أستقبل الموت باسمًا، أعاهد نفسي أن أعتبر الجفاء الصادر من الجلال، والوفاء الوارد من الجمال شيئًا واحدًا. إنني لا أملك التدخل في حقوق الله، ولكن أقسم أنني لن أقاضي أحدًا يوم الحساب في أي حق يتعلق بشخصي.

صورةٌ قَلمية لفارس القلب[1]

(أغسطس ٢٠٠٠)

فارس القلب رمز لبطولة الروح والمعنى، أفقًا وإيمانًا وسلوكًا. فعمقه وسعة أفقه في غنى قلبه وصفاء روحه وقربه من الحق تعالى وليس في علومه ومعارفه. وقيمة تلك العلوم والمعارف تكمن في مدى إرشادها إلى الحقيقة، فلا قيمة لعلوم لا تساعد على فهم جوهر الكون وحقيقة الوجود، ولا معنى لمعارف مجردة لا تحمل مقاصد عملية.

فارس القلب مبرمِج حياته وفق نهج القلب والروح، عازم على اجتناب كل المساوئ المادية والمعنوية، حذِر على الدوام من رغبات الجسد، ومتأهب لمصارعة الحسد والحقد والكراهية والأنانية والشهوات. كل ذلك في تواضع باهر ونكران عظيم للذات. يبذل قصارى جهده دومًا لمساندة الحق ونشره في كل مكان. فهو رمز للإيثار عجيب يتأجج شوقًا حتى ينقل ما أحسّه وشعر به من عالم الملك والملكوت إلى الآخرين.

فارس القلب وقور صابر، لا يصخب ولا يكثر الكلام، بل يحيا

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد الرابع عشر، (يناير - مارس) ٢٠٠٩. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٢٥٩ (أغسطس ٢٠٠٠)، تحت عنوان: (Bir Gönül İnsanı Portresi). الترجمة عن التركية: هيئة حراء للترجمة.

وفق عقيدته وإيمانه. رجلُ إيمان وفاعلية، أسوة حسنة لغيره بمعيشته وبساطة حياته، في حركة دائبة لا تعرف الفتور، يعلّم السالكين آداب التوجه إلى الله والفرار إليه.. إذا سبرتَ أغواره رأيت نارًا تتأجج.. وإذا احترق لا يشكو أو يُظهِر أي غمٍّ، بل لا يفكر في إظهار أي لاعج من لواعج الألم لغيره؛ بهدوء يحترق ويدفئ أرواح كل من يلجأ إليه، وينفث فيها الحرارة.

فارس القلب يشرئبّ دوما إلى الماوراء، مرتبط برضا الحق تعالى، دائم السعي إليه، يقطع المسافات تلو المسافات كجواد أصيل لا يعرف الفتور حتى يبلغ غايته، ولا يلوي على شيء من حطام الدنيا.

فارس القلب رجل حقيقة، لا يفكر في قيامه وقعوده، في حركاته وسكونه إلا في الحق كيف يُقيمه في الدنيا وينشره، مستعدٌّ -بكل أريحية- للتخلي عن كل رغباته في هذه السبيل. يفتح صدره للجميع، يحتضنهم بشفقة وتحنان كملَك نشر أجنحة الحماية والرعاية لتظلل الجميع. لا يبتغي أجره إلا عند الحق تعالى. يحاول في جميع مساعيه أن ينسجم مع الجميع.. لا يشاكس أحدا ولا يضمر عداوة لأحد. قد يكون له رأي خاص في بعض الأحيان وفق مهنته ومشربه، لكنه لا يدخل في منافسة أو احتكاك مع أحد، بل يحب كل من يسعى لخدمة دينه ووطنه وغايته السامية، يؤيد ويشجع كل صاحب عمل إيجابي، ويبذل عناية خاصة في هذا التأييد ليظلَّ موقِّرًا لمنزلتهم ووجهات نظرهم.

فارس القلب يسعى في جميع فعالياته وأعماله سعيًا حثيثًا لنيل توفيق الله تعالى وعنايته ورعايته. ينقّب على الدوام عما يجعله أهلًا

لمثل هذه الرعاية والعناية، ويبذل قصارى جهده للوفاق والاتفاق وسيلةً لجلب عناية الله كما جاء في كتابه تعالى، ويسارع لدعم كل عمل مشترك مع سالكي الصراط المستقيم، بل كثيرا ما يسلك طريقًا يتعارض مع طبعه تحقيقًا لروح الوفاق التي ينتهجها، فهو يعلم أن لا شيء يتحقق بالخلاف والتشرذم وأن الرحمة في التساند والترابط، لذا يسعى أن يجمع جهود من حوله ليستنزل شآبيب رحمة الله تعالى وعنايته.

فارس القلب عاشق للحق تعالى، متلهف لنيل رضاه، يربط جميع حركاته وسكناته في كل أمر وفي كل ظرف وحين برضاه تعالى، ومستعد للتضحية بكل شيء، والتخلي عن كل أمر وترك كل كسب دنيوي بل وحتى أخرويّ لبلوغ غاية رضا الله ﷻ.

ليس في عالم فارس القلب "أنا"، أو أنّ "كل إنجاز أو نجاح أو فعل لا بد أن يمر عبري أنا"، كلا، بل يرى كل إنجاز حققه آخرون كأنه إنجازه هو، ويعد كل نجاحات الآخرين نجاحه هو، لذا يتبعهم تاركًا لهم شرف الريادة وحظوتها. بل يذهب أبعد من هذا، يرى الآخرين أكثر اقتدارًا وكفاءة منه، ومن ثم يهيئ لهم جوًّا أكثر أمنا وأوفر راحة ليؤدوا خدماتهم ويبذلوا مجهوداتهم، ثم يتراجع إلى الوراء خطوة، ليكون بين الناس فردًا من الناس.

فارس القلب لا ينشغل بعيوب الآخرين ونقائصهم، بل لا يجد فرصة للانشغال بها. فهو مشغول بعيوبه، ومجاهد على الدوام لنفسه، وفوق هذا يحمل هم السموّ بهم إلى آفاق أرحب، بوجه طلق وسلوك قويم، يدرأ بالحسنة السيئةَ، ولا يخطر على باله أذى لأي شخص وإن تعرّض خمسين مرة للأذى، فهو أنموذج مثالي للإنسان الفاضل.

فارس القلب قضيته الأولى كيف يقضي عمره في فلك الإيمان الكامل، وكيف يزينه بالإخلاص. فهو رجل حقيقة، قد نذر أفكاره ومشاعره وسلوكه في سبيل مرضاة الحق سبحانه تعالى، فلو أُعطي الدنيا وما فيها لما تزحزح عن هدفه، بل لو أعطي الجنان لما انحرف عن وجهته قيد أنملة.

فارس القلب لا يدخل في أي منافسة مع من يشاطرونه فكره وطريقه، ولا يشعر نحوهم بأي حسد. يحاول ستر عيوبهم وسد ثغراتهم، فهو منهم بمنزلة العضو من سائر الجسد، يتعامل مع رفاق دربه بروح الإيثار في كل أمر مادي أو معنوي؛ مقامًا كان أو منصبًا، جاهًا كان أو شهرةً ونفوذًا، يتراجع هو إلى الوراء ويدفع بهم إلى الصفوف الأمامية، فهو إلى النجاح دليلهم، يحثهم ويصفق لهممهم، ويستقبل فوزهم وتوفيقهم جذلانَ فرِحا كمن يحتفل بالعيد.

فارس القلب دائم الارتباط بمنهجه في العمل وفق رؤيته واجتهاده لا يحيد عنه، لكنه يحترم أفكار الآخرين ومناهجهم، ومستعد للعيش المشترك معهم، لا يفتر عن البحث عن طرق التعاون المشترك مع من يقاسمهم الفكر نفسه. يطور معهم مشاريع العمل، بشعار "نحن" لا "أنا"؛ مستعد للتضحية بسعادته برحابة صدر في سبيل إسعاد الآخرين، لا ينتظر جزاءً ولا شكورًا، بل يعد هذا الانتظار دناءة وسقوطًا يربأ بنفسه عنه، ويَفِرُّ منه كما يُفَرّ من العقارب والأفاعي، يحاول أن يكون منسيا، ويهرب من الرغبة في الصيت والشهرة.

فارس القلب لا يعتدي على أحد، ولا يقابل الاعتداء بمثله، ولا يفقد اعتداله تحت أي ظرف، ولا يتوانى أبدًا عن القيام بكل تبعاته

ومسؤولياته. يقابل الإساءة بالإحسان دوما، لأنه يعتبر مقابلة الإساءة بمثلها من عمل الأشرار، فسلوكه مثال لرجل الإحسان.

فارس القلب يمضي حياته في ظل القرآن والسنة، وفي إطارٍ من شعور التقوى والولاية والعزيمة والإحسان؛ حذِرٌ على الدوام من المشاعر التي تميت القلب كالأنانية والغرور وحب الشهرة. يعزو كل إنجاز نُسِب إليه وكل نجاح تم على يديه إلى العزيز القدير حيث يردد: "كل من عند الله" فينسب كل شيء إلى صاحبه الحقيقي، مؤثرا كلمة "نحن" في كل ما يتعلق بالإرادة الإنسانية على كلمة "أنا".

فارس القلب لا يخاف من أي أحد، ولا يرتبك أمام أي حدث، يستند إلى الله ويتوكل عليه، يتشبث بالسعي فيصل إلى التوفيق، ولا يتراجع أبدا عما يعتقد أنه حق.

فارس القلب لا يحمل ضغينة نحو أحد، ولاسيما من ارتبطوا بالله تعالى وساروا في طريقه. لا يتخلى عن رفاق دربه ولا يهتك سترهم أو يُخجلهم، بل يحاسب نفسه، وقد يرى أن معرفته بأي زلة من زلاتهم ربما كانت عيبًا له. يحذر من أي سوء ظن بالمؤمنين فيما يحتمل الاجتهاد والرأي، ويحسن الظن بهم في كل ما يرى ويسمع، ولا ينزلق إلى ظنون سلبية.

فارس القلب يعلم -وهو يقوم بكل فعالياته وحركاته- بأن الدنيا ليست بدار مكافأة، بل دار خدمة، لذا يؤدي ما عليه من مسؤوليات وخدمات ضمن نظام دقيق جدا، ويعتبر الانشغال بالمثوبة شيئًا ينافي توقير جناب الحق تعالى. يعدّ خدمته للدين والإيمان والإنسانية أعظم مهمة له لنيل مرضاة الله تعالى، ومهما أنجز من عمل لا يجعل

لنفسه أي حظٍّ منه، بل لا يفكر في ذلك أصلاً.

فارس القلب لا يسقط في اليأس أبدا مهما ساءت الأحوال، ولا يهتز أبدًا ولو وقف ضده الناس أجمعون، بل ينهض بعزم أمام كل الصعاب، مُصِرًّا على أسنانه صامدًا، فهو يدرك أن "هذه الدنيا ليست بدار شكوى بل دار تحمّل"، يصبر ويبحث عن طرق بديلة لحل المشاكل التي تعترضه، لا يفتر عزمه ولا إقدامه في أحلك الظروف، ينتج حلولًا مختلفة، ويبحث عن بدائل أخرى.

ما أحوجنا في أيامنا هذه التي يستهان فيها بالقيم الإنسانية، وتتراجع فيها الأفكار الإيمانية، ويطغى في جميع الأرجاء ضجيجُ الفارغين العابثين إلى أمثال فرسان القلوب هؤلاء.

الناذرون أرواحهم للحق[1]

(أكتوبر ٢٠٠٠)

إن أهم ما يسترعي النظر ويحظى بالتقدير والإعجاب عند أولئك الأبطال الذين ارتبطوا بغاية مثلى، أنهم "نذروا" حياتهم كلها في سبيل رضا الله تعالى ونيل محبته سبحانه. وإن أهم مصدر من مصادر قوتهم، هو أنهم لا يبتغون على سعيهم جزاء ولا ينتظرون أجرًا ماديا كان أو معنويا. فلا أهمية في خططهم أو حساباتهم لما يسعى إليه طلاب الدنيا من أموال وأرباح وثروة ورفاهية... هذه الأمور كلها لا تشكل عندهم أي قيمة، بل لا يقبلون أن تشكل عندهم أي مقياس.

إن تلك الغاية السامية لهذا "الناذر" تسمو في قيمتها على كل الغايات الدنيوية، فلا غاية أخرى تصرفهم عن غايتهم الكبرى تلك، ولا مقابل دون مرضاة الله يحول بينهم وبين هدفهم ذلك. إن قلب كل منهم قد تحوّل جذريا عن كل زائل وفانٍ إلى الباقي أبدًا، فلا يمكن قطعًا أن يتحول إلى شيء آخر، ولا أن يرقى إلى مستوى أعلى، لأنه يعلم يقينًا أنْ لا مستوى أعلى من قضيته وفكرته. إنه قد

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد ١٩، (أبريل - يونيو) ٢٠١٠. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٢٦١ (أكتوبر ٢٠٠٠)، تحت عنوان: (Hakka Adanmış Ruhlar). الترجمة عن التركية: هيئة حراء للترجمة.

نذر نفسه لإرشاد الناس إلى الحق تعالى وتحبيبه إليهم، ورَبطَ حياته في سبيل إحياء نفوس الآخرين، ونأى بنفسه عن أي هدف عرضي زائل، أي ركَّز على هدفه مُعْلِيًا من قيمته، موحِّدًا قبلتَه ومخلّصًا له من التشتت. لن تجد عند أمثال هؤلاء شعارات تُفرّق ولا تُجمّع، وتُشتّت ولا تُوحّد، وتقود إلى النزاع من أمثال "هم" و"نحن" أو "أنصارنا" و"أنصارهم". ليس لديهم أي مشكلة ظاهرة أو خفية مع أحد، بل تراهم في سعي دائم ليفيدوا من حولهم، يُبدون عناية فائقة لعدم إثارة أي مشاكل أو حساسيات في المجتمع الذي يعيشون فيه. وإذا رأوا أي سلبيات في مجتمعاتهم لا يتصرفون كمحاربين غلاظ، بل كمرشدين رحماء يدعون الناس إلى الأخلاق الفاضلة، ويسعون في هذه السبيل سعيًا حثيثًا، يبذلون ما بوسعهم للابتعاد عن فكرة الحصول على نفوذ سياسي، أو الوصول إلى مناصب مختلفة مهما كان الثمن وأيًا كان الأسلوب.

إن أهم ما يميز أولئك الناذرين أرواحهم للحق هو المعرفة وسبل استثمارها، وكذلك رؤية أخلاقية متينة يرسخونها في مظاهر الحياة المختلفة، وفضيلة منبثقة من الإيمان لا يمكن الاستغناء عنها. وهم حريصون كل الحرص على تجنب ما لا يفيد مستقبلهم الدنيوي والأخروي من دعايات فارغة تجلب شهرة أو صيتا أو نفعًا ماديا، ويبذلون قصارى جهدهم بامتثالهم لما لديهم من معارف وأفكار -كلٌّ حسب سعة أفقه- من أجل إرشاد من يحتذون بهم أو يوقرونهم إلى المعاني الإنسانية السامية، لا يبتغون جزاء على ذلك ولا شكورًا، يفرون من المنافع الشخصية، كما يفرون من العقارب والأفاعي

المهلكة. ينأى بهم غناهم النفسي عن كل نوع من أنواع الدعاية والضجيج وحب المظاهر، ويعصمهم عن أمثال هذه السفاسف، فثراؤهم الروحي هذا قوة جذب مركزية يدور في فلكها مسرعا مَنْ كان له عقل، وسلوكهم الذي يرشح عسلا وشهدا يسحر كل من ذاق طعم شرابه، ويغدو في إثره مهرولا.

لا يدور بخلد أي واحد منهم أن يتحدث عن نفسه أو يتوسل دعاية ترفع شأنه، ولا يبدي أي رغبة أو شهوة في نشر صيته. يحاول بكل جهده أن يبلغ مستوى حياة القلب والروح، رابطًا كل فعالياته هذه بالإخلاص، لا يبتغي غير وجه الله تعالى. وبعبارة أخرى، يهدف كل واحد منهم إلى مرضاة الله وحده، ويسعى إلى هذا الهدف السامي بكل حوله وقوته، لا يلوث أحد منهم عزمه الذي يحكي عزم الأنبياء بأغراض دنيوية أو بسعي للحصول على صيت أو شهرة بين الناس أو نيل إعجابهم.

يتعرض الإيمان والإسلام والقرآن اليوم إلى هجوم حادٍّ وانتقادات علنية مباشرة، وتثار حولها الشبهات، لذا كان من الواجب أن تتوجه الجهود جميعها نحو نقاط الهجوم هذه، لتحصين الأفكار والمشاعر الإسلامية لدى الأفراد، وإنقاذ الجماهير من حياة سائبة لا هدف لها، وربطهم وتوثيق صلتهم بالأفكار والأهداف العليا. ولا يمكن إشباع هذه الحاجة وإنقاذ الأفراد من اللهاث وراء البحث عن أهداف أخرى إلا بتقوية الإيمان في القلوب من جديد بكل ألوانه وزينته وجماله وأسلوب خطابه؛ أي "توجيه الإنسان إلى الحياة الروحية والقلبية من جديد"، ويزداد هذا الأمر أهمية، في ظل عهدٍ يُرى فيه

أن تغيير كل شيء بات ضروريًّا، وأن تغيير بنية القالب الاجتماعي وتحويلها، ثم صبها في قوالب جديدة بات لازمًا؛ ولا شك أن أية محاولات من هذا النوع تحمل في طياتها احتمال النزاع والشقاق والاحتكاك والتفرق، لكن أسلوب التوجيه الإيماني لا ينطوي إلا على التفاهم والتعاون والائتلاف.

إن الأرواح التي نذرت نفسها لرضا الحق تعالى لا تعيش أي فراغ في حياتها العقلية والمنطقية نتيجة توحيد قبلتها، بل تراهم منفتحين دائمًا على المنطق والعلم، يعدون هذا من ضرورات الإيمان الحقيقي، تذوب أهواؤهم الدنيوية ورغباتهم الجسدية في حنايا قربهم من الله وفي أعماق مشاعر التوحيد عندهم وجَوِّه الذي يشبه المحيطات في سعتها وأعماقها وأغوارها. لذا تتحول رغباتهم هذه إلى شكل آخر وإلى صورة أخرى... إلى ذوق روحاني نابع من رضا الله. ففي الوقت الذي يتنفس فيه هؤلاء -الذين نذروا أنفسهم للحق تعالى- جوًّا ملائكيًا في ذرى حياتهم الروحية والقلبية تراهم يتعاملون مع الدنيويين أيضًا ولا ينسون حظوظهم الدنيوية المشروعة. فهم -من جانبٍ- دنيويون لأنهم يتوسلون بالأسباب ويراعونها، -ومن جانب آخر- أخرويون لأنهم يستثمرون كل شيء وكل مسألة من زاوية حياتهم الروحية والقلبية. ولا يعني توجيهُ حياتهم الروحية والقلبية لحياتهم الدنيوية بدرجة ما أنهم يهملون دنياهم ويتركونها تمامًا أو ينعزلون عنها، بل يقفون كل حين في قلب الدنيا منخرطين فيها، ليس من أجل الدنيا ولا باسمها، بل باسم الله ورعايةً للأسباب وربطَ كل شيء بالآخرة.

والحقيقة أن هذا هو السبيل الوحيد لبقاء الجسد في إطاره

والروح في أفقها، أو ربط الحياة بالقلب والروح وائتمارها بأمرهما. فحياة البدن بالمقياس الضيق للجسد إطارُها محدود، لذا ينبغي أن يتوجه أفق الحياة الروحية المتطلعة إلى الخلود نحو اللاتناهي على الدوام. فإنْ تفاعل الإنسان -باعتبار هذا المستوى لأفق حياته- مع الأفكار السامية في كل حال من أحواله، ووجّه حياته لواهبها، ورأى أن الإحياء أعمق قيمة في الحياة، ورنا بنظره نحو الذرى على الدوام، صار -أراد ذلك أم لم يرد- فردا يطبق برمجة عالية، يُلجِم أهواءه ويُحجِّم أذواقه الشخصية ضمن دائرة معينة.

إن توجيه الحياة وتسييرها وفق هذا العمق ليس أمرًا هينًا، لكن سرعان ما يتحول ذلك إلى أمر يسير لدى من نذر نفسه لله تعالى، وجعل غايته تعريف خالقه للناس وتحبيبه إليهم، فتراه يطرق بإحدى يديه على أبواب قلوب الناس وبالأخرى على باب رحمة الحق تعالى، إنه في حركة دائبة بين هذين الأمرين، موكلاً شأن هداية الجميع إلى الباري ﷻ.

إن من يشعر بدفء الإيمان بالله تعالى في أعماقه، ويسعى ليعبّر عن هذا بلسان قلبه وجذوة فؤاده، رَهَبًا منه سبحانه حينًا ورغبًا إليه أحيانًا أخرى، لن يواجه صعوبة في أي أمر، فكلما ركَّز تفكيره ونظره في الله تعالى، وفي تحري سبل التواصل معه، وتقييم كل وسيلة توصل إليه، جعله الحق تعالى محط نظره وعنايته الخاصة، وألقى في قلوب الناس محبته واحترامه، وغمره -مقابلَ وفاء أرضي ضئيل- وفاءٌ سماويٌ أضعافًا مضاعفة. وهاؤم قطرة واحدة بسعة البحار من هذا الوفاء: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ

وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(الأنعام:٥٢). فهؤلاء الذين نبه الله تعالى رسولَه الكريم ﷺ بعدم طردهم من مجلسه ليسوا سوى المداومين على حضور مجلسه ممن نذروا أنفسهم لمرضاة الله تعالى. وبقدر إخلاصهم وصفاء قلوبهم في نذرهم هذا يختصهم الله بجميل عطفه وسابغ فضله.

أجل، فكلما ازداد ارتباط المرء بالله تعالى واستمرت محاولاته لنيل رضاه، وجعل ذلك شغله الشاغل وغاية حياته وهدفها، غمرته أفضال المولى ﷻ وأنعُمُه المختلفة، وتردد ذكره في الملأ الأعلى في عوالم ما وراء السماوات. إن كل فكر لمثل هذا الإنسان في الدنيا وكل كلام أو سلوك وتصرف مُضمَّخ بالإخلاص ومعطر بأريجه، يتحول في ذلك العالم الآخر إلى جو من النور، وإلى صحائف تقدير مبهجة. هؤلاء السعداء الذين عبَّأوا أشرعتهم بنسائم هذه السعادة المقدسة يهرولون إليه مسرعين على الدوام فضلًا منه تعالى حسب عمق إخلاصهم، لا يعترضهم عائق، ولا يمنعهم حاجز. والصورة التي يرسمها القرآن لهؤلاء جديرة بالتأمل، يقول الحق جل وعلا:

﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ۞ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(النور:٣٧-٣٨).

إن أمثال هؤلاء الأبطال من ذوي الأرواح التي تخلصت من كل أنواع الأسر وألوان القيود، والذين رموا أعباء كل أحزانهم وهمومهم

عن أكتافهم بتسليم أنفسهم لله والتوكل عليه، قد وجدوا كل شيء. فإزاء الأفضال والهبات التي حصلوا عليها في عالم القلب والروح، لم تعد جميع النعم الدنيوية الغالية والأهواء والمباهج إلا كبقايا طعام وأقداح فارغة متناثرة فوق الموائد.. وإزاء لوحات الجمال وصورها التي تزين عوالم قلوبهم، غدت الدنيا وما فيها كأنها خرافة أو أسطورة من الأساطير. وما قيمة شيء يخضرّ في الربيع ثم يذوي في الخريف؟

إن الأرواح التي تعي هذه الحقيقة وتُعايِشُها على الدوام وترنو ببصرها إلى الخلود والبقاء، تضرب على كل شيء لا يتسم بالأبدية علامةَ الرفض وتولّيه ظهورها ماضية في طريقها دون أن تنثني إليه.. تسير في درب القلب مُيمِّمة وجهَها شطرَ بساتين الأبد وحدائق الخلود، لا تلوي على الدنيا وزخارفها.

المؤمن لا يسقط وإن اهتز[1]

(مايو ٢٠٠١)

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران: ١٣٩).

إن الصورة الراهنة للأوضاع مرعبة، لكنّ تجاوزَ هذه الأوضاع وتخطّيها بالإيمان والأمل والتوجه إلى الله ليس مستحيلًا. فالإنسان إذا سار نحو الشمس أو طار فإن ظلَّه سيتبعه، أما إن أدار ظهره لها فسيكون تابعًا لظلِّه. لذا ينبغي أن نصوب أنظارنا دائما نحو منبع الضوء اللانهائي. أجل، إن كل شيء مرتبط بـ"الاستناد إلى الله" على حد تعبير شاعرنا "محمد عاكف".

لا شك أننا نعيش أزمات حقيقية معقدة ومتداخلة، لكن معرفة أسبابها ومواجهتها بإيمان وعزم وأمل يجعل تجاوزها ممكنًا، وإن استسلمنا للوهم فإنه سيضخم من حجمها. وإذا تدخلت السياسة فيها واستغلتها فستكبر، وتبدو أكبر بكثير من حجمها الحقيقي، وتصل -نتيجة آثار التخريبات النفسية- إلى وضع يصعب الخروج منه.

نعيش اليوم إحدى المراحل التي يتكرر فيها التاريخ بعِبَره المختلفة.

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد ١٧، (أكتوبر - ديسمبر) ٢٠٠٩. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٢٦٨ (مايو ٢٠٠١)، تحت عنوان: (İnanan Sarsılsa da Devrilmez). الترجمة عن التركية: هيئة حراء للترجمة.

فالمآسي والمصائب محيطة بنا من كل جانب كالزلازل والفيضانات والحرائق وقمع الحريات وكتم الأنفاس... ورغم هذا كله لا زلنا نرى صامتين من مسلوبي الإرادة، خائفين حتى من التأوّه أمام كل هذه النوازل. وفي مقابل هذا الصنف نرى ظالمين غادرين، يظلمون الناس ويغدرون بهم، ثم يتظاهرون بالبكاء ويبادرون إلى التشكّي، يقلبون الحقائق رأسًا على عقب ويُظهِرون المظلومين في صورة ظالمين. وإلى جانب هؤلاء وأولئك نرى حشودًا جماهيرية غير متوازنة في تصرفاتها لأسباب شتى، فهي على الدوام غاضبة ساخطة. هذا فضلا عن أوساط مختلفة كأوساط الإدارة الفاسدة والأوساط المتحكمة والأوساط المحرّضة والأوساط اللاهية التي لا تبالي بشيء، وأولئك الذين يعدون الخداع اقتدارًا والسرقة مهارة، وكذلك الانتهازيون الذين لهم حظوة عند هؤلاء، والذين يحتمون وراء حصانتهم القانونية، والذين يرفعون شعار "الحق للقوة" ويستخدمونه حتى النهاية من أئمة الظلم والمرتشين والآثمين والمختلسين وتجار الأسلحة وشبكات تجارة المخدرات والمدمنين عليها، وتنظيمات ملعونة أخرى لم يُعرَف لها اسم بعد... كل هذه الأوساط تدفع الجماهير الغاضبة التي فقدت اتزانها إلى مزيد من أعمال الشدة والعنف.

أجل، هناك خريف حزين في كل مكان، والقيم الإنسانية ديست تحت الأقدام، فلا حرمة للفرد، ولا احترام للقيم الإنسانية. وإذا كان هناك بضعة أفراد يتصرفون بشيء من الاحترام، فمن أجل الحصول على مقابل له. أما الجماهير فقد صارت أرقاما تُعَد، وكتلًا لا قيمة لها منتشرة هنا وهناك، أحوالهم مزرية تتفتت منها الأكباد، تُنثر فوق

رؤوسهم كالمطر وعودٌ بالوظيفة أو بتأمين لقمة عيش كريم أيام الانتخابات، لكنها تتلاشى بعد ذلك بلا أي نتيجة، لذا باتت عديمة الجدوى لعدم تحققها.

لقد غدا العلم بلا راع، والمعرفة والعرفان وراء جبل قاف... والفن مجرد حارس للأيدولوجيات... واستسلمت بيوت العلم للتقليد... أما عشق الحقيقة وحب العلم والتوق للبحث فهي أمور لا تستحق الاهتمام والالتفات إليها... وما يُبذَل من مجهود لا يتجاوز حدود الهواية... ماتت مؤسساتنا الحيوية التي أودعْنا فيها حاضرنا ومستقبلنا وغابت عنها الحياة. تُردِّد الدعايات والادعاءات أننا نكفي عوالم عدة، بينما تشير الحقائق والأرقام صارخة بأننا لا نكفي مدينة صغيرة. قيمنا الأخلاقية، وشعورنا بالمسؤولية، والتزامنا بالحق والعدل دون المستوى العالمي بكثير، لا تجد عند كثيرين منا حياء أو خجلاً أو أي احترام لحق أو توقير لفكر... ضاع منذ زمان بعيد شعورُ الخوف من الله وخشيته، وخمد حس الفضيلة... أما الحياء من الناس فنسعى جاهدين للتخلص من هذا الشعور المزعج(!).

لقد تحولنا إلى كتل بشرية لا روح لها ولا قلب، وانعكس هذا على وجوهنا، فلم يبق عند معظمنا إحساس بالرحمة أو الشفقة، ولا شعورٌ بالاحترام والتوقير. أما تعداد الذين يرون الدين والتدين مؤسسة عتيقة وأفكارًا بالية فلا يستهان بهم... المشاعر الدينية خربة في كل مكان، والتدين مُهان... اللامبالاة منتشرة وكذلك السقوط الأخلاقي... الخيانات متداخلة بعضها مع البعض الآخر في كل جانب، والصرخات والتأوّهات تُسمع من هنا وهناك... في هذه

الأرواح التي فقدت مشاعرها الإنسانية تَرَى جمودًا في الأحاسيس وشللاً في العواطف... أو تتردد على المسامع معاذير تلوكها الألسنة من أمثال "هل أنا المكلف بإنقاذ الكون؟". فقدتِ القلوب الحساسة توازنها وأصبحت أسيرةَ انفعالاتها... لا يُحصى عدد الانتهازيين الذين يرددون: "اليوم يومنا، والعهد عهدنا، والزمان زماننا". أما عدد الذين جعلوا الوصول إلى الثروة عن أي طريق هدفَ حياتهم فالله تعالى وحده العالم بهم.

في مقابل هذا، يُنكِّل أصحاب القوة الغاشمة بمن يفكر ويحس ولو قليلًا، ويتعرض للانسحاق من يخدم هذه الأمة بإخلاص، وتُنصَب الفخاخ الشيطانية لهم في كل منعطف. صحيح أن الساكتين الآن لا ينالهم شيء، ولا يقال لهم شيء، ولكن لا أحد يعرف ماذا سيأتي به الغد.

وهناك شرذمة هامشية تثير على الدوام ضجة وجلبة ضد الدين والإيمان كلما سنحت لهم فرصة، تستهين بالرأي الحر وبالديمقراطية الحقة وبحقوق الإنسان بدرجة عدائها للدين والإيمان، وتعلن الحرب على كل من يخالفها في الرأي والفكر، وتُدين كل من لا يشاركها وجهة نظرها، وتمسّه في عرضه وشرفه، بل ربما تلجأ إلى التصفية الجسدية لمن لم تقو على مواجهة فكره وحججه منطقيًا.

ومن بين هؤلاء أيضًا نماذج وأفراد لا يملكون ذرة من شرف الفكر وعفة الروح، لا يترددون اليوم عن تكذيب ما قالوه بالأمس، ولديهم استعداد أن يذمّوا غدًا ويخسفوا به إلى سابع أرض مَن صفقوا له اليوم، وهتفوا له بحياته واسمه. السمةُ الأساسيةُ لذوي الوجهين هؤلاء هي

أنهم يطفون على السطح، ويتلذذون بلدغ الآخرين كالثعابين دائمًا. أما التعصب الأعمى لدى بعض هؤلاء فحدث عنه ولا حرج، فهم لا يؤمنون بالله تعالى ولا برسوله ﷺ، قد عميت بصائرهم فلا يرون، وصُمَّت آذانهم فلا يسمعون، لا يملكون روحًا ولا قلبًا، ولا عقلًا متدبرًا، ليس لديهم توقير لله ولا لرسوله، جهالتهم مركبة فلا يعلمون، ويجهلون أنهم لا يعلمون، بل ويحسبون أنهم يعلمون.

والخلاصة أننا خائضون حتى الركب في جميع السلبيات التي طالما تمنينا عدم وجودها، والأنكى من هذا انعدام أي خبر أو علامة مما كنا نأمله –كأمة– منذ سنوات عديدة. وإذا كان هذا هو المنظر العام فمن الصعب الحديث عن الأمل أو العزيمة. لكننا –كأمة– علينا أن نتجاوز هذه الصعاب، فليس أمامنا خيار آخر، لأن المصائب التي نواجهها حاليًا قد تقفز أمامنا من جديد في المستقبل بل قد تتضاعف، وعندئذ ستؤول البلاد من أقصاها إلى أقصاها إلى ما يشبه مقبرة جماعية، وقد يتحول عزم الأمة وأملها كفنًا على رأسها تلتف به، وتنقلب الأنهار "نهروان"، والسهول كربلاء، والأعداء "شِمْر"، وتغدو الشهور كلها شهر المحرَّم. وقد تتتابع المؤامرات الواحدة تلو الأخرى، وتنشب حرائق كبيرة فتحرق إلى جانب بيوتنا ومساكننا آمالنَا وخططَنا وتحوّلها إلى رماد.

وقد يتخلى عنا الجميع... أصدقاء كانوا أم أعداء، ونظل وحيدين معزولين، بل قد لا يكتفون بهذا، قد يطعننا من ظهورنا أناس لا نتوقع منهم هذه الخيانة. أجل، نحن نعيش ظروفًا يغدر فيها العدو، ويجحد فيها الصديق، ويتخلى عنا تمامًا. لكن علينا ألا نستسلم أبدًا

أو ننحني، علينا أن نظل صامدين ثابتين على أقدامنا مستندين إلى إيماننا وآمالنا، مسرعين نطوي المسافات طيًّا مثل جواد أصيل، يعدو ولا يتوقف حتى النفَس الأخير.

فلو وصلت المصائب والفواجع إلى أضعاف ما هي عليه حاليًا، ولو أحاط بنا الأنين والنحيب من كل جانب، ولو بلغ الصراخ عنان السماء... ولو تحولت المآسي الحالية إلى حمم بركانية متدفقة نحو القلوب... ولو تلوّت الأمة بأجمعها من الألم واليأس، ورَسمت السيوفُ أقواسًا فوق الرؤوس المفكرة، ولو سُحقت الأدمغة بالمطارق، وانفرد الظالمون في الميدان، وعمَّ ظلمهم كل مكان، ولو غطى اليأس الأسود أفضل القلوب وأطهرها، ولو انهارت البيوت وتشتت العوائل وانهدمت أواصرها... ولو خسف القمر وانطفأت الشمس، وانغمرت القلوب مع الأبصار في ظلام دامس... ولو طغت القوة وتجبرت... وانسحق الحق تحت عجلات القوة الغاشمة... ولو كشرت القوى الظالمة عن أنيابها، وانزوى الضعيف في صمت... ولو خارت قوى أصحاب القلوب العاجزة عن المقاومة واحدًا إثر آخر... وسقط كل أصحاب القلوب... لو حدث كل هذا، لما كان علينا إلا أن نستمر في موقفنا، ونوفّيه حقه من الثبات دون أن نبدل سلوكنا قيد شعرة... نصمد في مواقعنا لنكون موضع أمل، ومنبع قوة يلجأ إليه الجميع، ونحاول من جديد إشعالَ جميع المشاعل الخابية.

إن كان إيماننا بالله تامًّا فلابد أن يكون الأمل والعزم شعارنا، وتقديم الخدمة للأمة مهمتنا. يجب أن يكون توقيرنا للحق تعالى، ونذر أنفسنا لإسعاد الآخرين بدرجة نفضِّل معها أن نُطْعِم قبل أن نَطعَم، وأن نكسو

قبل أن نُكسَى، فيَسعَد من يرى أسلوب حياتنا الموقوفةِ للآخرين، ويفرح من يرى أمانتنا في أداء الأمانة.

يجب أن نعيش طاهرين نزيهين لا يستطيع أي حرام أو أي أمر غير مشروع أن يلوث أحلامنا فضلًا عن حياتنا. ومن يدري كم فقدنا وكم خسرنا، وكم هبطنا من علونا جراء بعض هذه التلوثات. لا يفلح أبدا من لا يوفِّي موقعه حقه وينحرف عنه، علينا أن نَعُدّ حب الحياة أو المنافع الشخصية انتحارًا فضلاً عن الأهواء الدنيوية، بل علينا ألا نجعل حتى الجنة غاية عبوديتنا، علينا أن نربط قلوبنا بالهبات والمنح الربانية وأن نسعى لنيل رضاه سبحانه، علينا أن نضع سدًّا منيعًا أمام رغباتنا وأهوائنا الشخصية، نعطي -دون انتظار أي مقابل- ولا نأخذ، نحسن على الدوام، وعندما ننطلق نحو "المحبوب" ونسلك سبيل السعداء لا تخطر نفوسنا على بالنا.

لقد اعتاد الذين نذروا أنفسهم لسلوك طريق السعداء -في الماضي والحاضر- ألاّ يطالهم اليأس والقنوط وألاّ يهتزوا، أو تأخذهم الحدة والغضب حتى وإن تعرضوا من كل جانب لمشاعر العداء والكراهية، وإن قاسوا من جحود الأصدقاء وشماتة الأعداء، وإن أصبحوا هدفًا لهجمات ذوي الأرواح المملوءة حقدًا ونفورًا... فهم لا يقابلون هذا بشعور مقابل من العداء والكره، بل يدفعون السيئة بالحسنة وبالكلمة الطيبة وبسلوك الإحسان وبالقول اللين فيصلحون بذلك جميع السلبيات، ويقابلون الأفكار الهدّامة بحملات البناء.

ولو انقلب كل شيء في البلد -لا سمح الله- رأسًا على عقب في يوم من الأيام، وغرقت الجماهير في ظلام دامس، وتقطعت الطرق

وتهدمت الجسور فلن يضطرب هؤلاء ولن يهتزوا، لأنهم يعدون هذا الاهتزاز عدم توقير لعقيدتهم وإرادتهم، فهم يحفزون مشاعر الحياة عند الآخرين وينشطونها بدلاً من إظهار دلائلِ الموت ومناظر الخراب في جو من اليأس والقنوط، ويهتفون بكل من يستطيع السير: "إن الطريق مفتوح".

إنني على يقين بأن يد العناية ستمتد حتمًا إلى أبطال العزم والإرادة هؤلاء، إن لم يكن اليوم فغدًا... وعلى يقين أن العواصف الهوجاء التي تقطع عليهم الطريق ستهدأ وتسكن، وتذوب الثلوج وتزول، وتتحول السهول والوديان القاحلة حولهم منذ قرون إلى جنان نضرة، ويبتسم لهم جَدُّهم.

إن اليأس عفريت يقطع الطريق على السائرين، وفكرة العجز وانعدام الحيلة مرض قاتل للروح، والأبطالُ في تاريخنا المجيد لم يَبرزوا إلا لأنهم مضوا بكل عزم وإيمان، أما الذين سلموا أنفسهم لمشاعر العجز والقنوط فلا أرضًا قطعوا، ولا مسافة ساروا، بل ضاعوا في الطريق. فمن خمدت أحاسيسهم ومشاعرهم، ومن فقدوا قابلية الحركة لن يبرحوا أماكنهم، ومن غطوا في سبات عميق لن يصلوا إلى أي هدف، ومن خارت عزائمهم وانهارت إراداتهم فلن يستطيعوا الصمود قطعًا على أرجلهم مدة طويلة.

واليوم إذا كنا نفكر في غدنا، ونأمل في الوصول إلى المستقبل ونحن ننبض بالحركة والحياة، فعلينا ألا ننسى أبدًا أن الطرق لا تُقطع إلا بالمسير، وأن بلوغ الذرى لا يكون إلا بالعزم والإرادة والتخطيط. فالذرى التي يبدو الوصول إليها مستحيلا، قد تم الوصول

إليها مرارًا، وقَبَّلت قممُها الشاهقةُ أقدامَ العزم والإرادة، وأوقدت في قلوب أصحابها عزمًا جديدًا.

إن من عرف طريقه في أي عهد من العهود واهتدى إلى الهدف الذي يتوجه نحوه، ووثِق بالقوة التي يستند إليها، استطاع بفضل هذا الشعور، وبفاعلية هذه الديناميكية التي يشعر بها في أعماقه أن يرقى إلى هذه الذرى ويتجاوزها ويتسنَّم قممها مرات ومرات. إن مثل هؤلاء تصغر الأرض تحت أقدامهم، وتَفتح السماواتُ صدرها لعرفانهم، وتقف المسافاتُ تحيةً لعزمهم وإكبارًا واحترامًا لجهودهم، وتتحول العوائق والموانع إلى جسور تعبر بهم إلى أهدافهم. أجل، إن الظلام يندحر دائمًا أمام هؤلاء الشجعان، وتنقلب المصائب إلى شآبيب رحمة، وتتحول المشاق إلى طرق نجاة، والصعاب إلى حوافز انطلاق.

لو أبادوا حاضر مثل هذا الفارس، فسوف يبمم وجهه نحو المستقبل مواصلاً طريقه المتجه إلى الغد. ولو هدموا مستقبله أيضًا لن يتردد في نخس جواده نحو مستقبل أبعد. هؤلاء لا يملكون إزاءه أي حيلة، فمثل هذا -بفضل إيمانه وعزائمه وآماله- لا يُثنِيه عن طريقه هزيمة يعيشها ولا عثرة تطرحه أرضًا، بل لا يتوقف عن رسم خطط جديدة للنجاح والفوز، ويجد في ذلك عزاءه وسلواه.

عندما يجابَه بموجات من الحقد والعداء، وتدلهمّ أمامه الخطوب، وتتكاثف الظلمات بعضها فوق بعض لا يتردى في وديان اليأس والقنوط، ولا يضطرب أو تهتز له شعرة، لأنه لا يمثل الأمسَ فقط ولا اليومَ ولا الغدَ، بل هو في موقع يَسرِي كلامُه إلى الأزمنة جميعًا، فهو "صاحب الوقت" و"ابن الزمان". يدرك -إلى جانب لغة عصره-

روحَ الدين وأسرار القرآن.. كل من يراه ويتلمس شخصيته يتذكر عهد النبوة والخلفاء الراشدين، يبدو بمشاعره وأفكاره وعفته ونزاهته ووفائه وصدقه وخلقه المتين كأنه صرح مشيَّد من الجلمود أو الجرانيت، لا يتفتت ولا تسقط منه قلامة ظفر واحدة وإن تهدم كل ما حوله أو انهار.

نحن نأمل -بفضل هذه الأخلاق العالية والسجايا القوية والمعاني الراسخة- أن تجد الصدورُ التي تعاني آلام الغربة والهجران سلواها وشفاءها، إن لم يكن اليوم فغدًا، وأن تستقيم أصلاب أولئك الذين عاشوا منحني الظهور منذ عصورٍ، مؤكدين وجودهم بهتافهم، وأن تحيا الأرواح التي غشيها الظلام فتبدد الظلمات التي تحيط بهم وتحاصرهم، وأن يبذل الجميع جهودًا استثنائية، ليتجاوزوا -بسبب من إرشاد المعاني المتجذرة في أعماق نفوسهم- جميع العقبات، ويتّحدوا مع ذواتهم وماهيتهم حتى يبلغوا ذروة الحظ السعيد.

حركة نماذجها من ذاتها[1]

(أغسطس ٢٠٠١)

في هذا المقال أحب أن أتحدث عن موضوع يقتضيه خُلُقُ الوفاء، وهو في الوقت نفسه موضوع يصعب الحديث عنه لأنه يشبه قصص البطولة القريبة من الأساطير. ولا أدري هل يمكن لمقالة أن تحيط بحركة الإحياء والتجديد التي بدأت فسائلها ونبتاتها الصغيرة تورق في أرجاء المعمورة؟ لا أظن، فمعلوماتي في هذا الموضوع مقصورة على ما شاهدته في أفلام الفيديو، وشهادتي هنا بما نما إلى مسامعي، وقلمي أسير لقريحتي، ولا أدري متى تتجلى حقيقة ما تم وتتبلور معاني ما جرى.. فيا ليت شعري ماذا يمكن أن نقول في هذه الحال؟ إن كل ما يمكنني في هذا الأمر هو أن أصور زهرة واحدة تعبر عن بقية زهور البستان. وهل يمكن بصورة ميتة لزهرة واحدة تصوير جمال بستان بأكمله، لكل زهرة فيه لونها، ولكل وردة فيه جمالها الخاص؟ من الواضح استحالة هذا الأمر. ومع هذا فمثل هذه الجرأة باتت ضرورة ملحة لدعوة أرباب القلوب والعلم كي يسجلوا ملحمة

---

[1] مجلة حراء، العدد ١٣، (أكتوبر - ديسمبر) ٢٠٠٨. ونشر المقال لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٢٧١ (أغسطس ٢٠٠١)، تحت عنوان: (Örnekleri Kendinden Bir Hareket). الترجمة عن التركية: هيئة حراء للترجمة.

العصر هذه ويشرحوها. فإن أفلحت محاولتنا هذه في دفع ذوي الهمة إلى البدء في هذه المهمة، فقد حققت بغيتها.

ينبغي الحديث عن هذه الملحمة مهما كان الأسلوب ومهما كان مستوى التعبير، لإيداعها في ضمير التاريخ أولاً وأداءً لحق الوفاء لأولئك الأبطال الذين نذروا أنفسهم لها وأنجزوها أيما إنجاز ثانيًا. وسيكون جحودًا إن لم يُنقَل عبير هذا النسيم الرقيق الذي هب في أرجاء المعمورة في زمن قصير إلى الناس كافة، وسيكون نكرانًا للفضل إن لم تتم الإشادة بهذا الهواء الدافئ، وبهذا الفكر النضر، وسيكون قدحًا في الشهامة، وعدم توقير لمثل هذه الخصال السامية، إن لم يُعبَّر عن موجات الحب وقبول الآخر التي تموجت بها أرجاء الأرض قاطبة.

إن هذا الحراك ظاهرة ينبغي أن يُلتَفَت إليها بجدية، فَقَدْ قررت فئة قليلة مَلَك الحبُّ قلبها أن تنطلق إلى مشارق الأرض ومغاربها رغَبًا في رضوانه ﷻ، في وقت عز فيه هذا الخاطر حتى ندر.. انطلقت دون أن تهتم بآلام الغربة وبفراق الأحبة، ملؤها العزم والثقة... طوت في أفئدتها –عشقا في خدمة الإيمان– لواعجَ الفراق، وَحُبَّ الوطن، وأوجاعَ ترك الأهل والأحبة... قليلٌ من اهتموا بما أهمّهم، وقليل من رابطوا في سبيل الله كرباطهم، وقليل من رددوا وهم ينتشرون في المغرب والمشرق مثلما ردد أتباع الرسل "سلكنا دروب الحب فنحن المجانين..." (الشاعر نيكاري).

لقد ذهبوا وهم في ميعة الصِّبا والشباب، لديهم آمال وأشواق دنيوية لها جاذبية لا تقاوَم كتلك التي تشتعل في قلب كل شاب،

خاصة في هذه الفترة النضرة من ربيع الشباب؛ ذهبوا في عصر طغت فيه المادية والأحاسيس الجسمانية على المشاعر الإنسانية، كبتوا تلك المشاعر والآمال المشتعلة في صدورهم شوقًا إلى وصال آخر أقوى وأكثر التهابًا وتوهجًا، وانتشروا في مشارق الأرض ومغاربها حاملين في أفئدتهم تلك الجذوة المشتعلة من نشوة الرعيل الأول.

لم تكن تلك السياحة من ذلك النوع الذي يهيم به الشاب في مرحلة مراهقته خلف حلم ملكة جمال مزيفة، يعيش طول عمره بسذاجة في أوهام آلام الفراق وخيالاته، مبتعدًا عن ذاته ولا يستطيع الوصول إلى مبتغاه أبدا؛ بل كانت سياحة هؤلاء الأفذاذ واعية، ملؤها المشاعر الصادقة والإرادة الحازمة والإخلاص العميق... أو بعبارة أخرى، قد استعلوا على حب كل ما سواه تعالى.

هؤلاء المرابطون في سبيل دعوتهم، ديناميكيتهم الإيمان دومًا، وأحوالهم الطبيعية العشق، ومبتغاهم نذر أنفسهم للحق تعالى، وأسوتهم النور الخالد ﷺ. أجل، لم يَعلَقوا في طبائعهم النفسية، ولم يستسلموا أمام عقبات تعترضهم. حب الله تعالى والسعي لنيل مرضاته، وتوق وصاله تعالى كان هو العشق الوحيد الذي لم يبهت في أفئدتهم، لذا شدوا رحالهم إلى أبعد زوايا العالم، وساروا في هذا الطريق، فافتخر بهم الطريق، وسعد بهم الربانيون، وشقي بهم الشياطين.. ساروا دون خيل ولا عربة، لا سلاح لهم ولا ذخيرة... الإيمان العميق الذي كان يعمر قلوبهم ويتفجر فيها كالحمم كان منبع قوتهم... وهدفهم المرسوم في آفاقهم سعادةُ الإنسانية ورضوانُ الله تعالى... حظوظهم كحظوظ الحواريين والصحابة... وصلوا في عفتهم وطهرهم إلى عفة

الملائكة الأطهار، وسجلوا ذكريات ملاحم لا تنسى ولا تمحى.

أَسَالوا في كل مكان وصلوا إليه نورا دفّاقا من عالم الخلود.. وأشاعوا الأنس والسلام في كل جانب أشعلوا فيه مواقد رحلهم.. تهاوى سحر الظلم وانقشع الظلام.. وطار النوم من أعين خفافيش الإلحاد.. تعالت شكايات الظلام كله واحتجاجاته.. وتصاعدت موجات الكذب والافتراء والزور.. وارتفع ضجيج الفكر الفظّ وصياح التعصب.. وتوجهت السهام نحو الفكر الحر، ونُصبت المصائد المميتة للإيمان. لكن جميع هذه المحاولات اليائسة ذهبت سدًى، فقد عمَّ النور الآتي من عالم الخلود كل الأرجاء، وطاف الدنيا بأكملها، وغدا العصر عصر الأرواح النيرة وصار الزمان زمانهم.. ولئن كانت بعض آثار الغبار والدخان لا تزال تطل برأسها ويصيب الأفقَ منها بعضُ غُبْشة، فقد بطل سحر الظلام وبطل تأثير الفكر الغليظ الجافي وآذن بالزوال.

لقد أصبحت الكلمة الآن لأصحاب الأرواح النيرة؛ ستكتشف الإنسانية بهم نفسها من جديد، وستأخذ مكانها الصحيح في كيان الوجود. فهم الجيل الذي تترقبهم الإنسانية في كل مكان.. بخلقهم الرفيع وتواضعهم الجم وبعبوديتهم لله وتعظيمهم له، وبتوقيرهم للناس واحترامهم لهم، ينتظرون اللحظة التي سينهمر فيها النور الإلهي عليهم ويرصدونها من فُرْجة باب الرحمة المتجلية من اسمه الرحمن الرحيم.

إنهم جيل المستقبل وأَبناؤهُ أيًّا كان تقييم الناس إياهم. المستقبلُ المشرق حامل بأسرارهم. كل فرد من هؤلاء السعداء حواريّ الإحياء

والإنقاذ قدر وُسعه، يحملون في أيديهم باقات من ورود الأخوّة، وترتسم على شفاههم أناشيدها. أقوالهم الحاسمة حسمَ فيصلٍ مهنَّدٍ تتغذَّى من شلاّل القرآن، وأحاديثهم ذات أبعاد أخروية. كلماتهم وأحاديثهم تبدد حجب الظلام وتقشعه دون أن تجرح أحدًا. وتطبع في الآذان خرير ماء الكوثر، دون أن تغادر أثرًا من حسرةٍ.

هؤلاء لا يحتاجون إلى يد أو لسان، وجوهُهم المتلألئة كالمشاعل، تُذكِّر بالله أينما حلوا أو ارتحلوا، يعجز كل بيان أمام سحر البيان الذي يَرشَح من محياهم الطاهر ويقف مبهوتا إزاء قوة المعاني المتدفقة من أحوالهم، لا تملك الألسن إلا أن تقبع رابضة في أفواهها، تراقب في صمت. تحترق الفراشات الحوامة حولهم من ظلالهم، بَلْهَ ضياءهم، ونورُهم يبهر عيون من يمر قرب منازلهم. تقول الحكمة الشهيرة: "ما الداعي إلى المقال إذا حضر الحال؟ وما الحاجة إلى التبليغ بالقول إذا نطق التمثيل بالسلوك؟" فقد انطبقت معاني هذه الحكمة على هؤلاء الأخيار.

لقد عاش على الأرض أخيار كثيرون في كل زمان، إلا أن أداء هؤلاء الأخيرين وأسلوبهم كان مختلفا. لا أقول إنه ليس لهم مثيل أو نظير. ولكن إن قيل لي: "أرنا إذن" لا تسعفني الإجابة حالًا، بل ربما قلت: "هؤلاء يشبهون الملائكة الأطهار".

لا يهمّ بمن نشبّه أصحابَ تلك الأرواح النيرة، فقد حوّلت الأنوارُ التي نشروها الصحارى القاحلة إلى جنّات عدن، وتحولت الأرواح التي تُشبِه الفحم قتامة وظلامًا إلى أرواح كالألماس شفافية وضياءً، ولانت الطبائع الغليظة الخشنة ورقّت، وسمت الجبلات والأمزجة

الهابطة وارتقت. فتحدث الجميع عنهم، وترقبوا أن تتحقق الأخوة والمسامحة التي وعدوا بها وسعوا من أجلها. لا يعاديهم أو يثير الأقاويل والشبهات حولهم سوى الذين لا يفرّقون بين الظلمات والنور، ويقضون كل حياتهم في سجن الجسد ورغباته. لقد أزعجوا منهم خفافيشَ الظلام، وكشّرت الوحوشُ الضارية لهم عن أنيابها، وبات الذين فقدوا رشدهم وصوابهم في ضيق وانزعاج بسببهم. وهذا –في رأيي– أمرٌ طبيعي، فالله تعالى يقول: ﴿قل كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾(الإسراء: ٨٤).

ومهما أطفأ بعضُهم الشموعَ هنا أو هناك، فإن هؤلاء الأخيار يَروُون القلوب الظامئة أينما حلوا أو ارتحلوا، وينبّهون الفِطَر السليمة الطاهرة إلى ما وراء أستار الأشياء والحوادث، ويغرسون في السجايا السليمة القيمَ الإنسانية.

إنني على يقين بأنه ستتأسس أرضية لـ"تفاهم جديد" بفضل هؤلاء الربانيين، ولا سيما بعد أن انزاحت العقبات بين القارات بفضل القرآن وتَأسَّس حوار مستند إلى الحب والتوقير. لقد عرفت الإنسانية في الماضي أمتنا بأنها أمة مستبشِرة قد ضحك لها سعدُها، فما المانع أن تكون اليوم أيضًا كذلك؟ لا سيما وقد بدأنا نرى شلالًا من الحب يهدر بين الناس في كل مكان وصل إليه هؤلاء المهاجرون في سبيل غايتهم. لقد بدأت نسائم الطمأنينة والسكينة تهبّ في كل موضع حَلُّوا فيه وأحسّ بها الجميع، بل غدت ما يمكن أن نطلق عليها "جزر السلام والمحبة"[1] تضرب أوتادها على أسس مستقرة ومتينة في كل ناحية وجانب.

---

[1] إشارة إلى مدارس الخدمة المنتشرة في أكثر من ١٦٠ دول عبر العالم. (المترجم)

ومن يدري؟ لعل صلحًا بين العقل والقلب يتأسس في المستقبل القريب بفضل هؤلاء المخلصين الذين نذروا أنفسهم لفكرة الإحياء والبعث. فيكون كلٌّ من الوجدان والمنطق بُعدًا مختلفًا للآخر، وينتهي النزاع بين الماديّ والميتافيزيقيّ، وينسحب كل منهما لساحته ويجري كل شيء في طبيعته وماهيته، يعبّر عن نفسه وعن صور جماله بلسانه، ويُكتَشَف التناغم بين السنن التشريعية والنواميس التكوينية من جديد، ويشعر الناس بالندم على ما جرى بينهم من خصام وعداء لا موجِب له.

وحينها سيسود في الشارع وفي السوق وفي المدرسة وفي البيت جوٌّ من السكينة والسلام لم يتحقق حتى الآن، وتهبّ نسائمه على جميع البشرية. وحينها لن يُنْتَهَكَ عرض، أو يُدنَّس شرف، بل سيسود القلوبَ الاحترامُ، فلا يطمع إنسان في مالِ آخَرَ، ولا ينظر نظرة خائنة إلى شرفه. حينها سيصبح القويّ عادلا، وسيجد الضعيف والعاجز فرصة في حياة كريمة، لن يُعْتَقَلَ أحد لمجرد الظن، ولن يتعرض مسكنُ أحدٍ ولا محلُّ عملِه لانتهاك أو هجوم، ولن يُرَاقَ دَمُ أي بريء ولن يبكي أي مظلوم، بل سيبجّل الجميعُ الباري ﷻ ويحبون الإنسان. حينها فقط ستغدو هذه الدنيا -التي هي معبر للجنة- فردوسًا لا تُمَلُّ فيها الحياة.

هذا موسم البكاء[1]

(أكتوبر ٢٠٠٢)

"ذهني من صروف الدهر يبكي،
البستان يبكي.. والبستاني..
صَوّح الزهرُ، وراح الوردُ يبكي دمه،
مُذْ هجر البلبلُ الوَلْهانُ روضتَه. (ذهني)

عندما تجيش بعض العواطف في أعماق القلب من حزن وأسى، وفرح وسرور، ورحمة ورأفة، وتهَيج فتغدو سُحبا متراكمة؛ فإنها لا تلبث أن تنهمر بوابل من الدمع عبر العيون. فالآلام والهموم، والفراق والوصال والحب والأشواق، والآمال والتطلعات.. جميعها تثير شَجَنَ البكاء عند أولي المشاعر المرهَفة ممن سعدوا بمحبة الرفيق الأعلى في رياض القلب وآفاقه، وتستدرّ دموعهم، ولكن ما من شعور تجود له عيونهم بغزير دمعها كمثل الشعور بالخوف من الله ومهابته، وإجلاله وتوقيره. أما الدموع الأخرى، فهي تنحدر من ماهية الإنسان الجامعة لجانبي الجسد والروح؛ فهي طبْعية، شائعة، لا تَمُتّ

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد ١٥، (أبريل - يونيو) ٢٠٠٩. ونشر لأول مرة في مجلة ياغمور التركية، العدد ١٧، (أكتوبر ٢٠٠٢)، تحت عنوان: (Bence Tam Ağlama Mevsimi). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

إلى أنّات الضمير وأشجانه بصلة، ولا تبلغ مرتبةَ الدمع السامي أبدا.

فإذا كنت تروم دموعا انبثقت من أرض الإيمان والعرفان، وهاجها الحبُّ والوجد والشوق، فهذا يقتضي معرفة بالحق جل وعلا، وإحساسا به عند كل كائن، وتشوُّفا لوصالٍ مجهولِ الأوان ليل نهار، ووَجَلا من مخافته وارتعادا من مهابته، وتخشُّعا عميقا بين يدي حضرته العلية. وهذا اللون من الدموع نادر عزيز، لم يحظَ بمثله إلا ثلة من السعداء.. كما أن استمراره منوط بأن تقرأ آثاره تعالى في كل شيء، وتحس به في كل شيء، وتبحث عنه في كل شيء، وتعرفه لدى كل شيء، ويذكره لسانُك عند كل شيء.

إن المرء إذا عرف شيئا تعلّق به، وإذا ازداد التعلق انقلب حبّاً ثم وجداً وهياماً يسلب فؤادَه، ويأخذ بمجامع قلبه. وإنّ عاشقا في مثل هذه الحال لا يقرّ له قرار ولا يهدأ له بال، يتيه من صحراء إلى أخرى، يئنّ ويبكي على "ليلاه". فهو في عمل دؤوب وتعبئة لا تَنِي لكي يتسامى على حالة "البعد" التي تخيم عليه.. يتتبع الآثار التي تتحدث عنه سبحانه، ويتدبر العلامات دون سآمة أو إعياء، يناجي كتاب الكون حينا، ويحنو على الأشياء والأحداث حينا آخر، يقرؤها على أنها رسائله جلّ وعلا، يتنسم أريجها، ويكحل عينيه بجمالها.. وفي أحيان أخرى يخفق قلبه لسماع عبارة من بيانه العجيب فيروّح عن قلبه ببعض العَبَرات، وأخيرا يقف عند إيماءات تشير إليه ودلاّلين يَدعون إليه، متأملا فيها مستغرقا في معانيها، موصولا بدقيق أسرارها بوجد عميق، متنسما نسمات الحب في كل لحظة وحين.

هذه حال السعداء الذين يسعون متلمسين يد الصانع في صنعته

العجيبة، منتبهين إلى الجميل المتعالي في كل بديعة من بدائع الحسن والجمال، مرهِفين أسماعهم بدقة متناهية إلى كل همسة من همسات الكون التي تحدثهم عنه، عاطفين على كل كائن في الوجود بحب عميق وعناية فائقة لأنه من صنعه وأثره سبحانه، ومن ثم ناسجين كل فقرة من قصيدة حياتهم على لُحمة العشق وسَدَى الحب.

إن من طبيعة القلوب أن يهيّجها الحزن، ومن شأن العيون أن تفيض بالدمع لدى مفارقة الأحبة أو وصالهم؛ غير أن منزلة الدموع في عالم الغيوب تقدَّر بحسب عمق المشاعر، واتساع التصورات، وسموّ النوايا التي يحملها صاحب النحيب والأنين. فإن من يذرف الدمع ويئن بلواعج قلبه خشية وتخشّعا ومراقبة وتبصّرا؛ أو من يكظم أمواج العواطف المتلاطمة في قلبه، ويخفي غلَيان المشاعر المتأججة في ضميره، فيدفنها في غَور أعماقه مقتفيا أثر القائل:

إذا ألمّ بك همّ، فحذارِ من التأوّه حذارِ،
أُكتمْ آهاتك في صدرك، ولا تُفشِها للأغيار..

أجل، إن هؤلاء أرقّاءُ بابِ الحبيب بصدق، كَحِيلُو الطَّرْف[1] والأجفان، أوفياء له بحقّ، يصونون سِرّهم كما يصونون عِرضهم، ويغارون عليه ولوْ من عيونهم. إن حال هؤلاء تعبر عن معان عميقة دوما، سواء أجهشوا بالبكاء أو لاذوا بصمت طويل.

وبالمقابل فإن التباكي الذي لا ينبعث من صميم القلب عذاب للعيون وإهانة للدموع وخديعة للناس كافة. ومن هنا فإن تصنّع البكاء

---

[1] كحِيلو الطرف في الأدبيات التركية: الأصفياء أصحاب القرب الإلهي الذين حباهم الله بحدّة البصر ونفاذ البصيرة. (المترجم)

لا يُفرح إلا إبليس، بل ويلوّث إكسيرا عجيبا صنعه الخالق ليطفئ نيران جهنم، ويُبطِلُ مفعولَه الخارق بما يحمل من آفة الرياء. إن الدموع التي تنم عن اعتراض وإنكار وعدم رضى في أوقات المصيبة والبلاء محرّمة ألبتة، وإن الارتعاد بهواجس القلق والاضطراب مما يخفيه المستقبل، ما هو إلا لوثة نفسية وداء عُضال؛ كما أن التلهف والشكوى على ما ضاع في الماضي عبث في عبث وهدر للدموع.

لقد ذرفت عينا يعقوب عليه السلام دموعا ساخنة على ولديه العزيزين بدافع من حنين الوالد إلى فِلذتيْ كبده، وبدافع من عاطفةِ شفقةٍ ارتعش لها قلبه. ولعل النبي الكريم عليه السلام قد سكب غزير الدمع عليهما لما توسم فيهما من أمارات الأمل المشرق في المستقبل، ولِما عَرف لهما من مكانة سامية لدى الباري عز وجل. فإذا صح هذا التفسير -ونحن نؤمن بصحته- فلا حرج في هذا اللون من البكاء. أما الدموع الزائفة التي انحدرت من عيون إخوة يوسف عليه السلام عند والدهم الكريم، فما هي إلا كذبة فاضحة وخديعة مشينة واجههم بها سيدنا يوسف حينما كتب الله له لُقياهم قائلاً: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، فحمدوا له صنيعه قائلين: ﴿تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا﴾.

إن قطرات الدمع التي تنهمر لوجه الله عز وجل، هي أصدق الأنات لقلبٍ يمور بالحب الإلهي مورا. إنّ من تأججت أضلاعه بنيران الوجد تلألأت عيناه بالدموع، ومن أقفرت عيناه وتصحرت فلا أثر للحياة في جوانحه.

إن الحزن والبكاء من أبرز الخصال التي اتسم بها الأنبياء الكرام، فقد كان لآدم عليه السلام أنين متصل مدى الحياة، وها هي دموع نوح

عليه السلام قد تحولت إلى طوفان غمر سطح الأرض. أما مفخرة بني الإنسان عليه أفضل الصلاة والسلام فقد نظم قصيدة لواعجه وأحزانه بالدموع، ولعلنا لا نخطئ إذا سميناه "نبيّ الدموع والأحزان". ألا تذكر يوم بكى بحرقة حتى الصباح تاليا الآيتين الكريمتين مرة بعد أخرى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(المائدة:١١٨)، ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(إبراهيم:٣٦). فلما أخبر جبريلُ عليه السلام ربَّ العزة عز وجل بسبب بكائه -وهو أعلم- زفّ إليه بشرى أثلجت صدره، وسكّنت خفقان قلبه وأنين وجدانه: "يا جبريل، اذهب إلى محمد وقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك". (مسلم)

لقد كان دائم الفكرة متواصل الأحزان (الترمذي)، إذ كان في كثير من الأوقات يستغرق في تأملات تنتهي بدموع حارّة تنهمر على خديه المباركتين. صحيح أن وجهه الحزين كان يشرق فرحا حينما تصله بعض البشائر، إلا أنه كان في أغلب الأحيان يبكي ويئن أنين البلبل الجريح. إن البلبل لا ينقطع عن النواح والأنين حتى وإن حطّ على الورد، فكأنه قد خلق لكي يصدح بنغمات الهم الدفين والحزن المتصل. أما الغربان فلا يحمل نعيقها أدنى معنى من ذلك الهم والحزن، وأما نعيب البوم فهو أبعد ما يكون عن مثل هذه المعاني النبيلة.

الحزن والبكاء حال الأصفياء دائما، وأنين الليل والنهار أقصر طريق إلى الله سبحانه. ومن عاب العاشق في بكائه فقد فضح نفسه وأبان عن رعونته. ومن لم يفهم حقيقة النفوس التي احترقت وجدا وتأججت شوقا، فسوف يصبح متقلبا بالحسرات ويمسي مكتويا

بآلام البعد والهجران يوم يقف الناس أمام رب العباد.

وإن القرآن الحكيم لَيلفت الأنظار باستمرار إلى أصحاب القلوب المضطرمة والعيون الملتهبة مُشِيدا بذكرهم نماذجَ مثالية يجدر التأسي بها وتمثّل سلوكها. فهو ينوه بهؤلاء الربانيين أنقياء الروح أصفياء القلب يقِظي الفؤاد، ويثني على الدموع التي انحدرت من أعينهم، خوفا من جلال الله، وهيبة من جبروته، أو شعورا بثقل الذنوب وتعاظمها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ۞ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾(الإسراء:١٠٧-١٠٩)، فيعد الدموع التي تقاطرت حبا لله هدية صدقٍ قدّمت بين يدي نجواه سبحانه.

وكذلك حينما يثني على الأنبياء واحدا تلو الآخر بميزاتهم التي تميزوا بها، ومحامدهم التي تفردوا بها، ينبه إلى الجامع المشترك بينهم، أي البكاء والأنين، إذ يقول: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾(مريم:٥٨). وتأكيدا لمكانة الدموع لدى الباري ﷻ نقرأ في الكتاب المبين آية ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾(المائدة:٨٣)، وذلك في معرض تبجيل المؤمنين قديما والموقنين حديثا ممن استيقظوا على النور من خلال الكتب المنزلة والرسالات السابقة، ثم التقوا بالرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام، فسمعوا منه رسالة السماء غضة طرية، فتقلبوا في أحضان الإيمان من حال إلى حال.

وها هو القرآن مرة أخرى يشيد بأبطال الدموع، يهدّئ من روعهم، ويعزّي قلوبهم المنكسرة، ويخفف من وطأة أحزانهم بثناء سماوي،

إذ لم يجدوا العدّة المطلوبة التي تساعدهم على الجهاد في سبيل الله بسبب ضيق ذات اليد فيقول: ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾(التوبة:٩٢). وبينما يذكّر القرآن بأن البكاء من سمات الربانيين التي لا تفارقهم، يحذر الطائشين الذين يعدّون الحياة لعبا ولهوا فيقضون أعمارهم ضاحكين عابثين قائلا: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(التوبة:٨٢)، وبالتالي فإنه ينوه بمكانة الدموع من باب آخر. أجل، إن القرآن يستميل أنظارنا إلى الحقيقة نفسها بأساليب شتى وبعشرات من الآيات، ويرشدنا إلى أن نقف موقفا يليق بمكانتنا الكونية.

هذه تنبيهات القرآن الملحة في هذا الشأن، وإليك نفحات من الحياة السنيّة للنفس الزكية والروح الطاهرة مبلّغ وحي السماء عليه الصلاة والسلام الذي سارت حياته مستقيمة على هذا النهج القويم؛

فقد كان يقول لأصحابه الأوفياء من حين إلى آخر "طوبى لمن مَلَكَ نفسَه، ووسِعه بيتُه، وبكى على خطيئته" (الطبراني)، فيدلّهم على معراج ذي ثلاثة مدارج يستدرجهم من خلالها إلى الآفاق السامية التي يعيش فيها، ثم يلفت أنظارهم إلى ما يقع في عوالم الغيب من شؤون جسيمة تهز القلب هزا فيقول: "واللهِ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا". (البخاري)

كان يوقظهم دوما إلى أهمية البكاء والأنين، وينبههم -وينبهنا معهم- إلى أن قطرات الدمع النقية التي فاضت خشية من الله تشكل حجابا إزاء عذاب النار ما لم تتلوث بزيف الرياء وكذبه، "عينان لا

تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله" (الترمذي). وتأكيدا للمعنى نفسه وتنويها بقيمة الدمع لدى الحق تعالى كان يستخدم أساليب مختلفة في حديثه إذ يقول: "لا يَلِجُ النارَ رجلٌ بكى من خشية الله حتى يعود اللّبنُ في الضَّرْع". (الترمذي)

فما بالك إذا انسكبت هذه الدموع، وتعالت تلك الآهات في خلوات محجوبة عن العباد مكشوفة لرب العباد؟! إنني لا أعرف ميزانا يستطيع أن يزن قدرها. أجل، كان نبيّ الحزن ﷺ يصدح بهذه المعاني وينبه إليها حيثما نزل وأينما حلّ، مع العلم بأنه لم يتخلف عما أشاد به من مُثل عليا قطّ، ولم يبطئ السير نحو الآفاق البعيدة التي أشار إليها أبدا، بل كان متجاوزا لها بمسافات شاسعة، فعندما كان يقوم أمام الباري ﷻ للصلاة يُسمَع في صدره أزيز كأزيز المِرْجَل من البكاء (أبو داود). وعن ابن مسعود ﷺ قال قال لي النبي ﷺ "اِقرأ عليَّ"، قلت يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أُنزِل؟ قال "نعم". فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيداً﴾، قال "حسبُكَ الآن"، فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرِفان. (البخاري)

أجل، كانت الدموع تسيل من عينيه سيلا؛ فهل كان أصحابه الأنقياء الأطهار يشهدون دموعه وهم صامتون؟ كلا، بل كانوا يجهشون معه بالبكاء، فيتحول المشهد إلى بكّائين يتغنون بأناشيد البكاء ويترنمون بأنات الدموع. وذات مرة ما إن تلا عليهم قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۞ وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ﴾(النجم:٦٠-٦١) حتى علت أصواتهم بالبكاء وارتجّت السماء بالأنين، فلما رأى رسول

الله ﷺ بكاءهم طفق يبكي معهم بدموع حرّى، فما كان ذلك إلا أن أثار شجونهم ولمس شغاف قلوبهم فطفقوا يذرفون دموعا أكثر من ذي قبل (البيهقي). فقد كان بكاء الليل وأنين النهار دأبهم؛ كانوا يشعرون بحلاوة الإيمان ولذة العرفان فيبكون، وتثور نيران الحب والشوق لديهم فينتحبون، ويراقبون عملهم فيحذرون من أن يكون قد خالطه شيء من الرياء فيستعبرون، وتلوح لهم مشاهد الآخرة فيرتعشون خوفا ويئنون، وتغطي الغيوم آفاقهم فتحجبهم عن الرؤية فيضطربون، ويعاودون الكرّة فيبكون.. تلك كانت حالهم ما بين بكاء وأنين يُزْجَى بأخلص عبارات التضرع والابتهال إلى عرش الرحمن.

إن أسرع الأدعية وصولا إلى الله ما صدر منها مصحوبا بدمع العين وأنين القلب، إذ ما من شيء يمكن أن يترجم حرقة الفؤاد ولوعة الضمير بأقصى سرعة وأسمى نقاء مثل العَبَرات والدموع. وما رَفعت دموعُ القلب رايتها في ساحة من الساحات إلا تبددت جيوش الإثم أمامها مقهورة مخذولة. إن النفوس المرهفة حينما تحس بهذا النوع من نسمات القبول تلامس أوتارها، تهدأ ثورة نيرانها، وتنتشي بلحظات من البرد والسكينة والسلام.

إن الأوّاهين الذين عاشوا في بكاء وأنين متصل هم بلابل الحب الصادق عند أهل السماء. فإذا انطلقت أصواتهم بالتغريد أنصت سكان الملإ الأعلى، وراحوا يصغون إلى ترانيمهم بسكون عميق. فإذا بلغ البكاء هذا المبلغ من الوفاء والنقاء، وكان ترجمة صادقة لما يمور ويهدر من شلالات في القلب، فعلى المرء أن يوجهه ناحية "الأبد"، ويقدمه إلى "سلطان الأبد" في منتهى السرّية والكتمان، وأن يحذر من تلويثه

بشائبة الرياء، وإلا تحول ذلك الشلال المطفئ للنيران إلى سم زُعاف.

إننا نعيش في عالم فَقَد النورَ الذي يهتدي به، ادلهمّت الأرض وأظلمت السماء، وخيمت الفوضى على كل مكان. هلمّ بنا إذاً، نَذُبْ ذوَبانَ الشمعة الملتهبة ونَحنِ رؤوسنا انحناءها وهي تشتعل وتذوب، ونتأمل مئات الذنوب وآلاف المعاصي التي اقترفتها أيدينا، ثم نطلق أناتنا كالبلابل المفجوعة حتى ينتفض أهل السماء، ينطلقون بسرعة يحملون مشاعل النور في أيديهم لكي يشهدوا مهرجان البكاء العظيم. إنني أرى أن هذه الفترة التي شبّت فيها ألسنة النار في الهشيم، لَهِي أنسب الأوقات لكي نُفتّق سحائب عيوننا بشلالات من الدموع. وإذا كان دمع العين إكسيرا عجيبا يبطل سحر كل مؤامرة شيطانية -وهو كذلك- فما علينا إلا أن نتخلى عن مشاهد الابتهاج الفجة حيثما حللنا وارتحلنا، ونلجأ إلى الاسترواح بغيوث البكاء، ونسعى إلى إخماد نيران الأنين بإكسير الدموع.

إن دمع العين لدى أصفياء الحق سبحانه مَثَله كمَثَل أنفاس المسيح عليه السلام فيها سرّ بعث الروح في الأجساد الميتة، وكمثل ماء الحياة تنتعش به الأراضي القاحلة، وتنتفض بالحيوية، وتتدفق بالخضرة والنماء. إن السعداء الذين أووا إلى خلوات الليل المحجوبة عن العباد المكشوفة لرب العباد، فزادوها عمقا ببكائهم، وشفافية ورقة بنحيبهم، وأسمعوا مكامنَ أرواحهم ترانيمَ من الأنين ونغماتٍ من الحنين، سوف يُمنَحون سر البعث حتما، إنِ اليومَ أو غدا، ويبثون الروح والحياة أينما نزلوا وحيثما ساروا.

منذ سنين وسجاداتُ الصلاة ظمأى إلى الارتواء بأنداء الدموع..

ومنذ عقود وآذاننا متشوّفة إلى أنين القلوب.. اكفهرّت سماؤنا وتصحرت أوديتنا.. بتنا لا نشعر بلهيب النيران التي تضطرم في أحشاء أهل المكابدة فينا.. فكأن وجوهنا قطع من الجليد، وأنظارنا خِلْوٌ من أي معنى نبيل.. لا أثر للهمّ المضني والمعاناة المبرّحة في الأفئدة.. ونظراتنا لا تعبر عن الصدق الذي يثير الإعجاب والغبطة ويبعث الإيمان في القلوب. وإنه لمن المحال بمكان أن ننطلق نحو المستقبل، وأن يكون لنا وزن في لاحقِ الأيام بهذا العبء من الغفلة.

ومنذ أن أحجمت عيوننا عن الدموع، جفّت ينابيع السماء من خيراتها، وأمسكت أنوار التجليات وغيوثُ الإلهام عن الهطول.. فلا ورد ينبت ولا زهر.. وباتت الأنوار تنحدر من السماء متعثرة، والنسيم يهب بين الحين والآخر منهَكا.. سكان السماء لَهْفى إلى أنّات أهل الأرض ونحيبهم.. والرحمة التي تريد أن تتحول إلى سحائبِ بُشْرَى، تستغيث الأجفانَ دموعَها. كما بكى "ذهني" قائلا:

كأنّ رياضَ الورد اشتعلتْ فيها النيرانْ،
واستلبتْ الحيّةُ السوداء عرشَ سليمانْ،
واستعرتْ بالأنين حتى ذابت أحشاءُ العاشقينْ،
وتحولتْ أيام الوصال إلى غمّ وهجرانْ...

ومن يدري، فلعل الأرواح الطاهرة التي ترفرف في السماء، تترقب تدفق الدموع من عيوننا لكي تناجي الغيوم وتستحثها على الهطول. ومن يدري، فلعل عيوننا تفيض بحارا من الدموع إزاء ما ألمّ بنا من نوازل ومهمّات، فتمتلئ للتوّ آفاق الملكوت بسحائب محمّلة بالرحمة الواسعة، وتنتبه السحائب إلى أخطائنا ومعاصينا

تجرفها أمواج الدمع المتدفقة من أجفاننا، فإذا بها تهلل فرحا، وتتألق ابتهاجا، وتغني أناشيد الربيع، ثم تنهمر علينا بالرحمة والبركات.

ومن يدري، فلعل سكان السماء، شأنهم في ذلك كشأننا حينما نأخذ ماء الورد فنضمّخ به وجوهنا وعيوننا في ذكرى الميلاد النبوي السعيد.. من يدري؟ فلعلهم يستَبِقون قطراتِ الدمع التي تستروِح بها النفوسُ الملتهبة بالهجران، يمسحون بها وجوههم، ويكحلون بها عيونهم، ويضمّونها إلى صدورهم على أنها أعز هدية قدمت إليهم. إن أخطاءنا وذنوبنا قد طاولت الجبال في تعاظمها.. وإنّ حالة الأسف ودموع الندم التي تبدو علينا أحيانا، يغلب عليها غُلْواء الرياء والسمعة.. فلا أثر للمعاناة المؤرِّقة في نفوسنا.. وأغلب بكاءاتنا ذات طابع دنيوي ومشوبة بالعصيان. نحن لا نحتاج اليوم إلى شيء قدر احتياجنا إلى دموع من الندم تُذرَف لِتنقّينا من الأدران التي علقت بنفوسنا منذ قرون. عسى أن نطرق باب التوبة بها، ونعود لنبني سنواتنا البائدة من جديد.

إن آدم عليه السلام لما ضخّم "عثرته" في عينيه وكبّرها حتى بلغت ضخامة قمة "إفرست"، لم يلجأ إلا إلى الدموع لكي يذيبها ويدمّرها عن بكرة أبيها. لقد كان مثل شجرة "العود" تحترق رويدا رويدا لتغمر المكان رائحة شذية، إذ لم يلبث أن اضطرمت النيران في أحشائه، فراح ينتحب بدموع حرّى، ويتلوّى بأنّات الندامة حتى ارتقى إلى سماء القبول، وصار محط أنظار الملائكة والملإ الأعلى. وعندما انقشعت الغمة وانتهت "المكابدة"، أصبح كلُّ يوم جديد يشرق عليه بأبهى بشائر العفو وأزهى تهاني الغفران.

بعد أن اجترحت أيدينا ما اجترحت من الآثام، وبعد أن عانينا ما عانينا من الجفوة والحرمان، أرى أنه لا يبدو لنا سوى مخرج واحد؛ وهو أن نترصد شواطئ الخلوات المتفتحة على التجليات، ونسبل ستائر الليالي السوداء على رؤوسنا، ثم نخرّ على جباهنا ساجدين منتحبين، لا يرانا أحد ولا يسمعنا سوى السميع البصير. تعالوا بنا نبكِ ونتلهف على نقضنا لعهدنا، وانهدام وفائنا، وعجزنا المتصل عن إخلاص أعمالنا، وشرودنا ذات اليمين وذات الشمال أثناء سلوكنا، والتواء خطنا، وانحراف استقامتنا، وعدم توفيتنا حقَّ المقام الذي بوَّأنا الباري ﷻ، وحقَّ المكانة التي تَوّجَنا بها، وعدم وقوفنا موقفا مشرّفا قويا يوازي المنن والأيادي التي كُرّمنا بها.. أجل، دعونا نبكِ أيضا على كل من أساء التصرف مثلنا.. بكاء لم يشهد بمثله الأولون والآخرون، حتى يعجب أهل السماء الذين كان البكاء ديدنهم، فيسكبوا دموعهم إغاثة لدموعنا، ويرفعوا أنينهم استجابة لأنيننا منذ اليوم.

أجل، نحن لم نُقدّر المكانة السامية التي كُرّمنا بها حقّ قدرها، ولم نصمد في مواقعنا بعزم صادق ووعي نافذ وإخلاص عميق. لقد انحلّت الأيدي المتماسكة، وهجر الحبيب ديارنا، وعصفت رياح الخريف برياض الورود فأبادتها، واكتوت أحشاء البلابل بلهيب الفاجعة، وأخذت تشدو بآهات محرقة، وتبكي بأنات ملتاعة... أجل، غاضت الينابيع، وجفت الجداول، وباتت الأشواك تنذر بالهول في كل مكان، ونعيب البوم يمزق أرجاء الأرض والسماء. آنَ الأوان لكي نتحدث بلسان قلوبنا، وننثر قطرات من إكسير الدمع

على وحشتنا وغربتنا، فننهي عهد التصحر المميت.

لقد منّ الله علينا بألطاف جليلة مثل الوجود والحياة والحس والشعور والإدراك.. ورسم لنا آفاقا ومسالك للحياة تتناسب مع ما جهّزَنا به من مواهب وطاقات. بيد أننا بددنا كل شيء وأسرفنا في ذلك إرضاء لأهوائنا الطائشة ورغباتنا الجامحة، فأخذنا نتدحرج القهقرى، ونتراجع عن المرتقى الذي شُرِّفنا به، ونهوي إلى قاع النزوات، ننحطّ بالمستوى الإنساني الرفيع، ونلوّث الكرامة الإنسانية، ونلوّث أنفسنا معها. بعد هذا المنحدر السحيق، ألا ينبغي على الأقل، أن نبذل الغالي والنفيس لكي نمضي قُدُما فيما تبقّى من أعمارنا على خط القلب الذي لا ينحرف ولا يحيد؟!

تعالوا نَهجُرْ أيام البؤس التي قضيناها ضاحكين عابثين، تعالوا نعزف على أوتار الدموع مترنمين بنغمات البكاء والأنين. هلُمّوا نودّع حياة اللهو والهوى، ونتدثر بدثار الهمّ والمعاناة حتى نكتشف أبعادا أخرى من الحياة ونستشعر بها في أعماقنا. تعالوا نصغِ إلى ألوان من الهموم، ونستهدِ السبل التي تقرّبنا إلى عظماء المكابدة ممن يقاسمون الأوّاهين آلامهم ويشاطرونهم أحزانهم.

لقد اندثرت أيام عمرنا الخصيبة في ضياع مخيف، وولّى ربيع الحياة دونما رجعة. وباتت طلائع الليل البهيم تلوح في الأفق الغربي تنذر بانتهاء نهار العمر الوضيء. فلم يبق لنا -والحال هذا- إلا أن نوقد مصباحا ساطعا لا يخمد نوره استعدادا لذلك الليل الطويل. فلا أقلّ من أن ننتفض -منذ الساعة- فنؤوب إلى رشدنا، ونلملم شعثنا، ونعود إلى جوهرنا، فنرطّب حرقة أكبادنا بقطرات من

دموعنا.. إذ لم يقطر على وجه الأرض شيء أعزّ وأكرم من الدمع عند الخالق ﷻ، وإنّ تلك القطرات التي تناثرت على وجه التراب ستحوّل أرجاء البسيطة كلها إلى جنّات زاهرة في عهدٍ ليس ببعيد.

ناشدتكم الله أن نهبّ معا لنكون سقّائي دموعٍ في هذه الصحراء المترامية الأطراف، المتآكلة من الجفاف، فنقيم موائد زاهية حديثة العهد بالسماء، تقدم للرائح والغادي فواكه غضّة طريّة نَضِرَة، كلماتها شبوب شوق ولهيب أشجان، ونغماتها أنين قلب ونحيب وجدان.

فرسان الوجد في هذا الزمان[1]

(سبتمبر ٢٠٠٢)

لا ينجز الأفكارَ العظيمة والغاياتِ السامية والمشاريعَ العالمية الكبرى إلا عُشّاق مُتيَّمون، فاضت صدورهم بأشواق أخروية غامرة، وتَمرَّسوا التحليق في الأعالي دومًا بنَفَس طويل، وغَذّوا السير في الدرب دون أدني تخفيف لسرعتهم، ورابطوا في مواقعهم بثبات لا يعرف الفتور.

إننا اليوم لسنا بحاجة إلى هذا أو ذاك، نحن بحاجة إلى أبطال يجيدون التفكير بهذا المستوى الراقي، يَفيضون إيمانًا ويقينًا، يُنزِلون أفكارهم إلى الواقع، يُخرِجون أمتهم أولاً، ثم البشرية كلها من الظلمات إلى النور، فيهدونها إلى الحق سبحانه.. إننا بحاجة إلى أرواح نذرت نفسها للحقيقة.

أجل، إننا بحاجة إلى أرواح تفكر فيما يجب التفكير فيه، وتعرف كل ما ينبغي معرفتُه، تُحوّل ما عرفته إلى واقع فورًا، وتحثّ الخطى

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء على حلقتين في العدد ٦١، (يوليو - أغسطس ٢٠١٧)، والعدد ٦٢ (سبتمبر - أكتوبر ٢٠١٧). ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٢٨٤ (سبتمبر ٢٠٠٢)، تحت عنوان: (Günümüzün Karasevdalıları). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

بعزم لكي تُعِدّ جميع الأرواح الميتة لبعث جديد وكأنها إسرافيل قد التقم الصورَ بفيه.. أجل، بحاجة إلى أرواح تجوب الأرجاء كلها تنفخ الحياة في جميع النفوس، صدّاحة بمواجيد روحها ليل نهار، مترنّمة بمشاعرها الوجدانية في كل سانحة وبكل وسيلة، فإن كانت تملك قدرة بيان فببيانها، وإن كانت تجيد استخدام القلم فبلسان قلمها، وإن كانت منفتحة على علوم الجمال فبزخارف إحدى الفنون الجميلة وخطوطها، وإن كانت شاعرة فبسحر شعرها، وإن كانت موسيقية فبألحانها الأخاذة ونغماتها الآسرة.. أجل، إننا بحاجة إلى أرواح اتصل لسانُها بأعماق قلبها، وخفق قلبها بإخلاص وتفان للحقيقة العظمى.

وإذا أردنا أن نقيّم هؤلاء الأبطال انطلاقًا من النماذج التي نشاهدها في مسرح الواقع اليوم، نجد أنهم ينظمون رحلات إلى أرجاء العالم كلها وكأنهم ذاهبون إلى الحج، يتوّجون رحلاتهم بروح "الهجرة"؛ يهمسون في وجدان كل من يمرون به معاني رفيعة من لسان الحال وبيان القلب، ويتمتمون بألحان المودة حيثما يحلّون، ويوقظون شعور المحبة فيمن يلتقون، يُقبِلون على القلوب يقيمون فيها عروشًا من الحب.

بهم تحيا الأرواح الظامئة إلى الحب، وإليهم تنصت القلوب التي بُعثت من جديد. إن السعداء الذين شدوا رحال الهجرة مفعمين بهذه المشاعر، وكذلك الذين فتحوا لهم قلوبهم، بعيدون كل البعد عن كل ما يمتّ إلى الدنيا بصلة، فهُمُ الإخلاص والإخلاص فقط. فلا مكان للمصلحة الذاتية قطعًا بين من يُبلِّغ ومن ينصت إليه، وبين من يقدم المعنى الكامن في جوهره ومن يتلقاه، وبين من يحمل كأس الحياة ومن يجمع شمله ويستعيد وعيه، وبين من يقدم المعونة ومن

يستقبلها، إنما هي ابتغاء مرضاة الله ولا شيء غير مرضاة الله تربطهما. إن هذه العلاقة العميقة المنبعثة من صميم الوجدان، تستند على القيم الإنسانية العالمية كليًّا، وتنبع من التوقير المشترك لهذه القيم السامية.

إننا في الحقبة القريبة من ماضينا، نسينا بالكامل أن لنا جذورًا روحية محكمة نرتبط بها، وأننا أقمنا حضارات زاهرة عديدة على مدار التاريخ، وبدونا لمن ينظر إلينا كأننا أمة لا ماضي لها. والأنكى من ذلك أن شعورًا بالنقص أصابنا، فأنكرنا ذاتنا وأنكرنا ماضينا دفعة واحدة، بل بات بعضنا يخجل من هويته الوطنية.

ابتعدنا عن ذاتنا يومًا بعد يوم حتى صرنا أسرى لقيم أجنبية. فوا حسرتاه على أمة كانت في ماضيها المجيد تفكر وتناقش وتعبّر عن رؤاها الذاتية وتنقش عقيدتها وقيمها الجمالية على معالمها التي شيّدتها في كل مكان مرت به، فخلّدت ذكراها الجميلة على صفحات التاريخ.. ووا حزناه على أمة تهاوت من قمم المجد والشهرة والازدهار إلى حضيض النسيان والمجهول والحرمان من كل أنواع التوقير والتبجيل!

لم تكن هذه الأمة تستحق هذا المصير الحزين، ولم يكن لهذا المصير المشؤوم أن يستمر إلى الأبد. كيف، وقد حوّلت هذه الأمة حُفَر الموت إلى مسالك انبعاث خمسين مرة حتى اليوم، واستبدلت أوضاعًا سيئة تبدو هلاكًا وانقراضًا إلى وسائل للتجدد ألف مرة، وأبدت كفاءة خارقة في كل وقت -رغم ممانعة أصحاب المنافع من "رجال الأبدان"، وإخوان المصالح ممن يلهثون وراء المتعة اليومية، وجماعات الإنكار ممن يهينون قيمنا الوطنية والدينية تعصبًا وكفرًا- فأنشأت مناهج وأساليب جديدة للسير قُدُمًا نحو المستقبل المضيء، واستوت

على قَدميها عقب كل هزة واستأنفت سيرها من جديد، ونجحت في الإبحار بأفكارها ومشاعرها ورسالتها إلى جميع أنحاء العالم.

إن فرسان النبل والشهامة هؤلاء قد نأوا بأنفسهم عن بريق الشهرة ووهج الجاه، وأغلقوا أبوابهم أمام كافة ألوان التفاخر والتباهي، وسموا بجناحي التواضع والانمحاء، وتزيّوا برداء الأمن والصدق والوفاء، وصمدوا أمام رغبات النفس وأهوائها صمود الأبطال، وصاروا حواريي تعريفِ العالم بقيمنا الدينية والوطنية مشحونين بوعي تاريخي ورثوه عن آبائهم، وهتفوا هتاف الأوائل قائلين "سلكنا دروب الحب، لا نبتغي شرفًا هناك ولا غرورًا" فاختاروا التعب على الراحة وسجّلوا أحد أهم إنجازات هذا القرن.

إن الورود التي بدأت تزدهر في كافة أنحاء العالم اليوم، استمدت ألوانها من ذوي الوجوه القمرية هؤلاء ومن المعاني التي يحملونها في وجدانهم؛ وبدأت الجغرافيا الاجتماعية على مستوى العالم تنتسج وفق منسوجاتهم الفكرية انتساج قماش مطرّز بديع، والبشرية كلها تترنم بألحانهم الأصيلة التي لا تَهرَم ولا تبلى. إن مشاعرهم الطاهرة وأفكارهم النقية تلك قد تبدو لدى الناظر إلى بداياتها قطرات صغيرة، ولكن من يدرك روح الموضوع ومعناه، يعلم أنها تتضمن بحارًا واسعة تموج بهِبات جميلة ومفاجآت شتى في كل حين.

إن فرسان النور هؤلاء عملوا على إضاءة ما حولهم فقط في حقبة معينة وفقًا لطبيعة الأشياء. أما الآن فقد أطلقوا قواهم الحقيقية الكامنة وطاقاتهم الروحية، وغدوا فرحة وبسمة وأملاً ومحبة، وانهمروا على كل مكان انهمار السحب المثقلة بالغيث، واندفعوا بحماس متَّقد

يحوِّلون قلوبًا قاحلة ظامئة للحب والتسامح إلى جنات فردوسية.

إن الكرة الأرضية اليوم -من أولها حتى آخرها- حامل بربيع جديد، فرحة جَذْلى بولادة مباركة قريبة نتيجة البذور التي نثرها هؤلاء الأخيار في كل أطرافها. البشرية كلها مبتهجة نشوى ببشائر حملتها نسائم إرهاصات هذه الولادة المرتقبة. المعنى الذي ينبض في القلوب واحد، وإن اختلفت الأصوات والنغمات، والنسمات التي تهب في ساعات السَّحر تحمل إلى أيوب خريرًا عذبًا من نهر ماء الحياة، وإلى يعقوب رائحة إبراهيمية من ثوب يوسف.

إن هذا يعني عودتنا إلى مسرح التاريخ مرة أخرى، وإقبالَنا نحو موقعنا الحقيقي من جديد، كما يعني رسالة انبعاث بديلة للإنسانية جمعاء. علمًا بأن الأمم التي كانت -ولا زالت- تضطرب وتئن في دوامة من أزمات مختلفة، كانت تترقب هبوب نسمات كهذه تحمل بشائر الأمل إليها. طوبى لأهل السعد من الأبطال الذين يتولون الريادة في هذا البعث فيحركون تلك النسمات! طوبى لمن فتحوا قلوبهم لنفحات البعث تلك مترقبين وصولها!

إننا نؤمن يقينًا بأن وجه العالم كله سيتغير بألوانه وزخارفه يومًا بفضل الجهود التي يبذلها أولئك الأبطال الذين تشع قلوبهم محبة، والذين نذروا أنفسهم لإقامة صرح القيم الإنسانية، وتلتقط البشرية أنفاس الطمأنينة والسلام. ومن يدري، لعل الفكر الإنساني في عالم المستقبل يتوهج معهم سطوعًا وإشراقًا للمرة الأخيرة، وتجد الآمال الإنسانية طريقها إلى الواقع، وتتحقق جُلّ أحلامنا بهم رغم أنف ما رُسم في كتب اليوتوبيا من مثاليات. أجل، سيتحقق هذا يومًا لا محالة، وعندما

يحلّ الموسمُ، سوف يجثو ذوو القلوب الخاوية والحظوظ النكدة على ركبهم بين يدي تلك الأرواح المشرقة، يطلبون العفو منهم والغفران، نادمين على ما أجرموا، ساكبين الدمع على ما اقترفوا. ولكن هيهات أن يتداركوا الفرص التي أضاعوها. ليت تلك الأرواح الغليظة المتسربلة بمشاعر خسيسة وأفكار متمردة وتصرفات رعناء خشنة، رجعوا إلى أنفسهم؛ وقفوا عند الحق، وقدّروا المعروف، وتحلّوا بالإنصاف قبل أن يحلّ اليوم الذي يتقلبون فيه بعذاب الضمير دون أن يجدوا لأنفسهم مخرجًا ولا حيلة.. ليتهم أنصفوا بعض الشيء ولم يدمّروا مستقبلهم.

هؤلاء الأبطال الأسطوريون تشبَّعوا بروح الإيثار والتضحية والفداء التي امتاز بها الصحب الكرام، يحثّون الخطى دومًا ليصلوا بالنور إلى كل ركن من أركان العالم، يكبحون جماح أنفسهم في حب الاستمتاع بملذات الحياة، ممتلئين بمشاعر البذل والعطاء لمنح الحياة للآخرين. وإذ يفعلون ذلك لا تلمح أثرًا للفخر أو العجب في سلوكهم، بل تفيض أطوارهم تواضعًا وانمحاء؛ يضربون أمثلة في النبل والشهامة قلّ في التاريخ نظيرها، بما يُبدونه من حماس لا يخمد، وإقدام لا يعرف التراجع، وأشواق لا تخبو، واندفاع خارق في خدمة الإنسانية، رغم كل أسباب التثبيط التي تعوقهم؛ يهمسون في وجدان كل من يمرون به ألحانًا من بيان قلوبهم؛ يغرسون فسائل في كل مكان فيحولونه إلى جنات زاهرة؛ يشرحون أفكارهم ويرسمون أحلامهم ويبثّون همومهم بحيويّة عجيبة وسرعة باهرة وجهد منقطع النظير، ويهتفون بالناس أن "حيّ على الخلود"، بقلوب ملؤها إيمان وعزم وتصميم وأمل بالمستقبل عظيم.

قد يبدو الطريق الذي يسلكونه عصيًّا متمردًا، بيد أنهم يعرفون

ذلك منذ البداية. أجل، يعرفون أن الطريق سيتوعر يومًا ويستعصي على السير وتنهار الجسور. يعلمون أن غيلانًا ستظهر لهم وتعترض طريقهم في بعض المنعطفات، وأعاصير من الحقد والكراهية والعداء ستثور حولهم. إن إيمانهم بصحة الطريق الذي يسلكونه راسخ لا يتزعزع، لكنهم لم ينسوا أبدًا أن عقبات لا تخطر على البال سوف تفاجئهم. لذا نظروا إلى ما ألمّ بهم من ابتلاءات وما قد يلمّ بهم لاحقًا؛ على أنها من سنن سبيل الحق ومِحَنه الخاصة، فلم يفقدوا شيئًا من حماسهم، بل ظلوا يسعون في دربهم لا يلوون على شيء؛ وإذا ما اعتراهم شيء من القلق أقبلوا على الله مستسلمين، واعتصموا بحصن الإيمان الحصين، وحاولوا قراءة العصر الذي يعيشون فيه، وما يحوم حولهم من أحداث قراءة صحيحة، وتابعوا السير -وسيتابعون- نحو "أفق الرضى" واثقين بوعد الله لهم بالسداد والتوفيق.

فرسان الوجد في هذا الزمان، هؤلاء الأخيار الذين يُمضُون حياتهم ملتزمين بمبدأ التكامل بين العقل والقلب، وصدق المخبر والمظهر، لم يستطع أحد حتى اليوم أن يصرفهم عن القيم والمبادئ التي آمنوا بها، أو يُقصِيهم عن السعي في فلك مرضاة الله، أو يُثنِيهم عن تتويج مشاعرهم السامية هذه بجهود جبارة لتعريف العوالم كلها بالخالق ﷻ. لقد استطاع هؤلاء الأطهار -بهذا الشعور من المسؤولية والوعي بالمهمة- أن يصمدوا في مواقعهم كالجبال الشامخة الأبيّة، ويتحدَّوا العواصف والأعاصير، ويقارعوا الثلوج والجليد، ويكتشفوا سر الإثمار في جميع الفصول، يغرسون أزهارا، ويستنبتون ورودا، ويَشْدُون بأنغام الورد مدى الحياة.

إنهم كالساعة تناغما حين يتحركون، ورمز للتوقّد والإبداع والسداد حين يتحدثون. لا اختلال في حركاتهم ولكن انسجام ورشاقة، ولا مرارة في حديثهم بل عذوبة وطرافة. قلوبهم صافية صفاء الملائكة، نقية نقاءها، ألسنتهم ترجمان صادق لما يختلج في أعماق وجدانهم. سلوكهم جمالا وروعة يثير الإعجاب والغبطة لدى الناظرين، وكلامهم عمقا ورقة يحرّك السواكن في القلوب ويُلهِب الحماسة في الأرواح. قلوبهم خفّاقة بحضور الحق ﷻ ليل نهار، وكلماتهم فياضة بعشق عميق لله، وحب للوجود، ومحبة للإنسان ورحمة وتسامح وصفح. مرضاة الحق تعالى هدفهم الأوحد الذي تعلقوا به، وقراءةُ الأشياء والأحداث قراءة صحيحة واستيعابها هُيام لا يمكنهم التخلي عنه، حبُّ الإنسان وفتح الصدر للناس كلِّ الناس الصبغةُ الحقيقية لطبيعتهم.

إنهم في اللحظة التي يصدح فيها سلوكُهم وسمتُهم المتّجِهُ إلى الله دوما بعشق عميق ما بعده عمق، يُقبِلون على القلوب والطبائع التي غشيها الصدأ والعفن حتى غدت كالحجارة أو أشد قسوة، بمفاتيح المحبة المطلسَمة الساحرة، يَحنُون عليها برفق حتى تصير ناعمة كالشمع، ثم يَلِجونها بلطف، يحاولون أن يوفّوا نعمة محبة الخالق لهم حقها. يألفون ويؤلفون، يُحِبُّون ويُحَبُّون، يصمدون كالجبال إزاء أشرس الهجمات وأشد الغارات، لا يهتزون ولا يرتبكون، بعزم نبويّ يَثبُتون في مواقعهم ولا يتزحزحون، ولدى قراءتهم لما يقع من حولهم بنور السماء ينظرون. إذا ضربتهم أشدُّ الأعاصير عنفا لا يسقطون، وإذا دهمتهم أكثرُ الزلازل فتكا لا يهتزون. يفتحون صدورهم للأمطار الهاطلة، ويُفسِحون شواطئ قلوبهم للأمواج القادمة، لا يحرمونها من

جودهم حين تعود، حتى لو نثروا بين يديها حفنة من رمل.

هؤلاء الشجعان يعون تماما أنهم قد علّقوا قلوبهم بأعظم قضية في الوجود وهي إحراز مرضاة الله تعالى، لذلك عقدوا العزم لمواجهة جميع المخاطر والعقبات حتى يصلوا إلى تلك الغاية السامية. شِيمتُهم الخشوع والانمحاء، يحنون رؤوسهم كالشمعة تواضعا، يتوقون إلى الاحتراق من أجل إنارة الدرب للسائرين، يقلّصون من حجمهم في وقار، لا تَفاخُرَ في سلوكهم ولا ادعاء، ولكن في الوقت نفسه، قد أعدوا عدتهم وشحذوا همتهم وتأهبوا -كصقور نشرت أجنحتها وتهيأت- للتنافس مع سكان الملإ الأعلى؛ لا يتوقفون عن الحركة، وإن بدوا ساكنين فإن بواطنهم تموج بفاعلية وجدانية وحيوية فريدة تزيد عزيمتهم قوة وحماسهم اتقادا. فإذا بهم كالبحار تزوّد أمواجُها الشواطئَ القريبة منها بالماء، وترسل للديار البعيدة عنها سحائب غيث تبعث فيها السعادة والهناء. يجودون بماء الحياة للرائح والغادي والقاصي والداني، ينفخون الروح -حيث مروا- في جثامين خامدة تتخبط في وديان البؤس والشقاء منذ سنين وسنين. بلسان الروح يتحدثون، في قلوب كل من يلقونه يبثّون حكايات تنبض بترانيم القلب وأنغام الحب. أبوابهم موصدة في وجه أي إشاعة أو غيبة تهدد نسيج المجتمع، وإزاء أي نقاش يثير فيه عداوة وبغضاء وحقدا. ذلك ديدن هؤلاء الأخيار في الليل والنهار والحل والترحال.

إن الشيء الذي تعلقت به أحلامُ هؤلاء الأخيار وآمالُهم أن يكونوا نافعين للناس. يحسون بآلام الإنسانية وأزماتها الروحية في أعماقهم، يفتحون صدورهم لكل من يطرق بابهم، يسمعون هموما، يتقاسمون

آلاما، ويرفعون أصواتهم بالبكاء والأنين، ويبحثون عن قلوب مصدَّعة بالهمّ، ويضعون أيدهم بأيدي قلوب مكلومة مثلهم، يسرعون لكي يخففوا من آلام البائسين ويمسحوا دموع المكروبين. وقد يأتي حين من الدهر فتجدهم يقتحمون نيران الفتنة والفساد لإخمادها، ويغرسون وردا حتى لو كانوا وسط الأشواك، ويصدحون بألحان الورد على الدوام.

في بعض الأحيان تتحول ألوانهم الوردية تلك إلى حمرة قانية تحت وقع ألف معاناة ومعاناة –كالبراعم المنشقّة عن أكمامها–؛ يكادون ينفلقون أحيانا من شدة الكرب ووطأته فتستحيل نغماتهم إلى أنين؛ ولكن رغم كل ذلك، يضعون أيديهم على صدورهم متمتمين "فصبر جميل"، يواصلون السير نحو هدفهم تعلو البسماتُ وجوههم يوزّعونها على من حولهم، فتبتهج كل بقعة يمرون بها بلون بديع من الخضرة وكأنها روضة من رياض الجنة. من مدوا إليه يدَهم عادت إليه الروح كأنه شرب من ماء الحياة. أيادي هممهم تبهر العيون كـ"اليد البيضاء"، وجهودُهم تبطل سحر جميع السحرة، وتتهاوى أشد الأفكار فرعونية حيث مروا معلنة عن إفلاسها.

إنهم يمتلكون ثروةً منبعُها الإيمان، فلو قارنت بين ثروتهم وما يملكه قارون من كنوز وخزائن لبدت خزائن قارون من سَقَط المتاع؛ بل لو شاؤوا لابتاعوا العوالم كلها بهذه الثروة الربانية والغنى الإلهي. إن كفّة الربح في ميزان أعمارهم طافحة على الدوام، وكفة الخسارة فارغة تثير حنق الشياطين وتفقدهم صوابهم.

يعلمون جيدا أين يستثمرون رأسمال أعمارهم، يبرعون أيما براعة في تحويل الأشياء الفانية إلى حقائق خالدة. لا يبددون أوقاتهم

هدرا دون جدوى، وإذا نادى منادي الخدمة وداعي السعي والهمة لا يرضون لأنفسهم إلا أن يكونوا في طليعة الركب، بل لا يغتفرون لأنفسهم أبدا إن اثّاقلوا وتأخروا عن قافلة البذل والعمل والجد. عالية همتهم، قوية إرادتهم، صلبة عزيمهم لا تضعف ولا تخور. الإيمان والفاعلية أهم مقوّمين ينظمان إيقاع قلوبهم وسلوكهم. لا يخافون أحدا إلا الله، ولا يخشون أحدا غيره، بل يقفون منتصبي القامة لا يركعون لأحد، وينطلقون مرفوعي الهامة -وبتواضع جم- إلى أرجاء العالم كلها ليوقدوا الأنوار في سمائها. مظهرهم مرآة للبساطة، وسلوكهم شاهد للقناعة والرضا. كالرياح بأفكارهم السماوية يهبّون، والبذورَ في كل مكان ينثرون، وكالغيث على جميع البقاع يهطلون، حياةً يصيرون في الأرض وحياةً يتدفقون.

وإذا ما أَلَمّت بهم نوائبُ شتى، وساءت أعمالُهم، وبارت تجارتهم، وعصفت بآمال البعض أزمات متعاقبة، فإنّ ذلك لا يزعزع إرادتهم ولا يُضعِف من عزيمهم. يجددون العهد الذي قطعوه على أنفسهم مع الله باستمرار، وينفقون جميع أصناف منن الله عليهم في سبيل إقامة صروح أرواحهم، أي إحياء الشعائر. يحرصون على أن يكونوا حيثما كانت روح الدين ومعاني التدين الصحيح، وأن يولّوا وجوههم حيثما كان وجه الله ورضاه، يحثّون السير في الاتجاه الذي يحقق أوامره ومقاصده ﷻ دون توقف. وإذ يسعون إلى تحقيق هذا الغرض السامي، يبذلون عناية خاصة في إتقان شؤون الدنيا والنجاح في تدبير مصالحها. من يراهم ويطلع عليهم من هذا المنحى فقط، يحسب أنهم دنيويون لا شأن لهم بالآخرة؛ ومن يراهم في حالهم

مع الله وبحثهم عن مرضاته، يندهش من توقهم وشوقهم وتوقّدهم، ويخال نفسه بين صفوف رجال من الرعيل الأول.

هؤلاء الأخيار يمقتون الخمول والقعود بلا معنى، ويكرهون إنفاق العمر عبثا بلا جدوى. إنهم في حركة دائبة لا تعرف الفتور، يسعون إلى إعمار الدين والدنيا ليل نهار، فإن كانوا أرباب قلم أسهموا بكتابتهم، وإن لم يُجيدوا الكتابة أهدوا أربابها قلما، ومهما يكن يحرصون على أن يبقوا ملازمين لقافلة الخدمة مُسهِمين في جهودها بأي وسيلة. فهم محبون للعلم دوما، موقّرون للعلماء، يجالسون أصحاب القلوب اليقظة والعقول المستنيرة، ويتنفسون بذكر المحبوب -سبحانه- شهيقا وزفيرا مدى الحياة.

فلو لم يبق إنسان حقيقي على سطح الأرض قط، وزحفت غيوم سوداء من جميع الأطراف وحجبت الآفاق، وانهزمت الشوارع أمام سيول من الأوحال حتى غمرتها تماما، واحتلت الأشواك كل مكان، وغطت أشجار الزقوم على حدائق الورد بظلالها السوداء؛ وامتلأت الساحات والميادين بالغربان، وطغى نعيقها على تغريد البلابل، وتداعت الزنابير على أقداح العسل؛ وسادت كآبة الغابات المرعبة على شوارعنا، ولم يبق للعلم حرمة أو توقير في القلوب، وطُرِدت المعرفة من كل باب شر طردة، وصارت المروءة ضحية للغدر والجحود والخذلان؛ وانهارت الصداقات وانقلب الأصدقاء أعداء.. أجل، حتى لو نزلت هذه الكوارث والملمات كافة، فإن هؤلاء الرجال يصمدون في مواقعهم دون أدنى اهتزاز يهتفون بهذه الكلمات: "قد ينهار كل شيء، ولكن لا ضير ما دمتُ قائما، سأعيد

كل شيء أفضل مما كان... قد تتحول كل بقعة إلى صحراء قاحلة، لا ضير ما دمت أملك نبعا من الدموع... لقد منحني الله رِجلين أمشي بهما، وقبضتين أكدح بهما، عندي رأسمال لا مثيل له اسمه الإيمان، وحصن حصين لا تخرقه الأعادي عنوانه القلب، وهناك فرص تكفي لإعمار العوالم تنتظر من يستثمرها، أستطيع أن أحوّل العالم إلى جنان خضراء إذا أحسنتُ الاستعانةَ بالله واستغلالَ هذه الفرص وتلك الإمكانات. أوليست كل بذرة أرمي بها في التربة تنبت سنابل عدة؟ فلِمَ الخوف والحزن والقلق من المستقبل إذن؟ أوليس الله قد وعد بمضاعفة الواحد إلى آلاف هناك؟".

أجل، يهتفون بهذه الكلمات، ويواصلون السير نحو أهدافهم وإن كانت الدروب من حولهم منخورة مكسّرة، والجسور منهارة مهدّمة.

كالأنهار الهادرة يحملون حياة إلى كل أرض يمرون بها، يطفئون حرقةَ كل أحد ولهيبَ كل مكان... وكالنار المشتعلة، تدفئ الآخرين وتحميهم من أذى القر وإن أضعفها، وبرودةِ الثلج وإن أكل من جسمها.. وكالشموع المتقدة، تحترق وتذوب لتُهدِي آلاف العيون نورا وضياء.

"ليليّون" كامنون في زواياهم فاتحون صدورهم يرصدون نسائم الرحمة حينا، ويرفعون نداءاتهم آهاتٍ وأنّاتٍ في الساعات الشريفة حينا آخر، ويطلقون أشرعتهم من مراسي المعاناة يرجون نيل عناية استثنائية من المنّان سبحانه. الدرب الذي يسيرون عليه، هو ذاته المسار الذي سلكه "أخلاء الحق" تعالى منذ القدم، فمن سار في هذا الدرب لم يخذله ولم يغدر به أو يضيّعه، بل من سار في هذا الدرب وصل لا محالة.

تفيض قلوب هؤلاء إيمانا وتخفق أملا وتتقد حماسة. إنهم قمة

في السخاء يبذلون كل ما يملكونه في سبيل الحق ﷻ؛ يعلمون يقينا أن ما يبذلونه هنا واحدا يعود إليهم هناك عشراتٍ، لذلك يُمضُون حياتهم في مهرجانات من العطاء والبذل بسخاء. لقد آمنوا أنه لا مرتبة أعظم من حماية الدين وحفظه وتمثيله في كافة أرجاء المعمورة بصورة مشرقة تثير الإعجاب والغبطة في القلوب. يعتبرون الوصول إلى تلك المرتبة السامية غايتهم الوحيدة في الحياة، ويعلقون حكمة وجودهم في هذه الدنيا بالسعي لتحقيق تلك الغاية، وإلا فلا معنى للحياة في نظرهم. بهذه المشاعر يلتقطون أنفاسهم دوما، ويجتمعون ليصوغوا منها مشاريع على الأرض، ويُضفون على لقاءاتهم عمقا آخر من خلال ربطها بمرضاة الحق ﷻ. وإزاء هذا المشهد المشرق يهلل لهم سكان الملإ الأعلى بأناشيد التهنئة والتبريك ويغمرونهم بدعوات السداد والقبول والتوفيق.

لا يفكر هؤلاء الأبرار براحتهم الذاتية أبدا، يسعون لنيل مرضاة الله دوما، ويعملون لغرس "الفضيلة" في الأفراد، ويكدّون لزرع القيم الإنسانية في المجتمعات، ويفتحون صدورهم للبشرية كافة تأسّيا بأخلاق الأنبياء عليهم السلام، ويعيشون من أجل الآخرين مدى الحياة. ولقاء صدقهم هذا وتفانيهم، يجود المولى ﷻ على هؤلاء "المحتسِبين" فرسانِ القلب بمفاجآت شتى من التوفيق والنجاح في دار الدنيا، ويمنحهم ريشًا من أجنحة الملائكة يوم الحشر -يوم لا تنفع فيه الأيدي ولا الأرجل- ويغمرهم بظلال الوصال الندية، وينزلهم في منازل الربانيين، ويكرمهم إكرام ضيوفه المتميزين، ثم يتوِّج تلك المنح والعطايا كلها برضوان منه سبحانه.

عالم المسلمين[1]

(مارس ٢٠٠٤)

لم يعش العالم الإسلامي منذ نشأته وفي أي عهد من عهوده، وضعًا مزريًا كالذي يعيشه اليوم، ولم تصبه حالة من ضيق الأفق كالتي تعتريه الآن. والأدهى من ذلك افتقادُه القدرةَ التي تؤهله لإدراك البون الشاسع بين موقعه الحالي وما ينبغي أن يكون عليه، بَلْهَ أن يُقوّم هذا الفرق أو يبحث عن أسبابه.

إنه يعيش حالة من الكسل وراحة البال، لا يؤرقه فيها مخاض فكري، ولا يقدِّم رؤية بنّاءة، وليس لديه مشروع ينهض به من كبوته تلك، ولا تَهيج في صدره مشاعر للتغيير.. قد خبا في قلبه شوقُ الحياة ونبضُها، كأن طبقة ضبابية كثيفة من الغفلة واللامبالاة قد أحاطت به من كل جانب.. لا يملك -إن استثنينا رغباته الجسدية- أيَّ أمل أو تطلع إلى المستقبل. أصبح أحيانًا حارسًا للجبارين، وأحيانًا أخرى متسوِّلاً على الطراز الحديث، أو متلوّيًا في قبضة الفقر والحاجة، أو في حالة يُرثى لها من الجهل والتعصب.

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٥٨، (يناير - فبراير) ٢٠١٧م. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٣٠٣ (مارس ٢٠٠٤)، تحت عنوان: (İslam Dünyası). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

لم يعد العالم الإسلامي مهتمًّا بما أمر به الدين من التمسك بالفضيلة، والعيشِ في كرامة، والانفتاح على العلم، وقراءة الوجود قراءة صحيحة، والتنقيب في أرجاء الكون بكل دقة، وتفسير السنن الكونية والتشريعية أفضل تفسير، وتقويمها أحسن تقويم. وإنْ وُجدت فئة قليلة تُعنى بهذه الأمور وتراعي هذه السنن، تُسَدّ أفواهها وتُمنع من الكلام، ويُحجَب الناس من الإنصات إليها.

لقد غدت السفاهات التي استُوردت من الخارج مِن أكثر الأمور رغبة وانتشارًا، حُشدت الوسائل التكنولوجية وكُثفت الحملات لترويجها، وراحت الجماهير السائبة تعيش حالة من التشوش والذهول، وباتت أجيال من الشباب تتردى في شباك الفحش والرذيلة وإدمان المخدّرات، تُولّي وجهها نحو التفسخ والانحلال تحت مقولة: "دعني أعشْ على هواي".

عندما ينظر الإنسان إلى قوة الإسلام الديناميكية وثرائه، يود أن يرى كل جانب من جوانب العالم الإسلامي معمورًا، وكل مدنه قِطعًا من الجنان، شبيهة بالفردوس حواضرُه وقراه، مفعمًا بالأمل والسعادة أُناسُه، قد شغلتهم حمّى البحث عن الحقيقة، يقضون أوقاتهم بين الكتب والمختبرات، اختزلوا ساعات نومهم ولهوهم في سبيل البحوث والتدقيقات، ووهبوا أرواحهم للحق تعالى.

ولكن الحقيقة المؤلمة، هي أن المأمول عكس الواقع المشاهَد تمامًا؛ فإن بحثتَ الآن في طول العالم الإسلامي وعرضه عن أصحاب تلك الأرواح التي عمَّرت الدنيا فيما مضى، فلن تجد مثقفين على هذا النحو روحًا ومعنى، إلا أعدادًا تعدّ على أصابع

اليد الواحدة، ولن تجد معماريين -باستثناء عدد قليل- يحاولون أن يعمروا ويرمموا جوانبنا المتصدعة والآيلة إلى السقوط.

لقد كان المتوقَّعُ من منتسبي هذا الدين أن يكونوا أسعد مَن في هذه الأرض وأكثرهم تفاؤلاً وأملاً، وأن يكونوا في الصفوف الأولى من العالم في كل مسألة، وأن يكونوا بعزمهم وإيمانهم وثباتهم مرشدي العالم، يقدمون له مشاريع كبرى، ويحلّون مشاكله. كنا نتوقع أن يزدهر العلم والمعرفة في بستانه، وأن يكون هو الأسوة الحسنة للعالم خُلُقًا وقيَمًا. كنا نتوقع أنه عندما يَرِد ذكر العدالة وسيادة القانون والحق وحرية الفكر والعقيدة، يخطر العالم الإسلامي على البال. ولكن هل هو كذلك اليوم؟ هيهات هيهات! لقد تعددت السهام المصوَّبة إلى إيمان المؤمنين فأصابته بجروح بالغة حتى تكسّرت النصال على النصال، وخارت القوى وانهدّت العزائم، وتكسّرت عندهم أجنحة الإرادة، وسُلّم العلمُ والعرفانُ رهينين للأيدولوجيات.

إن الكلام كثير حول الخلُق الرفيع، لكن الواقع يكذّب هذا الكلام. فالعدالة غدت سلعة تُباع وتشترى، وحقوق الناس باتت تحت تصرف القوى الغاشمة. أما الحرية والإخاء والمساواة فخيال صعب المنال، وتوقير الإنسان والقيم الإنسانية أصبحت مجرد مواضيع ميتة تُطرَح في قاعات المؤتمرات وصالات الندوات فقط.

إلى جانب هذا كله، فالعالم الإسلامي -الذي يشغل موقعًا جغرافيًّا واسعًا -متأخر إلى درجة كبيرة في العلم والتكنولوجيا والفن والتجارة. أما مكانتنا في العالم فحدّث ولا حرج.

ولو كنا -في ظل كل هذه السلبيات- في سلام واتفاق فيما بيننا، لهَان الأمر بعض الشيء، ولكن هيهات! فهذا العالم الكبير ينتج ويُولِّد أشياء عجيبة لا يمكن التنافس فيها؛ ينتج الحقد والكراهية والعداء وتشويه الآخرين، ويؤسس كل خططه على الخصومة والعداء.. وهذا دأب كل أمة فيما بينها. أجل، فمنذ سنوات عديدة صارت تقوية جبهات العداء والخصومة فيما بيننا هي شغلنا الشاغل، اخترعنا مخاطر وهمية وعداوات مصطنعة، وفرّقنا بين الجماعات وزرعنا بينها الفتن؛ فحوّلنا هذه المساحة الجغرافية المباركة إلى وديان خوف وفزع وأرض رعب وذعر.

إن ديننا السامي يَعِدنا بسعادة الدارين، ويفتح أمام أعيننا فضاء إنسانيًّا رحبًا، ويمدّ حياتنا بما يزيدها خصبًا وانفتاحًا، إلا أن هؤلاء الغارقين في دنياهم لا يبالون بكل هذا، فلا ينفذ إليهم ذلك التأثير الساحر للإسلام، وليس هناك من أمارة على هذا التأثير. فكل ما نراه هو ضعف المؤمنين وقلة وفائهم، وخصومة الملحدين وشدة عدائهم. فإذا قمتَ بأي نشاط ديني فستتعرض لمواجهة الملحدين عند خطوتك الأولى، وسيكون إيمانك وعقيدتك، وآمالك وأفكارك الميتافيزيقية موضعًا للسخرية والاستهزاء في الخطوة الثانية، وستبقى عرضة للّوم والعتاب من بعض الفئات. وإذا دافعتَ عن الحوار وقبول الآخر والتسامح واحتضان الجميع، فستتوجه نحوك قذائف الطعن، وتنهمر فوق رأسك سيول التهديد من "خوارج العصر". وإن عشت كما يأمرك دينك تعرّضت للهجوم من قِبَل بعض البؤر التي لم تقدّم حتى الآن أي شيء إيجابي، ولم يكن لها نصيب في أي نجاح، وتحاك

ضدك المؤامرات تلو المؤامرات، ثم تتحول هذه الهجمات الشرسة من قِبَل الذين يهينون الدين والمتديّنين، ويشوهون ماضيك وتاريخك، ويستهينون بقيَمك الدينية والوطنية، ويسبّون آباءك وأجدادك.. تتحول كل مظاهر هذا الانحراف والضلال وعدم التوازن إلى شراب سامّ، وإلى صديد يسيل في جوفك ويجرّعك آلام الغربة ولوعتها.

أمام كل هذه السلبيات، يقع كثير من الناس فريسة لليأس ويرددون دائمًا: "لا خير ألبتة في هذه الدنيا التي نحياها، ولن يكون المستقبل بأحسن حالاً". وكثير من هؤلاء -أيضًا- يفقد الأمل تمامًا؛ فيرخي لنفسه العنان ويدَع نفسه للتيار، وهذا أمر طبيعي لكل من لم يتربّ على الإيمان وينشأ على الأمل.

أجل، إن كان كل ما يُبنى اليوم يُهدم غدًا، وإن كان المخلصون يُطارَدون كالمجرمين، وإن كان كل فرد يريد إقامة هذه الدنيا حسب أهوائه ورغباته، ويحطّم في هذا السبيل كل من يخالفه أو يختلف معه في آرائه وقيمه -وهذا ما يجري في هذا الجزء البائس من الجغرافيا منذ عصرين- فلن يبقى عند أحد أيّ أمل أو عزيمة.

إن من الغريب أن هؤلاء الجبابرة الأقزام، والمنافقين من حولهم الذين يرتابون من أي عمل مُنجَز باسم الدين والأخلاق والفضيلة، ومن كل خدمة إيجابية، ويتهمون كل من يقوم بأي نشاط بنّاء في هذه الدنيا البائسة المنكودة الحظ، وينظرون إليهم وكأنهم جناة مجرمون.. من الغريب أنهم لا يرون الحالة المأساوية لدنيا المسلمين، وينسونها أو يتناسونها، بينما تسود في هذه المنطقة الجغرافية حالة رهيبة من الركود والشلل، فالأدمغة فيها لم تعد تنتج شيئًا منذ عصور، وكل مصادر القوة

فيها معطلة؛ الخرائب في كل ناحية من نواحيها، والبوم ينعق فوق هذه الخرائب. والأنكى من هذا كله أنْ غدت هذه الدنيا العظيمة للمسلمين مأوى لعفونات العالم، وملجأ للعاطلين منهم والزَّمْنَى.

لقد عاين محمد عاكف (ت ١٩٣٦) هذه الحالة المأساوية للعالم الإسلامي، وعبّر عنها في أبيات شعرية تُفتّت القلوب قائلاً:

يقولون ماذا رأيتَ وقد سحْتَ في الشرق كثيرًا؟
رأيتُ مدنًا مدمَّرة، بيوتًا مهجورة، أمة دون زعامة،
جسورًا مهدَّمة، قنوات مُخرَّبة، طرقًا دون مسافرين،
وجوهًا متغضنة، جباهًا دون عرَق، أياديَ مشلولة،
ظهورًا منحنية، أعناقًا ضامرة، دماء لا حرارة فيها،
رؤوسًا لا تفكر، قلوبًا لا تبالي، ضمائر صدئة،
استبدادًا غاشمًا، أَسْرًا ظالمًا، طغيانًا وإذْلالاً،
رياء وابتلاءات، أمراضًا وعللاً.
أئمّة دون جماعة، وجوهًا باسرة، جباهًا لا تسجد،
إخوانًا يقتلون إخوانهم في الدين باسم "الجهاد"،
مساكن خاوية، قرى فارغة، أسطحًا مهدَّمة؛
بكيت عندما مررتُ، بكيت عندما وقفتُ،
لا أحد يَسمع، لا أحد يتكلم، وطن يُرثى لحاله،
صراخ مئات الآلاف من الأعماق.
إلهي! أهذا العالم الذي أراه هو مهد الإنسانية؟
هل من هذه الصحاري انبثقت في التاريخ الحضارة؟
أكانت هذه البراري وطن التوحيد؟

أمِنْ فوق هذه الرمال -يا رب- ظهر الأنبياء؟

نعم، لكن هناك -في هذه الديار الحزينة- من لم يفقد عزمه وأمَله بعدُ، هناك أعداد لا بأس بها من عشّاق الحقيقة ومحبّي العلم، ورجالٌ نذَروا أنفسهم لخدمة الإيمان، يسعون إلى غاية سامية. ولكن ما يحز في النفس أنْ نرى أصواتهم تطغى على أفعالهم، ضجيجهم أقوى من أنشطتهم. فصراخهم -وهم يقومون بفعالياتهم- ضرره أكثر من نفعه؛ يُفزِع غيرَ المؤمنين، ويزيد مخاوفَ الذين أحاطت بهم الأوهام والهواجس، ويدفع "كارهي الإسلام والنافرين منه" إلى التحرك ضده. فإذا بالأصوات الصاخبة ترتفع من كل جانب، ثم تَتَتابع الهمهمات والشكاوى، ثم يأتي وقت تبدأ فيه المخابرات الأجنبية وكتائب المرتزقة عملَها. وفي النتيجة يُدَمَّر كل ما بُني في السابق، تُقطع الطرق، وتُهدم الجسور، ويتراجع كل شيء إلى الوراء، وتُصَفَّى تلك النشاطات والخدمات كلها على مذبح الحقد والكراهية وطغيان العداء الأعمى. هذا هو ما جرى حتى الآن، فقد تشكلت معسكرات مختلفة في المجتمع نفسه، وحدثت نزاعات بين بعضها البعض، ثم تحولت بعد ذلك إلى تناوش بالأيدي حتى اختلطت جميع الأوراق.

إن العقل والحكمة والمعرفة أسسٌ مهمّة في الإسلام. فالتفكر والتدبر والاستدلال والاجتهاد من ضرورات المجتمعات الإسلامية. وقد دعا الرسول ﷺ أمته إلى اتخاذ سبيل العقل مرشدًا وهاديًا في ظل الوصايا القرآنية، ففي قوله ﷺ: "قوامُ المرء عقلُه، ولا دين لمن لا عقل له" (شعب الإيمان للبيهقي)؛ دعوة لنا إلى استخدام العقل والمنطق

في كل أمورنا. لقد كان ﷺ دائمًا بجانب العلم، وكان يبجّل العلماء. فهو أول القائلين: "طلبُ العلم فريضة على كل مسلم" (رواه ابن ماجه)، وهو القائل أيضًا: "الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها" (الترمذي وابن ماجه). لقد حث النبي ﷺ على العلم والحكمة مرارًا، وإن الآثار الواردة في هذا الشأن لتربو على المئات، ورغم حضّ النبي ﷺ على هذا وتكراره المتواصل، فإنه لمن الغريب حقًّا أن نرى المسلمين -منذ عصور عدة- لم يستوعبوا هذا الأمر، ووضعوا بينهم وبين العلم والعرفان والفن حجابًا. بل الأمرُّ من ذلك أنهم خمدوا وأصيبوا بعقم فكري، ومالوا إلى السكون والراحة والدعة، وبلغوا مرحلة من الغفلة لم توقظهم منها حتى طَرَقات المستعمرين وسيطرة المحتلين. وبلغ الأمر حدًّا أنه رغم وصاية الآخرين عليهم، لم يتحركوا حتى يكتشفوا ما يجري حولهم، وبات معظمهم لا يعرف الحقيقة، ولا يملك ميلاً للبحث عنها، ولا عشقاً لها، كما لا يراود أكثرَهم شعور بالخجل أو الحرج لكوننا عالة على غيرنا في مجال العلم والتكنولوجيا، والقلة الباقية لا يكاد يُسمع لها صوت.

أما عبوديتنا لله تعالى ومستوى إخلاصنا في الإيمان، فهي ليست أقل سوءًا من سلبياتنا الأخرى. فقد تحولت عباداتنا إلى طقوس فولكلورية، وإلى مجرد تقليد من التقاليد. ولو كنا نوقر التقاليد لخُفِّفت عنا بعض أوزارنا، ولكن هيهات!

في وضع كهذا، هل يمكن استيعاب جوهر الإسلام؟ وهل للحديث عن الفهم الصحيح لقوانين الإسلام التشريعية، أو استيعاب أسسه التكوينية وفقهها وتفسيرها والإحاطة بها أيّ جدوى؟ لذا

فإن أول ما نحتاج إليه في هذه المنطقة المظلمة التي تعيش فيها مجموعاتٌ من المسلمين، فقَدتْ لونها وملامحها، وتشوهت فيها لغتُها ولهجتُها، هو إشعال جذوة العشق للحقيقة، وإحياء روح محبة العلم، وإيقاظ الرغبة في البحث، وتنبيه الضمائر إلى حقيقة الدين وروحه الأصيل.

إن هذا العالم لا يمكن أن ينجو من هذه الهوة السحيقة التي سقط فيها، إلا على أيدي أناس تربّوا على قيمهم الأصيلة، ذوي أرواح فتيّة وعقول متوقّدة، نذروا أنفسهم للحق تعالى، وحملوا همًّا مشتركًا واتجهوا نحو غاية واحدة، لا يرجون نفعًا ذاتيًّا، ذوي إرادة وعزم، ساعين في الخدمة الإيمانية بكل جدّية، عازمين على تخطي جميع المصاعب والعقبات، أبطال للعلم والمعرفة والإرادة، لا يبتغون جزاء ولا شكورًا سواء في الدنيا أو في الآخرة.

لقد عشنا حتى الآن على أمل قدوم هؤلاء الأبطال، وسنبقى في انتظار قدومهم ما حيينا.

الأمانات المباركة[1]

(أبريل ٢٠٠٤)

إن الماضي والحاضر والمستقبل أبعاد مختلفة لحقيقة واحدة، وعندما نشعر بأبعاد الزمن هذه ونحس بمذاقها، نعيش فيها معاً، ونتذوق رحيقها في آن واحد، ولا سيما الماضي؛ فحينما نرى آثارا تذكرنا بجذورنا الروحية وهويتنا الأصيلة تتحرك في دواخلنا خواطر وتداعيات ويزداد إحساسنا بالماضي عمقا، فتمتلئ أشرعة حاضرنا برياح العزم والثبات، نبحر نحو آفاق المستقبل الباسم بالأمل.

أجل، ما إن نعثر على بعض الآثار العزيزة على قلوبنا من الماضي الجميل حتى نقبل عليها فرحين، نتناولها كما نتناول باقة من الورد، نشم رائحتها الزكية، ونملأ أعيننا بجمالها، ونُقبّلها بإجلال عميق، ونجعلها تاج رؤوسنا؛ فإذا بها تثير في نفوسنا خواطر من الماضي البعيد، فتتجلى صفحات التاريخ أمام أعيننا ناصعة، ونرنو إلى مشاهدها الجميلة حالمين، ونشعر كأننا نعيش الأيام التي كانت تلك

---

[1] نشر هذا المقال في موقع حراء (www.hiragate.com)، ٥ أبريل ٢٠١٨. ونشر لأول مرة في مجلة ياغمور التركية، العدد ٢٣، أبريل ٢٠٠٤، تحت عنوان: (Mukaddes Emanetler). وهو يتحدث عن مقتنيات الرسول الأعظم (ص) والصحب الكرام الموجودة في متحف قصر توبقابي بإسطنبول. الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

الآثار فيها ملء العين والقلب، وموضع التقدير والتبجيل. ويبلغ بنا الإحساس بتلك الأشياء مبلغا تتراءى لنا فيه كأنها أحياء تتحرك في سكون عميق وتتنفس في صمت. فنقرأ في ملامحها معاني عجيبة ودلالات خفية فنحبها... نعم نحبها وكأنها فلذة من أكبادنا وجزء من أرواحنا. وكلما رأتنا مقبلين عليها بصدق وإخلاص أزاحت لنا الحجاب وفتحت لنا الأبواب وكشفت لنا عن السبيل المؤدية إلى أروع التصورات والرؤى وأجمل الخيالات والأحلام، ودَعَتْنا إلى عصورها ضيوفا أعزاء مكرمين، نلتقي في مكان واحد، نعانقها معانقة الصديق لصديقه والحبيب لحبيبه، وتعانقنا بدفء غامر، ويمتلئ المكان بمعان سامية عذبة، نسرع إلى ارتشافها كأنها ماء الحياة، ونستنشقها كأنها أنفاس الربيع.

أجل، كلما أقبلنا عليها بقلوبنا، شعرنا كأن رائحة شذية كالمسك والعنبر تسري في مسارب نفوسنا، وهي نفس الرائحة التي ينتشر عبقها الأصيل عندما تُفتَح صناديق جداتنا القديمة قدم الدهر. يخيل إلينا عندئذ أننا في عالم عجيب من السحر، وأن تلك الآثار التاريخية تتحدث إلينا بأفصح ما يكون البيان، وتهمس إلى قلوبنا أسمى المعاني، دون أن تستخدم حرفا أو كلمة أو صوتا يستخدمه بنو الإنسان، فإذا بنا في نشوة غامرة لا نريد مفارقتها.

ليست قيمة هذه الأشياء فيما تؤديه من منفعة عملية في الواقع، كما هو الحال بالنسبة لبعض الأشياء التي توزن قيمتها بميزان المنفعة الآنية؛ إنما قيمتها في المعاني العميقة التي تذكّر بها وتخبئها في طياتها وتشير إليها وتدعو لها. ومن ثم عندما ننظر إليها بعيوننا، ونتحسسها

بأيدينا، نشاهد عليها إشارات من معتقداتنا السامية وخطوطا من ماضينا المجيد، فتنبسط أساريرنا، وتنشرح قلوبنا، ونحطم قيود زماننا الضيق محلقين في أجواء فسيحة وأمداء رحيبة فوق الزمان.

كلما نظرنا إلى تلك الآثار التاريخية التي أهلّت في ناحية من نواحي بيوتنا، أو ملأت أرجاء متاحفنا، تراءت لنا آمال حملتها النفوس سابقا، ورؤى اختبأت وراء حجب الماضي، وإذا بنا نشاهد الأيدي تلامس الآثار الغالية بلطف، والأنوف تشم رائحتها بعمق، وإذا بنا نراهم يتجولون بيننا أو نتجول بينهم في مكان واحد، فتخفق قلوبنا لهذا الإحساس.

إن هذه الآثار التاريخية مرآة صافية تحدثنا عن معتقدات أجدادنا النقية وإيمانهم العميق وثقافتهم المتسامحة وقيمهم السامية. نقرأ في وجوه هذه الذكريات العزيزة أخلاق أسلافنا وأحلامهم وآمالهم؛ هؤلاء الرجال الذين نسكب اليوم دموعا غزيرة لغيابهم، ولا نجد ما نسرّي به عن همومنا سوى ذكرياتهم.

فما بالك إن كان بين هذه الذكريات "البردة النبوية الشريفة" التي تذكرنا بفخر الإنسانية عليه الصلاة والسلام، وبكعب بن زهير بن أبي سلمى ﷺ صاحب قصيدة "بانت سعاد"، أو تذكرنا بسلاطين المسلمين الذين احتفظوا بها في أجمل مكان من قصورهم طوال قرون وقرون بإجلال كبير وتقدير عظيم حتى حطت رحالها في ديارنا؛ أو كان بينها اللواء الشريف "العُقاب" الذي لازم رسول الله ﷺ طوال رسالته المباركة؛ أو كان بينها شعيرات من لحيته ﷺ المباركة التي تَنافَس الصحابة الكرام فيما بينهم لكي لا يضيعوا شعرة واحدة منها، وقصاصات شعره المبارك التي تناقلتها الأيدي قرنا بعد قرن

منذ عصر السعادة الأغر إلى يومنا هذا، وتناولتها القلوب جيلا بعد جيل كأنها باقات ورد حبيبة، وبجّلتها أيما تبجيل؛ أو كان بينها السيف المبارك الذي كان صاحب العمامة والقضيب ﷺ يتقلده في جميع الغزوات لكن دون أن يؤذي أحدا أو يتلطخ بدم أحد؛ أو كان بينها رباعية السعادة التي فارقت أخواتها من اللآلئ المنتظمة في الفم المبارك كعقد الجمان، جراء ملامسة حصاة طائشة انطلقت حُبًّا في ملامسة الياقوت أثناء إحدى الحروب؛ أو كان بينها العصا السعيدة التي كان يحملها صاحب العصا ﷺ؛ أو كان بينها القوس المبارك الذي ما رمى به عليه الصلاة والسلام سهما نحو إنسان في حياته السنية إلا مرة واحدة، وذلك ناحية رجل أتى بغية قتله ﷺ، فاستهدف القوسُ الشريف منه غير مقتل؛ أو كان بينها نقش "القدم الشريفة" الذي تسابق سلاطين الإسلام وملوكه ليتوّجوا به رؤوسهم.

وبالقرب من هذه الذكريات الميمونة كلها قِدر إبراهيم عليه السلام، وعصا موسى عليه السلام، وعمامة يوسف عليه السلام، والسيف المهيب الذي صنعه داوود عليه السلام بنفسه، والسيوف المباركة العائدة إلى بعض الصحابة الكرام والعشرة المبشرين بالجنة، والمصحف الشريف الذي كان يتلوه سيدنا عثمان ذو النورين أثناء استشهاده.

إضافة إلى بردة الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، وقلنسوة أويس القرني رضي الله عنه، وتاج الشيخ عبد القادر الجيلاني، ومَحافظ الحَجَر الأسود الذهبية والفضية، وميازيب الكعبة الذهبية... أجل، ما بالك إن كان بينها أمثال هذه الودائع المباركة التي لا يعادل مُلك العالم كله قيمةَ واحدةٍ منها في نظر العاشقين.

إن كل وديعة من هذه الودائع تثير في النفس ذكريات وخواطر كثيرة، وتحمل معاني جليلة، وقدرا عظيما من الرفعة والسمو. فمن بحث لواحدة منها عن نظير، أو نقّب لها في البلاد عن مثيل فلن يجد لها نظيرا ولا مثيلا، فأنى له أن يقدّر ثمنها أو قيمتها مجتمعة.

وهناك أمر آخر لا يمكن أن نجد له مثيلا، وهو هذه العناية الخاصة التي أبداها أبناء أمتنا الأوفياء سلاطينَ ووزراء وعلماء وشعبا إزاء الآثار المباركة منذ اليوم الأول الذي شرّفت فيه أراضينا الطيبة. ففي اليوم الأول، ما إن حطت الأمانات الشريفة رحالها في إسطنبول حتى خصص لها السلطان أجمل مكان في قصره، وأجلّها إجلالا منقطع النظير حيث سمّى الجناح الذي نزلت فيه ضيفة كريمة "دائرة بردة السعادة"، وملأ أركان الدائرة بنور قرآني فياض وحيوية إيمانية سامية من خلال تلاوة أفضل الحفاظ للقرآن الكريم بأصواتهم الندية، فقدّم نموذجا حيا باهرا في حب النبي والأنبياء عليهم الصلاة والسلام وصحبه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

ومنذ ذلك اليوم أصبح هذا المكان الطاهر، أي "دائرة بردة السعادة" أو "جناح الأمانات المقدسة"، ملجأ يأوي إليه المتيمون بحب رسول الله ﷺ باحثين عن الدفء والسكينة، متنفسين فيه أنفاس الربيع، مرتشفين ماء الحياة. نسأل المولى ﷻ أن يذكي هذا الحب في القلوب فتستمر صلة المحبين بهذه الدائرة المباركة إلى الأبد.

ولا يصح أن ننظر إلى الأمانات المباركة والزخارف الموجودة في هذا الجناح الميمون كأنها أشياء قديمة مزينة عادية لا تحمل أي معنى. أبدا، فالجناح برمته، بزخارفه التي تزين الجدران ومقتنياته الموضوعة هنا وهناك بعناية، يبدو للناظر الذواق حديقة فيحاء

صُمّمت تصميما فنيا دقيقا، ونُثرت عليها أزهار بديعة الجمال. لقد صممت الخطوط والأشكال الفنية بتناسب عجيب مع روح المكان إلى درجة تُشعرك وكأن كل شيء هنا خُطّط له مسبقا تخطيطا شاملا من قبل يدٍ عُلوية. كل شيء هنا في موضعه المناسب، وهناك تناغم بين المكان والأشياء، بحيث لن تجد النشوة التي تحس بها والرائحة التي تشمها هنا في متاحف قديمة أخرى. إذ ما إن تلج الجناح المبارك حتى تشعر بأنك دخلت خلوة خاصة في عالم غير عالمنا، وأجواء غير أجوائنا، وجاورتَ ربانيين مقربين إلى الله سبحانه، فغرقت في سحر المكان ولم تشأ مغادرته على الإطلق. أجل، في هذه الدائرة التي تشع نورا، كلما أطل الإنسان إلى وجوه تلك الآثار التي لا تقدر بثمن، رأى كأن الزمان الذي يتدفق كالنهر في الخارج قد انكمش هناك وتقلص وأُدخل في فانوس قديم، ووُضِع في زاوية من زوايا الحجرة المباركة؛ وحينئذ ينجذب الإنسان إلى سحر المكان وينتشي بعذوبة روحانيته، ويذوب في بحر من الجمال الوردي السامي.

إن الإنسان الذي يوفَّق إلى استنشاق رائحة الجدران، واستشعار الروح الذي تَلبَّسه المكان بحواس قلبه، يسمع أجمل الألحان الشعرية، ويتسامى على طبيعته وكأنه غارق في عالم من الأحلام؛ وتتفتح في جنان قلبه أزهار من المشاعر المتنوعة تسحر الناظر بألوانها وتسكره بعبقها الطاهر الشذي؛ فيشعر بنشوة عميقة وقد سرت في كيانه كله، وتنطبع البسمة على شفتيه، ويمتلئ صدره بأنفاس الفرح المقدس، يقول: "لا شك أن هذا المكان صمّمته أيدي الملاكة، وهنا يكمن سر هذه الجاذبية وهذا السحر".

إن الفارس الذي يشد رحاله إلى خواطر تثيرها الأمانات المباركة

في إطار هذه المعاني يرفرف نحو آفاق عجيبة، ويشعر بأنه يعيش في زمان آخر غير زمانه، وفي حياة أخرى غير حياته، وفي مكان آخر غير هذا المكان. ويبدو له كأن زمانه الضيق ومكانه المحدود قد انفتقا عن زمان ومكان آخر. نعم هنا لا ينفع إلا الصمت... وما إن يرمي السالك بنفسه في بحار الصمت، ويرفع أشرعته لرياح الخواطر والذكريات حتى يجد نفسه مبحرا في آفاق شاسعة من الشعر الجميل، مصغيا إلى الدويّ الصامت لأحداث ووقائع لا يسمع صداها إلا هو؛ يتمثل كل أثر من الآثار المباركة وكأنه شخصية تاريخية ملؤها الدفء والحياة. إن كل شيء حوله في هدوئه العميق صديق مخلص قد فتح ذراعيه ليحتضنه بحب وحنان، ويخيل إليه للحظة أنه لو خطا خطوة صغيرة أخرى سيدلف إلى الزمن الذي وجدت فيه. يبقى هكذا مستغرقا في هذه التجليات السامية والمشاهدات الرفيعة إلى أن يوقظه أحد من هذه الرؤيا الجميلة.

إن أبناء أمتنا الأوفياء قد عرفوا الأمانات المقدسة بهذه الأبعاد والمعاني الكريمة، وفهموها بهذا الفهم، فوفّوها حقها من التقدير والإجلال.

وما إن لاحت وديعة من تلك الودائع في آفاقنا حتى هيّجت مكنون حبنا لديننا الحنيف فأسرعنا إلى عالمه المضيء مرة بعد أخرى عبر القرون. ولقد كنا في كل نظرة إليها نجدد صلتنا بهؤلاء العظماء الذين تشير إليهم، ونحس بجلالهم في أعماق قلوبنا من جديد. وحتى في الفترات التي أصيبت فيها هويتنا الروحية بجروح، وتزعزعت مشاعر التبجيل للقيم الدينية... حتى في تلك الفترات لم تتأثر مكانة الأمانات المباركة في قلوبنا وظلت موضع احترام الجميع وتقديرهم دائما.

بيان القلب ولغة الحال[1]

(أكتوبر ٢٠٠٥)

إذا كان البيان مفتاحًا، فالقلب هو العالم النوراني الذي يُفتَح بذلك المفتاح. وقيمة الكلمة تقدّر بمدى ارتباطها بالقلب. فالألفاظ التي تتدفق عبر الفم واللسان، ما هي إلا ظلال لبيان القلب. هذا البيان الذي يعد تنزيلا لكلام الحق سبحانه لا يستوعبه إلا من تفتّحت مداركهم، وملكوا حاسة الإصغاء إلى أنفاسه الصاعدة من أعماقه.

إن الالتزام بقواعد المنطق وضرورات الأساليب والمعاني، لها أهميتها التي لا تنكر في الصياغة الأساسية للبيان؛ كما أن الحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة والكناية وأمثالها من أضرب التصوير، التي تضفي على البيان رونقًا خاصًّا، وتمده بطابع مخصوص من الحسن، إنما هي من الفنون الأساسية التي تزيد التعبير ألقًا وعمقًا. أما الجناس والسجع والاقتباس وأمثالها من "المحسّنات اللفظية" التي يعد كل صنف منها فنًّا من فنون تزيين البيان وتحبيبه إلى النفوس، إلى جانب التورية والطباق والمقابلة وحسن التعليل وأمثالها من

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٥٧، (نوفمبر - ديسمبر) ٢٠١٦م. ونشر لأول مرة في مجلة ياغمور التركية، العدد ٢٩، أكتوبر ٢٠٠٥، تحت عنوان: (Gönül Dili Hal Şivesi). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

"المحسنات المعنوية".. كلها تصبغ العبارات بألوان بهيجة رقراقة وتبلغ بها آفاقًا بديعة الجمال. بيد أن الذي ينفخ الروح في هذا البيان، ويمده بأنفاس الحياة الباقية حتى يغدو ترجمان المشاعر الجوانية، هو ارتباطه بعالم القلب.

إذا كانت الألفاظ قوالب للمعاني، فلا مناص من التسليم بما لأبواب المعاني وصور البيان وفنون البديع من أهمية، بيد أن الحقيقة التي لا مراء فيها، أن ثراء البيان واتساع معانيه، مرتبط طرديًّا بمدى العمق الذي يمتح من معينه عند انبعاثه من خلجات القلب وأعماق الروح. إن القلوب التي تئنّ بمشاعر إيمانية فيّاضة كوتر حساس لمسته ريشة العازف، تترك في النفس أثرًا لا يمحى، وتؤسس في القلوب محبة صادقة لا تتبدل.

إن الكلمات التي لم تستطع أن تكون جزءًا من آلية الوجدان، ولم يعبّرِ عنها القلب بلغته، ولم تصطبغ بصبغة الحال، لا يدوم تأثيرها على الأرواح طويلاً مهما اكتست من حلل البراعة وتأنقت بزينة البيان.

عالم الإنسان الجواني ينبغي أن يكون عامرًا زاهرًا على الدوام، ناصعًا طاهرًا كالمعابد، مشرَع الأبواب على مصاريعها لتجليات عرش الرحمة، مستحضرًا معية الباري ﷻ في كل حين، حتى تكون آثار المعاني والمضامين التي يرددها القلب عميقة متواصلة. وإذا كانت عيون القلب مقفلة، والروح تئنّ تحت ضغط الرغبات البدنية والنزعات الجسمانية، فكيف يرجو أصحابها أن يكون لكلامهم أي أثر؟

إن الأخيار الذين يراقبون الله في كل فصل من فصول حياتهم، ولا يغيب عن بالهم معيته لحظة، وأنفاسهم تصعد وتهبط بمعنى قول الحق سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾، ومحيّاهم الطاهرُ يُذكّر

من يطالعه بالحق ﷻ.. أولئك هم الذين يبعثون في القلوب تصديقًا وإيمانًا بقدر عمق إيمانهم هذا، وأولئك هم الذين يُشعرون بالحقائق وحقيقة الحقائق بقدر شعورهم بها، وأولئك هم الذين يتردد صدى ندائهم في القلوب على الدوام.

أما الذين لا يعلمون شيئًا عن جوهرهم الإنساني، ولا يبالون بالأعماق الكامنة في ماهيتهم، وعلاقُتهم في تراجع دائم مع الله ﷻ، فمهما غرّدوا كالطيور الشادية صباح مساء، ومهما ترنموا بعبارات تضاهي الملاحم في بلاغتها، فلن يجد كلامهم إلى القلوب سبيلاً، ولن تصيب عباراتهم مواضع التأثير فيها.

قد يجيدون فنّ إلقاء الكلام، وقد يلاقون من مستمعيهم استحسانًا وإقبالاً وثناء، لكن أثر بلاغتهم في القلوب لا يدوم، ولا يوجِّه الناس إلى الله ﷻ أبدًا. فالمفتاح المشفَّر الذي به تنفتح القلوب وتنقاد الأحاسيس، قد أهداه الله إلى لغة القلوب ولسان الأحوال.

لقد عجزت تلك المعلومات الجافة التي لم تنبثق من صميم القلب والوجدان عن الوصول إلى أي قلب. لقد خدعوا أنفسهم وخدعوا غيرهم من ظنوا أنهم قد حققوا شيئًا بتلاعبهم اللغوي وبيانهم المراوغ الذي يستفز الغرائز ويثير الأهواء. لقد فاتهم شرفُ أن يكونوا صدى يتردد في القلوب ونفَسا تحيا به الأرواح.

إن الصوت والنّفَس، واللسان والشفة، والقلم والإصبع، ما لم يكن ذلك كله تحت إمرة الأحاسيس الداخلية، فلن يبلغ الكلام قيمته الحقيقية. ففرسان القلوب هم من يسعون دومًا لإكساب الكلام قيمته الحقيقية؛ ينصبون شباكهم لاصطياد الأحاسيس الداخلية دائمًا،

واقتناص المعاني المنبثقة من أعماق قلوبهم. يُوصِدون أبوابهم في وجه كل تصور ليس حاصلاً على تأشيرة من آلية الوجدان، ويهملون الكلمات ويطرحون الأصوات التي لم تنبع من صميم قلوبهم في زوايا نائية من عوالمهم الداخلية حتى تتعرض للنسيان، مهما كانت روعة نغماتها في الأفواه ومهما كان جمال وقعها على الآذان. يقفون بالمرصاد إزاء هذا النوع من الأحاسيس المشوبة في مراقبة صامتة.

ديدنُهم إيثار المعاني التي تأكدوا أنها نبعت من قلوبهم حقًّا، ونطقوا بها خالصة لوجهه تعالى دون أي شائبة. يؤثرونها حتى لو بدت سمًّا زعافًا في ظاهر النظر.. يفضّلونها على ماء الكوثر إن لم ينبثق من لسان القلب ولم يصطبغ بصبغة الحال. لا مطمح لهم في أي حظ نفسي أو متاع جسماني. يلاقون ألف لون ولون من المظالم والحرمان أثناء سيرهم في الدرب الذي آمنوا به، ومع ذلك لا ينحرفون عن الاتجاه الذي تشير إليه بوصلة قلوبهم. إنهم على استعداد تام لنسيان أنفسهم نسيانًا كاملاً، بل على استعداد تام أن تُحذَف أسماؤهم من التاريخ فلا يأتي ذكرُهم على لسان أحد أبدًا. أولئك لا يبتغون اسمًا ولا نيشانًا، ولا شهرة ولا جاهًا، ولا ثروة ولا أموالاً. أولئك لا يَجِدون على أحد مهما قوبلت خدماتهم بجحود مستمر ومهما تعرضوا لحرمان متواصل، ولا يتّهمون أحدًا بالخذلان وعدم الوفاء. يفعلون ذلك إكرامًا للعقيدة التي ينتمون إليها، ويقينًا منهم أن تلك المنغّصات من لوازم الطريق، فيقابِلون كافة السلبيات التي تعرضوا لها بكلمة "سلامًا"، مصممين على مواصلة السير في طريق الأنبياء.

هذا دأب جميع طلبة القرآن عبر التاريخ، هكذا فكروا دومًا،

وساروا في هذا المسار. إن سالكي هذا النهج النوراني بالأمس واليوم، قد أقسموا أن يقتفوا أثر الدليل الخالد ﷺ، لهذا الطريق.. ترددت أنفاسهم بالمحبة، وتمتمت ألسنتهم بعبارات الود للآخرين، واحتضنوا الجميع مغمورين بروح الأخوة، واعتبروا الكون ربوع إخاء كما يقول بديع الزمان.. تحدثوا بلسان قلوبهم حينما نطقوا، ولوّنوا أحاديثهم بصبغة الحال، فوصلوا إلى النقطة التي تفصل الفانين عن الباقين، ورسموا صورة فريدة بأحاسيسهم وانفعالاتهم تلك.

هؤلاء يستشعرون روحَ الكون ومعناه كافة في أصغر إشارة تتبدَّى لهم، يرسمون إحاسيسهم عبر إيماءات تلوح في وجوههم ومعان تترقرق في عيونهم؛ يشعرون بأسرار الوجود العميقة بحدس لدني، ويسعون إلى أن يتذوق كل من يلتقيهم من تلك المعاني المنهمرة على تلال القلب كأنها موائد سماوية.. يتجولون في الأودية واديًا واديًا، يبحثون عن قلوب يقدمون لها مكرمات جمالية اهتزت وربت في ربوع إيمانهم.. كلما التقوا بروح متفتحة، أهلَّ في سمائهم عيدٌ بهيج. البراءة والعفاف سمة مشاعرهم.. بلا ادّعاء هم حتى إن تحققت أعظم الإنجازات على أيديهم، فقد أغلقوا أبوابهم إزاء أدنى مطمح أو تشوف، ومع ذلك يفيضون سرورًا ويتوقدون شوقًا وحماسًا.

إنهم يبحثون عن سرٍّ ليل نهار.. حلمهم الأكبر أن يتقاسموا أسرارهم.. يحاولون أن يشعلوا جذوة القلوب بما يضطرم في نفوسهم من مشاعر. يقدمون للقلوب المتفتحة ألحانًا من العواطف والأفكار والأصوات والإيقاعات لم يعرف القلم إلى كتابتها سبيلاً. تخفق صدورهم مدفوعين بشوق المهامّ التي يقومون بها؛ لا يأس ولا أسى، لا تردد ولا انكسار؛ يرتشفون النشوة من قلب الجهود التي

يبذلونها، ولا يبتغون أجرًا آخر كما يفعل محرومو القلب وبؤساء الروح. بسخاء يبذلون الروح التي أنضجوها في قلوبهم.. وبسخاء يتقاسمون ذلك المعنى وتلك المعرفة والمحبة التي لا يرتوي من لذتها المرء مهما نهل منها. لا يفلت أحد من تأثير تلك الأصوات الساحرة حينما تتدفق كشلال من السكينة في سفوح قلبه، ما لم يحمل فكرًا مسبقًا.. لا أحد يقاوم تلك المعاني اللدنّية التي تغزو القلوب ويتجاوب صداها في أعماق الإنسان.

لا أحد يستطيع أن يقف إزاء تلك الكلمات النابعة من أعماق القلب، والتي تعد تجليًا لما تنزّل من السماء دون أن يهتز لها أو يتأثر منها. إن درر البيان تلك، المنبثقة من القلب والمتسامية "حالاً" إلى أفق سامق آخر، سوف تترك تأثيرها على القلوب المتفتحة لا محالة، إن لم يكن اليوم فغدًا، وسوف تفرض سلطانها على أنظمة وجدانهم بكل أبعادها.. بعدها سيأتي يوم تقفز فيه كل هذه الواردات التي اختمرت في اللاشعور إلى العلن بمجرد لمسة بسيطة، وتتحرك لتصبغ الجميع -حتى الأرواح البعيدة- بصبغتها الخاصة.

أجل، إن الكلمات التي تُصاغ اليوم بلسان القلب، والعبارات التي تحاك بنسيج الحال، لا تضيع أبدًا؛ بل تحفظها الأذهان اليوم كما تحفظ الأقراصُ الصلبة المعلومات، الشعورُ يقيّمها، والعقل يغذّيها وينمّيها، ويفرغها في قوالب وأشكال جديدة، ويتركها وديعة حتى يأتي وقتها الموعود. وعندما يحين موسمها يصدح القلب بلغة عجيبة ومعان ساحرة لم تسمعها أذن من قبل، ويعرض الحالُ جمالاً نادرًا لم تشهد العين لمثله نظيرًا، يخاطب الأرواح، فيترك فيها آثارًا لا تنمحي أبدًا.

أنت روحنا النابضة وقلبنا الخفاق[1]

(مارس ٢٠٠٦)

لقد كانت ولادتك ولادة للإنسانية أيضًا... فقد استطاع القاصي والداني والصديق والعدو أن يبصر صوابه وأخطاءه بالنور الذي نشرته، ويقيّمها على أساسه وبواسطته، فيبلغ بفضله من الاطمئنان مبلغا. نحن جميعا ما كان بمقدورنا أن نفهم الجنة التي نشعر بها في أعماقنا حق الفهم، وندرك سعادتها الأبدية حق الإدراك إلا ببيانك السماوي... أجل، بشلال بيانك الساحر استطعنا أن نتوجه نحو ما يريده منا الحق تعالى وما يرضاه لنا.

إذا كانت أعيننا اليوم تَرِفُّ بتسبيح الله تعالى وتقديسه، وإذا كانت قلوبنا اليوم تنبض بشوق الوصال، فأنت الذي أشعلت فتيل هذه المشاعر والأفكار العلوية في أعماق قلوبنا... أنت من علّمتنا وأشرت إلى الذرى السامية الحقيقية للإنسان وللإنسانية... أنت من أوقدتَ في قلوبنا جمرات الحب وأذقتنا نشوة الوصال... أنت

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد ٣، (أبريل – يونيو) ٢٠٠٦. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٣٢٦ (مارس ٢٠٠٦)، تحت عنوان: (Seni Bir Kere Daha Derince Duyduk). وكان ذلك عقب نشر إحدى المجلات في فرنسا رسوما تسيء فيها إلى شخصية الرسول الأعظم (ص). الترجمة عن التركية: هيئة حراء للترجمة.

من كشفتَ للمتوجهين إليك وإلى رحابك بكل توقير عن السرّ الحقيقيّ للوجود. لقد دللتَ -بإقرار الملايين بل البلايين من الناس وتقديرهم- أصحاب الأرواح المنصفة إلى قيم ثابتة لكي يظل كل إنسان على ماهيته الحقيقية.

إن النفوس التي تذوقت حقيقة الحب بفضلك واهتدت إلى آفاق الحياة الروحية الواسعة بدأت تَشْدو وكأنها مطبوعة على الحب والتوقير بترنيمات سامية منبعثة من أعماق الروح، وكلمات حكيمة تعبّر عن عمق الأبعاد الإنسانية لديها، وأضحى أصحابها ممثّلي القيم الإنسانية على مدى العصور، فما خاب وما ضاع من اقتدى بهم. لقد وَجَد جُلُّ العالم الإنساني فيهم وفي أصواتهم وكلماتهم وأقوالهم نبضات وجدانه التي لم يكن قد اكتشفها حتى ذلك اليوم، واطّلع كل واحد بفضلهم على أعماقه الداخلية.

أجل، بفضلك أصبح جميع الناس الذين بدوا مختلفين جدًّا بعضهم عن بعض، بل أصبح حتى الجن وأصحاب الأرواح الطيبة -بمعنى من المعاني- يتكلمون عن معانٍ ما كانت تخطر على بالهم من قبلك ولا تنعكس على أحاسيسهم، وإن انعكست فما كانوا يستطيعون التعبير عنها، وإن استطاعوا التعبير فما كانوا يجيدونها، ولا يضعون كل شيء في مكانه الصحيح؛ ولكنهم أصبحوا يُتقنون هذا بفضلك، وبفضلك يحلّون مشاكل ومعضلات عديدة.

بعد أن شرّفتَ العالم بقدومك، وتربّعت على عرش قلوبنا حللتَ رموز أسرار المعاني العميقة لمعنى الإنسان وماهيته الذي خُلق في أحسن تقويم، وأطلقتَ بذلك الألسن عن عقالها، وعلّمتَ الغربان

كيف تتحوّل إلى بلابل صدّاحة، وأثَرت رغبة الصديق والعدو في الإصغاء إلى أعماقهم والتعبير عنها، كل من زوايا مختلفة.

لقد بعثتَ القواسم الإنسانية المشتركة من مرقدها فتألّقتْ، ومزجتَ آلاف الرؤى والفهوم في بوتقة واحدة، وجمعتها حول روح واحدة، وأشعرتَ الجميع بمعان من أفق قلبك لا تَبهت ولا تَبلَى. لقد تخلّت الإنسانية بأجمعها، بل حتى عالم الجن وعالم الأرواح الطيبة -بفضل المعاني المترشحة من رسالتك وبفضل لب هذه الرسالة وجوهرها- عن القوالب الجامدة لبعض المفاهيم فتملصت منها وولجت إلى عالم التغيير والتجديد.

وسواء أشعر به الجميع أم لم يشعروا فإن القسم الأعظم من الإنسانية حقق عديدًا من أنواع التجديد وعديدًا من النجاحات بفضل منظومة الإيمان التي وضعتَها وبفضل الأهداف الإنسانية التي أشرتَ إليها وشجَّعتَ عليها.

وحتى فجرِ الإنسانية ويومِها الذي طلعتَ فيه كان الظلام يسود كل جزء من هذا العالم. كان الجميع يرتجفون خوفًا من وحشة العدم، ويَقلَقون من المشاكل التي تحيط بهم وتحاصرهم. ولكن بفضل رسالتك التي كانت تبشّر بحلّ كل مشكلة وتلبية كل حاجة وتحقيق كل أمنية وكل أمل، انشرحت الأنفس وتفتحت الآمال في الأرواح، فبدأت نسائم الأمل تهبّ على القلوب التي كانت تتقلب على جمرات اليأس، وصدحت أنغام الأمل والسلوان في كل مكان، حتى صارت النغمات السحرية التي بدأت تتعالى وتنتقل عبر النسائم تبشّر القلوب الحزينة على الدوام بالسعادة والبهجة،

وتتحدث معها عن الحب، أيْ كيف تُحِبّ وكيف تُحَبّ، وتنفث الحياةَ في العلاقات الإنسانية وروابطها التي بدت وكأنها تحتضر، وتحيي المحبة والعشق، وتمد المشاعر الإنسانية –التي هجعت في القلوب منذ عصور- بالحركة والنشاط، وتدعو الناس جميعًا إلى الغوص في أعماق قلوبهم لكي يعرف كل إنسان حقيقته، ويقدِّر إنسانيته حق التقدير.

كانت أنفاسك الصادقة الحرّى تبعث الحياة في القلوب الظامئة إلى الحب والأمل والسعادة، وتثير في النفوس المرهفة التي استقبلت رسالتك بتبجيل وإكبار انفعالا قدسيا، وتحفّز الأرواحَ السامقة إلى التنقيب عن سبل شتى لتعميق العبودية لله سبحانه، وتضيء الدروب التي تسير فيها العقول التي تبحث عن النور.

لقد كنت بإيمانك الخارق الذي لا يعرف التردد أو الخور وبأصحابك الميامين الأوفياء الذين وقفوا معك تسعى نحو أمل كبير فوق كل أمل، وهو أن تُسمع صوتك للإنسانية جمعاء. لقد بذلتَ كل ما في وسعك طوال حياتك السنية وفي كل فصل من فصولها، بل في كل نَفَس من أنفاسك العطرة من أجل السعادة الأبدية للإنسانية جمعاء، ولم ينقطع جهدك هذا ووفاؤك وإخلاصك قطُّ. وما كان كل هذا لينقطع أو يتوقف لحظة، لأنك كنت تسعى لتحقيق أحلام الإنسانية جمعاء لكي تكون لجهودها معنى، ولكي تحقق الأرواحُ الظّامئةُ للأبدية أملَها وحلمَها. فهذه هي رسالتك، ومن أجلها أُرسلتَ وبُعثتَ... لتأمين الحاجات القلبية والروحية والمادية للإنسانية، ولتحقيق أملها في الحب والتحابّ، ولتحقيق أحلامها وآمالها في

السعادة هنا وفي الدار الآخرة. كان هذا الأمر يشكل عمقًا مهمًا من رسالتك، وكنت قد عزمت على تحقيق هذا الأمر.

كانت رسالتك عالمية كونية، كان كل شخص يأخذ منها حسب سعة قلبه ويقيّمها حسب قابليته وحسب أجواء قلبه وأحواله. وذلك بفضل الطابع الفطري فيها، وبفضل أحكامها التشريعية المسايرة للقوانين السائدة في الكون والموافقة للطائف القلبية والروحية والعقلية في الإنسان. فكل قلب وكل فؤاد يجدها موافِقة لفطرته وملائمة لها، ويطّلع بواسطتها وفي جوها الروحاني على الأسرار العميقة للوجود.

إن كل ما سمعناه من درر بيانك وما قرأناه في سلوكك الرفيع، كان مصدره ساميا متعاليا، لكنه مع ذلك تنزّل إلى مستوانا واحتضننا وشملنا بعنايته الخاصة ففهمنا المعاني وتذوّقنا المرامي وأدركنا الدلالات. لقد أحسسنا بقربها منا وكأنها نبتت ونمت ثم ترعرعت في إقليم قلوبنا وبساتينها؛ شعرنا بدفئها في صدورنا حتى لكأنها توشك أن تتدفق منها. لقد احتضنت ماهيتنا الإنسانية وتفرسَّتْ في أعيننا وسحرتنا بطعمها ونكهتها من قمة رؤوسنا حتى أخمص أقدامنا. تلك كانت خصلة من خصالك تَفرَّدتَ بها، وسجية من سجاياك لم يشاركك فيها أحد.

استطعتَ أن تخاطب الناس جميعًا خطابًا يعلو على جميع المشارب والثقافات الخاصة، بأسلوب فائق الجمال سامي الدرجات لا يجرح أحدًا أو يخدش شعور أحد... تخاطب كل الناس فتؤثر في الأرواح المهيأة وتوقظها. خطابك بليغ ذو رموز وإشارات

وإيماءات خاصة تكثّف المعاني وتُعمقها وتُجسدها... لقد فتحت أبواب أسرار الأشياء والحوادث أمام من سيأتي من بعدك، بل فتحتها على مصاريعها أمام بعضهم حتى سموا إلى تذوق نشوة عالم آخر... نشوة لا تبلغها أي نشوة أخرى ولا ترقى إليها. إننا لا نزال نحتفظ في قلوبنا بهبات السماء وهداياها (الآيات القرآنية)، وعندما نعبر عنها بتعابير جديدة ونترجمها إلى الواقع حسب مقتضيات العصر نتذكرك على الدوام، ليس مرة واحدة بل ألف مرة... ومن أعماق قلوبنا ننحني إجلالًا لك وتوقيرًا. فهذا حقك، كما هو واجب على جميع رعاياك وأتباعك الذين تنبض قلوبهم بالوفاء لك.

أنت هبة الخالق جل وعلا للكون، هبة لا نظير لها ولا مثيل، رسالتك وتعاليمك أمانة منه تعالى. الذين عرفوا هذه الحقيقة وآمنوا بها عدّوك أعز من أرواحهم وأغلى، وما فتئوا يرددون عبارات العرفان والامتنان لك مدى الحياة، وقد أثيبوا من الخير مقابل وفائهم هذا أضعافا مضاعفة.

لكن جاء يوم خرج فيه من جحرهم بعض المختلين نفسيًّا وعقليًّا من منتسبي ثقافات أخرى وتقيئوا ما في قلوبهم من دنس وبدأوا يتحرشون بمقامك السامي ويصمونك –حاشاك ألف مرة- بالبداوة، ويَصِمُون صوت السماء ورسالتك بأنها "قانون الصحراء"، ويحاولون حبسك في عهد قديم، ويتجرأون على القول بأنك تعود "لذلك العهد وأولئك القوم"، وشجعوا بهذا عالما مليئًا بالأحقاد والعداوات، واستعانوا على ذلك برسوم كاريكاتيرية شنيعة بعيدة عن الأخلاق؛ فتعرضتَ لجحود أتباعك وعدم وفائهم، ولهجوم أعدائك وأحقادهم.

ولو نحينا الجهود المباركة لِسَلَفنا الصالح وأجدادنا الأوفياء جانبًا لأدركنا بأننا لم نستطع أن نُعرِّفَ العالم بك. وكلما مرت على خواطرنا الآن محاولات التعدي والتهجم عليك تَمْتَمنا: "ما أجحدنا وما أبعدنا عن الوفاء!".

مع ذلك، إن جذور الروح والمعنى في هذا العالم قوية، يسري في جِيناته صفاء أجدادنا الأخيار، ويبشر ماؤه وترابه وهواؤه بعهد وردي جديد، فلا أشك في أنه سوف يلف ويدور ثم يعود إلى رحابك النابضة بالرحمة والرأفة فيسعد ببعث -بعد موت- جديد، إن لم يكن اليوم فغدا. وقد بدأ الآلاف بل مئات الآلاف من الآن يترقبون لحظة سعيدة كهذه.

لا أستطيع أنا، ولا يستطيع الآخرون أن يطلبوا منك العفو والصفح... نستحي من هذا ونخجل... لكننا لم نشكَّ لحظة في سعة كرمك. وفي أحلك الظروف، عندما أظلمت آفاقنا، وهجم الخريف علينا، وخربت الطرق وتهدمت الجسور... حتى في هذه الأوقات لم نصرف عيوننا عن تعقب آثار قدميك ورددنا مع "كتّانجي زاده":

"أنت عزيزنا... مرشدنا... أستاذنا... سيدنا... نورنا المضيء... ضياؤنا في الدارين... وكل إخواني متفقون على هذا". ردَّدنا ذلك مرة بعد مرة تعبيرًا عن وفائنا لك وإخلاصنا. نواقصنا كثيرة، وإهمالنا كبير، ولكنه سيبقى كقطرة بجانب بحار عفوك وسماحتك.

مولاي! عن البؤساء لا تقطعنَّ كرمك!

فما لسلطان الجود أن يقطع عن ذي فاقة نوالَه؟!

(محمد لطفي)

لعلّنا نُبعَث من جديد[1]

(يونيو ٢٠٠٦)

إننا -أبناءَ هذه الجغرافيا المثخنة بالجراح، المثقلة بالأحزان- كنّا وما زلنا نترقب منذ عقود وعقود نسمة بعث أو نفخة "صور" خارقة، نسأل الله أن يعجّل بها وألاّ يَطول انتظارُها. ومهما يكن فإننا عاهدنا أنفسنا أن نَثبُت على هذا "الترقّب الفعّال" حتى يُشرق يوم نستردّ فيه قِيمًا أضعناها منذ أمد بعيد. ولكن، يا تُرَى، هل العُدّة التي أعددناها، وتحفُّزُنا الروحيّ، وموقعُنا من الحق جل وعلا، موافق لمقتضى ذلك "الانبعاث المرتقب"؟ إن لم يكن الأمر كذلك، فإنه انتظار سلبي لا يُسمّى "ترقّبًا" قطّ.

وإذا كان الانبعاث الذي نترقبه -بعد هذا الموت الطويل- هو التّحقق في الإحساس والتفكير والحياة القلبية والروحية بـ"أصالتنا الذاتيّة" -وهو كذلك بلا شك- فذلك يستوجب منّا مراجعة جادة لما نحن عليه وما نتطلع إليه من غايات عظيمة لنوفِّق بينهما. إن "قانون العلّيّة" يقتضي مناسبة ضرورية بين انتظاراتنا الكبيرة وأدائنا

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٤٠، (يناير - فبراير) ٢٠١٤. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٣٢٨ (يونيو ٢٠٠٦)، تحت عنوان: (Belki Bir Gün Biz de Dirileceğiz). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

الراهن. لذا فإنّ حمل تطلعات جليلة كهذه، ليس من شأن جَهلة لا نصيب لهم من "العلم والمعرفة"، أو بؤساءَ لا يملكون "غاية سامية"، أو عُطّلٍ لا يحملون بين جوانحهم "همّ قضية"، أو محرومين جديرٌ بهم وصفُ "فقراء الحكمة".

إن استشرافًا جللاً وحُلمًا عظيمًا كهذا، الأحقُّ به فرسانٌ مزجوا العلم بالعرفان، ونذروا أنفسهم للحقيقة. وإذا قُدّر لحظّنا المعكوس أن يتغير يومًا ما، فلن يأتي التغيير -بمقتضى السنن الفطرية- إلا على أيديهم إن شاء الله. هكذا جرت سنة الله حتى اليوم، وكذلك ستجري بعد اليوم.

أجل، سيواصل أعداء الداخل والخارج في شنّ الغارة تلو الأخرى.. ويواصل الرفاق في التخلّي عن الوفاء المرجوّ منهم.. ويَعقُب الهدمَ هدمٌ آخر، والتخريبَ تخريبٌ آخر.. وتتوالى الضربة تلو الأخرى على جذورنا الروحية والمعنوية.. وتتفطر القلوبُ أملاً في نسماتِ مَحبّة.. ويدوّي أنين الموت في جميع الأطراف. ولكن إزاء هذه الصور القاتمة كلها، لن يغيب من المشهد "فرسانُ البعث" الذين يبثّون الحياة في كل مكان.

لقد تعرضت منطقتنا في فترات تاريخية مختلفة لشروخ وكوارث لا تعدّ ولا تحصى. سُقي إنسانُنا السمَّ الزُّعافَ مرات ومرات، وسُمِلت عيناه بالحميم مرارًا.. سُلبت منه قيمُه الدينية ومبادئه الوطنية، وهُجِّر بعيدًا ليقاسي أشدّ أنواع الاغتراب مرارة وإيلامًا.. سُرقت شمسُه، أطفئ قمرُه، وأوقع في سلسلة متشابكة من كسوف وخسوف. لقد مُنِي بالأمرّين معًا، لقي من العدوّ شدّة، ومن الخليل جفوة، فتعالت أنّاته.

وما أن تهاوت شرذمة من الأشرار وخمد أُوارُها حتى خلَفَتها شراذم أخرى. فرأى إنسانُنا من شراسة اللاحق وبغيِه ما حمله للترحّم على السابق، وما زال يتتابع عليه اضطهادُ المتكبرين وقهرُ المستبدين وحقدُ أعداء الدين وحنقُهم حتى استحالت حياته جهنمَ حمراء.

ما أشبهَ اليومَ بالبارحة.. فها هي شتى ألوانِ القهر والاضطهاد والمطاردة.. وتلك جهود خبيثة تعمل على طمس بصيص الأمل لدى إنساننا.. هذه حقوق تُنتَهك وعدالة تُمتهَن.. وثمة عقائد تُحظَر ممارستها على معتنقيها من أفراد ودول ومجتمعات، يُعانون كما لو أنهم في محاكم التفتيش فتكًا وبطشًا. ورغم ذلك كله، فإن مشاعل الأمل لا تفتأ تتلألأ هنا وهناك -وإن لم تكن في المستوى المطلوب- تبشر بما تنطوي عليه من انبعاثات متعاقبة في قابِل الأيام. والأرواح المضيئة التي تقوّم كلَّ سلوك وكلَّ كلام في ضوء محبة غامرة وأدب رفيع، تمضي في رحلتها نحو إحياء قيمنا الإنسانية، دون أن تخفف من سرعتها، أو تتعثر بأية عقبة تعترضها من غِلظة أو كراهية أو عدوان.

إنّ الله قد كفل أمر من صدقوا في عهدهم له، وشملهم برعايتِه الخاصة -لا حُرموا ظلال تلك الرعاية- ولم يتركهم يواجهون الظَّلَمة والمستبدين وحدَهم قط.

صحيح أن فكرة الباطل قد انتفخت تكبّرا، وتمكنت -حينًا- من أن تملأ الأجواء صخبا أجوف، فعصفت وأرعدت لتلقي الرعب في القلوب وتثير البلبلة في النفوس، وسلكت سبلا شتى لكتم أنفاس الحق وإخماد شمعته.. بيد أن حالات التراجع والانكماش التي سرت في شرايين الأمة جراء ذلك، كانت مؤقتة على الدوام حيث

دوّى نداء الحقيقة في كل مكان -بعد حين- أقوى مما كان. ولئن أمهل الله الظالمين مرة بعد أخرى في فترةٍ ما، إلا أنَّه لم يُهمِلهم قط، بل غالبًا ما أخذهم أخذ عزيز مقتدر وانتقم منهم لحظةَ مساسهم "غيرة الله"؛ ومدّ يدَ العناية والرحمة لمن ظُلِموا واستُضعِفوا في الأرض، ورفعهم إلى أعلى عليين، وهداهم سواء السبيل في سعيهم لجمع الشمل ولَمّ الشّعَث، وبصّرهم بمناهج الانبعاث العلمي والاجتماعي والعقلي والقلبي والروحي على حدّ سواء.

إن هؤلاء الفرسان الذين أخذ -وسيأخذ- الله بأيديهم ويؤيدهم برعايته ونصره، سيعبّرون حتما -إن اليوم أو غدا- عمّا تموج وتتدفق به أرواحهم من مشاعر الشفقة العميقة بمعازفَ وأوتار شتى صنعوها من إكسير المحبة والرحمة؛ ويبسطون أجنحة الحماية والرعاية كملائكة الحفظ على المظلومين والمضطهدين جميعًا حيثما حلّوا وارتحلوا، وسيقولون للطغاة والمستبدين الذين أقفرت قلوبهم من الرحمة: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(يوسف:٩٢)، بل لن يترددوا بفتح صدورٍ ملؤُها الرأفةُ والشفقةُ ولو لأولئك الذين قضوا حياتهم لا يفكرون إلا في الدم، ولا يتحدثون إلا عن الدم، يسفكونه، ويشربونه، ويبيعون عقولهم به.

هؤلاء الأبطال سيَظهرون يومًا ما في كلّ مكان وكأن العناية الربّانية قد تمثّلت فيهم، ليسقونا من كوثر البعث كأسًا بعد أخرى.. أولئك هم رُوّاد "الغاية الحُلم"، ورجالُ الإيمان والفاعلية، وفرسان اليقظة والحذر في اتصالهم بالله.. وأولئك هم مظهر الرحمة الواسعة المتمثلة بهذه السّعة وذاك الامتداد.

إذا قدّر الله مثلَ هذا البعث على أيدي "فرسان المستوى" هؤلاء، فسوف يبعثهم هم أولاً -بمقتضى السببية- ثم يُعقِب ذلك ببعث عام يشملنا جميعًا وينفخ الحياة فينا من جديد؛ وإننا على يقين أن البعث العام قادم بإذن الله.

وحريّ بالذكر أن المؤمنين الذين لا يحملون في صدورهم غاية سامية أو هدفًا نبيلاً، ومن شحبت عواطفُهم وخمدت جذوةُ حماستهم.. لا يمكن أن يَبعثوا الحياة في أحد أبدًا بعد أن أخفقوا في تحقيق الانبعاث التامّ في ذواتهم. نعم وعَد الله مَن توجّهوا إليه بأعماق قلوبهم بأن يحييهم، وبأن يُحيي بهم الناس، لكنَّه شَرَط لهذا الوعدِ أن يقتفوا أثر الأنبياء في عزمهم وهمتهم وثباتهم، وأن تفيض أنفسهم عزمًا وتصميمًا.

أجل، هذا هو دَيدنُهم، وذاك هو دأبُهم؛ ففي قلوبهم إيمان راسخ لا يتزعزع.. مرابطون في مواقعهم بقوة خارقة لا تقاوَم.. لا يكترثون بمضايقات تَدْهمهم من اليمين أو الشمال.. ولا يهتزون إزاء المصائب والابتلاءات قط؛ فهم مصدر لرفع معنويات من حولهم دائمًا. وإذا نادى منادي الهمّة ودعا داعي الخدمة كانوا في طليعة الصفوف، وإذا حانت المكافأة انكفؤوا فكانوا في آخرها، مستغرقين في مراقبة صامتة عميقة. إنهم -بهذه الخصال السامية- صروحُ إخلاصٍ فريدة، ورموزُ تفانٍ نادرة. إذا قدّر الحق تعالى أن يتكرم بمنحة خارقة، إنما يمنحها لهؤلاء الأبطال خالصةً، وإذا قَدّر نفخ الحياة في أمة، جعل أنفاس هؤلاء الأبطال لها صُورًا.

أبطال البعث هؤلاء، الذين نذروا أنفسهم لإحياء الإنسانية كافة،

ستجدهم قد عقدوا العزمَ على توظيف ما منحهم الله من قابليات وطاقات حتى آخر قطرة لإقامة صروح هدفهم الأسمى، وحلّقوا بأبهى مشاعر البذل والتضحية والعطاء، وتحققوا بأنبل خصائص المسؤولية في حفظ ورعاية الأمانة التي حملوها على عواتقهم، وترقّبوا بأعمق مشاعر الاستسلام و"الصبر الفعال" ما سيجود به الحق تعالى من ألوان التقدير والتكريم.. وتلك -والله- سجايا روح بطولية نذرت نفسها للحق جل وعلا.

وبينما يقوم هؤلاء الأبطال بما يجب من مسؤوليات ليجتمع الشملُ ويستوي العُود وتتحقق النهضة، يعلمون يقينًا أنه ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾(الرعد:٣٨)، فلا يضطربون ولا يرتبكون، بل يجيدون الترقب والانتظار سنين وسنين.

أجل، أحيانًا قد لا يتحقق النهوض المنشود رغم أداء الواجبات والمسؤوليات كافة، ولا يُمَكَّن فارسُ البعث من التعبير عن ذاته والقيام بمهمته وتنفيذ مشاريعه في المدى القريب، ولا تؤتي جهودُه ثمارَها المرتقبة في حينها. يرجع ذلك أحيانًا إلى قصور الفارس -الذي ينشد بعثًا- في بلوغ المستوى المطلوب من النضج، وإلى عجزه في توظيف طاقته كلها لإقامة صرح روحه.. ويرجع في أحيان أخرى إلى انشغاله بقضايا لا تعنيه مباشرة، ومن ثمة تعرّضِه للتشتت وضياع البوصلة، وانسياقه في سياق آخر من وتيرة الأحداث.

إذا كان انبعاثنا من جديد وعودتُنا إلى ذاتنا هبة ربانية -وهو كذلك بلا شك- فإنَّنا لن نقدرها قدرها لو جاءت قبل أن ننضج نضجًا يؤهّلنا لحملها، وستذهب أدراج الرياح دفعة واحدة، فنعرّض أنفسنا

بذلك لألوان جديدة من الشقاء والحرمان يصعبُ تغييرها وتلافيها. زد على هذا أنّ المولى ﷻ قد أناطَ مِنحَه المادية والمعنوية بأن يوفّي العاملون إرادتَهم حقَّها؛ ومن ثم يتأخر التوجه الإلهي إلى أن تأتي اللحظة التي يستثمرون فيها كلّ الفرص والإمكانات التي يملكونها.

وفي هذا الباب مخاطر أخرى، منها أن روّاد هذا الطريق قد يتوهمون أحيانًا أن قدراتهم وطاقاتهم ومواهبهم الذاتية هي كل شيء، فيقعون في شِباك غفلة الثقة بها والركون إليها، أو يوشك أن يقعوا في مثل هذا المهوى. لذا لا يعطيهم الله كلّ ما يسألون، ولا يحقق لهم فورًا كل ما يرغبون، صونًا لهم من الانزلاق في مهاوي الشرك، فكأنه بهذا يكون قد حَوّل وجوهَهم من الشرك إلى التوحيد باقتياد "جبرٍ لطفيّ".

وأحيانًا تجد أن كل شيء قد وُضع في موضعه الصحيح، لكن أبطال الانبعاث لمّا يبلغوا المستوى المطلوبَ في التوجه التام إلى الله، فيتركهم الحق ﷻ عُرضةً لألوان من الشدة والتضييق، ولا يستجيب لجهودهم الانبعاثية، ولا يلبي رغباتهم كما يطلبون، ليتوجهوا إليه وقد اصطبغوا بحالة الاضطرار، شاكِين إليه مكابداتهم بإخلاص المضطرين. وأحيانًا أخرى، قد تزِلّ أعين هؤلاء الأبطال بشكل مّا إلى تطلعات دنيوية، ولا يستطيعون تصفية قلوبهم من أن تَشُوبها خواطر نيل المقام والمنصب والجاه والشهرة، ومن ثم لا يمكنهم استيفاء معايير التجرد الكامل و"الاحتسابية" الخالصة لوجه الله. فإلى أن تأتي اللحظة التي ينسلخ فيها هؤلاء جَذريًّا عن التفكير بغير ما يرضي الله، ويُخلِصوا التوجّه إليه سبحانه، لا يمكنهم حيازةُ نفخة البعث.

أضف إلى كل ما سبق نقطةً في غاية الأهمية، وهي ضرورة تمييز الجيّد من الرديء، وتمحيص الخبيث من الطيب في نظر الناس عامة، وضرورةُ انكشافِ الظَّالمين والمستبدين أمام شرائح المجتمع كافة.. وذلك أن فئات من المجتمع، لديها قابلية للانخداع والاستفزاز، لذلك قد يُلمَح عندها انحيازٌ إلى جبهة أهل الإلحاد، وتصرفاتٌ مسيئة إلى أبطال الانبعاث ومواقفُ سلبية ضدهم؛ ومردّ ذلك غالبًا إلى غموض في الصورة وخفاء في الحقيقة. ولهذا يمنح الله الناس جميعًا فرصة للتأمل ومهلة للتفكّر حتى يأتي يوم يتبين فيه الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ويتضح فيه أين وقف أو سيقف الناس أجمعون خواصهم وعوامهم؛ وهذا يؤدي إلى تأخّر النتيجة المرتقبة بعض الشيء.

وأيًّا كان السبب فإن ما يقع على عاتقنا أن نقوم بمهمتنا وفق ما تقتضيه من أسس وواجبات، ووفق ما تقتضيه الحكمةُ، ثم نَكِل الباقي إلى الله تعالى.

ولْيعلم "فرسان البعث" جميعًا أنهم إذا استجابوا لدعوة الله ونداء رسوله الكريم ﷺ، فلن يُسلِمهم لعَثَرات الطريق يسقطون في حُفَرها أو يتيهون في مجاهيلها، بل سيهديهم سبل الانبعاث حتما سبحانه.

مؤلفات الأستاذ فتح الله كولن المترجمة إلى العربية

١- النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية
٢- ونحن نقيم صرح الروح
٣- ونحن نبني حضارتنا
٤- أضواء قرآنية في سماء الوجدان
٥- إشراقات الأمل في دياجي الحزن والأسى
٦- الاستقامة في العمل والدعوة
٧- التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح
٨- الرد على شبهات العصر
٩- القدر في ضوء الكتاب والسنة
١٠- الموازين أو أضواء على الطريق
١١- الموشور
١٢- ترانيم روح وأشجان قلب
١٣- جهود التجديد
١٤- جيلنا ومشاكله العصرية
١٥- حقيقة الخلق ونظرية التطور
١٦- خواطر من وحي سورة الفاتحة
١٧- روح الجهاد وحقيقته في الإسلام
١٩- شد الرحال لغاية سامية
٢٠- طرق الإرشاد في الفكر والحياة
٢١- كلمات شاهدة، حوارات مع الأستاذ فتح الله كولن

٢٢- من البذرة إلى الثمرة
٢٣- نحو عقيدة صحيحة
٢٤- لمسات في إصلاح المجتمع
٢٥- عقبات في سبيل الحق
٢٦- نفخة البعث شواهد الحياة بعد الموت
٢٧- مواقف في زمن المحنة حوارات إعلامية مع فتح الله كولن
٢٨- البيان الخالد لسان الغيب في عالم الشهادة
٢٩- أسئلة العصر المحيرة
٣٠- ألوان وظلال في مرايا الوجدان

مؤلفاته باللغة العربية

١- تعليم العربية بطريقة حديثة (٤ أجراء)
٢- القلوب الضارعة
٣- مجموعة الأدعية المأثورة
٤- الطلب المنكسر
٥- توحيد نامه
٦- أنين القلب

www.gulenarabic.com
facebook.com/fgulenarabi
twitter.com/fgulenarabi

الغرباء

الغرباء، ليس كتابا من الكتب، وليس مقالا ضمن المقالات، وليس سِفرا يُلحَق بالأسفار؛ وإنما هو واحة ودوحة، جنة وجنان، سماء وأرض، ماء وخضرة، حبٌّ ووفاء، صبر واحتراق، سماحة وسلام، بكاء وألم.. هو مزيجٌ من المعنى لا يملك العقل إدراك مداه، ولا القلبُ الغوصَ في قاعه.

الغرباء، أوله "دموع تُكَفكَف" وأوسطه "انتصار للروح، ومكابدة للفكر"، وآخره "انبعاث جديد، وغد وليد"؛ وما بين ذلك تشريحٌ للقوة في مقابل الحكمة، وتمليحٌ للمعقولية في مواجهة العاطفة.

طوبى وألف طوبى للغرباء!.. بشرى وألف بشرى لهؤلاء الذين يتنفسون أملاً، وينشرون أمنًا وسكينة وسلامًا، ناسين ملذاتهم الذاتية من أجل سعادة المجتمع وطمأنينة الأمة، في زمن تلتهم فيه نار الفتنة والفساد الأخضر واليابس.

ISBN 978-977-85373-3-8
9 789778 537338

دار الانبعاث للنشر والتوزيع